

قضايا فكرية

بدر الحسن القاسمي

(نائب رئيس مجمع الفقه الإسلامي الهندي)

مؤسسة إيفا للطبع والنشر - نيودلهي

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٥هـ ————— ٢٠١٤م

مؤسسة إيفا للطبع والنشر

١٦١-ايف، بيسمنت، ص. ب.: ٩٧٠٨

جامعة نغر، نيو دلهي-١١٠٠٢٥

هاتف: (٠٠٩١-١١-٢٦٩٨١٣٢٧)

الموقع: www.ifapublications.com

البريد الإلكتروني: ifapublication@gmail.com

قضايا فكرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلام وحقوق الإنسان

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم وكرّمه وفضّله على كثير ممن خلق وحمله في البر والبحر كما يقول سبحانه: {ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً} (الإسراء: ٧٠)

ويتميز الإنسان بحريّة الإرادة والاختيار وقدرة التمييز بين الخير والشر وذلك لما وهبه الله سبحانه من نعمة العقل وقوة التفكير . والعقل هو مناط التكليف بأحكام الشريعة وإلى ذوي العقول يتوجّه الخطاب الشرعي فتترتب الواجبات والمسؤوليات . وان "حقوق الإنسان" ليس في تعاليم الإسلام مجرد شعار يرفع أو توصية حضارية تلقى بل انها أوامر وأحكام سماوية واجبة التنفيذ غير قابلة للتبديل والتغيير {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد} .

ولما كان الإنسان كائناً مخلوقاً مكلفاً ومسئولاً عن تصرفاته لما يتميز به من عقل وحرية الاختيار فان أي انتهاك لهذه الحرية اعتداء على إنسانية الإنسان واهدار لآدميته وان انتهاك

حقوق الإنسان يأتي من حاكم متأ له يستغل سلطته لانتهاك الحرمات واستباحة الأعراض والأموال كما يأتي أحيانا من رجال الدين الفاسدين الناطقين باسم الدين والمتحكمين في دنيا الناس وأخراهم الذين يتخذون أساليب الابتزاز في الحصول على أموال الناس والعبث بأعراضهم . كما أن السيطرة باسم اللون أو الجنس المفضل وتغليب الرجل الأبيض على الأسود أو الادعاء باختيار الله لشعب معين على الشعوب الأخرى أيضا تفتح أبواب الظلم وانتهاك الحرمات كما هو مشاهد وملموس من تصرفات الصهانية من اليهود.

إن القيم التي يؤمن بها المسلمون هي من مصدر خارج عن الإنسان بعيد عن الأهواء يتساوى فيها الجميع لأنها لو كانت مستمدة من البشر لكانت وسيلة للتعالي والتسلط "فلا إكراه في الدين" والناس سواسية كأسنان المشط" ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأسود على أحمر في تعاليم الدين الإسلامي الخفيف لأن الإكراه إسقاط للعقل وإلغاء للإرادة والإختيار وسبيل للتسلط الجائر وسفك الدماء.

فمن أجل حماية حقوق الإنسان أعلن القرآن: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (البقرة : ٢٥٦)

{وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}

(ق: ٤٥)

فالتأله البشرى بكافة صوره و أشكاله مرفوض في الإسلام
والتلبس بصور التدين المغشوش وادعاء العصمة لسلوك فئة من
الناس جريمة.

وان أساليب الاستدلال والإقناع بإقامة الحجة والبرهان هي
الوسيلة لحث الناس على المبادئ والقيم وقبول تعاليم الدين
الإسلامي الخفيف.

و ان القلم أمضى سلاحا من السيف لدى المسلمين إلا إذا
انتهكت الحرمات واستبيحت الأنفس والأعراض فقد يأخذ السيف
مكان القلم لأن:

السيف أصدق إنباء من الكتب:

في حدها الحد بين الجد واللعب

وفيه سرّ مشروعية الجهاد حماية لحقوق الإنسان ودرأ للفتنة
بين البشر وإنقاذاً للناس من الهلاك والدمار.

إن الدين الإسلامي ينطلق من مبدأ تحقيق المصالح ودفع
المفاسد. و ان الدين والنفس والمال والعقل والعرض من المصالح

الضرورة للإنسان يجب حمايتها فجاءت الأحكام الشرعية لحفظ الدين، والمحافظة على النفس وحماية العقل والنسب وحفظ الأموال يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله:

ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم وماله فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول مفسدة ودفعها مصلحة. ويقول الغزالي رحمه الله:

وتحريم تفويت هذه الأمور الخمسة والزجر عنها يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع أريد بها إصلاح الخلق ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر، والقتل والزنا والسرقه وشرب المسكرات. (١)

١ - إن من حقوق الإنسان حق بقاءه في الدنيا بعد وجوده إلى أن يأتي أجله ويموت موته الطبيعي فالنفس الإنسانية محترمة مصونة ومقصودة بذاتها لا يملكها إلا الحي القيوم الذي خلق الموت والحياة، فالإنسان لا يملك نفسه فليس له أن ينتحر ويقتل نفسه كما لا يجوز له أن يقتل الآخرين. وقد

(١) المستصفى : ج ١ - ص ٢٨٨ - ويراجع الموافقات للإمام الشاطبي : ج ٢ - ص ٤٤ .

وضع الإسلام قانون القصاص حماية للنفس الإنسانية
العزيزة الغالية. وإن الحياة موهبة إلهية ومنحة ربّانية وإن
حق الحياة مكفول في الشريعة لكل إنسان حتى للجنين في
بطن أمه ويجب على الجميع حفظ هذا الحق وحمايته من
كل اعتداء يقول الله عز وجل:

{ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق} (الأنعام :

(١٥١)

ويقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي
الْقَتْلِ} (البقرة: ١٧٨)

ويقول: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ} (البقرة: ١٧٩)

وقد حرّم الإسلام الانتحار كما حرّم الإجهاض وأباح
المحظورات للحفاظ على الحياة الإنسانية حيث إن الضرورات تبيح
المحظورات، فلا مجال للفتك والبطش وإهلاك الحرث والنسل
وإبادة وإفناء الشعوب والمجموعات البشرية في الإسلام باستخدام
القنابل الذرية والعنقودية وأسلحة الدمار الشامل التي تبيد
الشعوب والأمم ولا تبقي ولا تذر.

وإن استهداف الناس الآمنين من النساء والأطفال وقتلهم

بالأسلحة الفتاكة البيولوجية والجرثومية جريمة ضد الإنسانية
ومحرم شرعا.

إن النفس الإنسانية ذات قيمة كبيرة وأهمية بالغة يجب
حمايتها وعدم ازهاقها يقول الله عز وجل:
{أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة : ٣٢)
وجاء عن قتل النفس المؤمنة:

{وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَّهِ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا
وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء: ٩٣)
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

"إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول كلاهما في
النار، قالوا يا رسول الله ما بال المقتول: قال كان حريصا على قتل
صاحبه" (رواه البخاري)

وكذلك من حقوق الإنسان:

حق الاعتقاد فمن الحقوق الأساسية للإنسان حق التدين
والاعتقاد ولا عبرة في الإسلام للاعتقاد غير الجازم فلا مجال
للإكراه في الدين بل يعتبر الإسلام ابطان عقيدة وإظهار غيرها
نفاقا، وهو جريمة أخلاقية بشعة تفوق على الكفر الصراح في

الشناعة، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار بالنص القرآني .
وذلك لأن حق التدين مرتبط بالعقل وحرية الإرادة والاختيار
والقناعة الشخصية للإنسان ولا سلطان على القلب لأحد غير الله
سبحانه ومع ان الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وان
الإنسان يغير هذه الفطرة بفعل إنساني أو إيجاء شيطاني كما جاء
في الحديث النبوي الشريف:

"كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو
يمجّسانه" (رواه البخاري ومسلم)

فإن الإسلام قد ضمن حرية الاعتقاد أولا ومنع الإكراه
على الدين ثانيا ثم حث المسلمين على التسامح مع كافة الأديان
ولو كان الدين باطلا.

فحول حق التدين وحرية الاعتقاد يقول الله عز وجل: {لا
إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي} (البقرة : ٢٥٦)
ويقول سبحانه:

{ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} (يونس : ٩٩)

وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى الدين القيم وحث على
اعتناقه وشدد على المعارضين لقبول الحق وقال في أسلوب التهديد:

{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}
(الكهف : ٢٩)

ولم يجبر الإسلام الإنسان البالغ العاقل على الدخول في الإسلام مع ان الإسلام هو الدين الحق المبين وان عقيدته هي الصراط المستقيم وترك للإنسان البالغ حرية الاعتقاد واختيار الدين الذي يريده وقال للرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتفي بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة.

قائلاً:

{فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر} (الغاشية :
٢١-٢٢)

فالعقيدة في نظر الإسلام ليست مجرد كلمة تلفظ باللسان أو طقوس ورسوم تؤدي بالأبدان بل هو الإيمان بالله الحق الواحد الأحد.

ولم يكتف الإسلام على منح حرية الاعتقاد لغير المسلمين بل حرم على المسلمين الاعتداء على بيوت عبادتهم وهدمها وان خلفاء المسلمين كانوا دائماً يوصون الجنود بعدم تعرض دور العبادة لغير المسلمين وان الوثيقة العمرية لبيت المقدس معروفة للجميع.

وحت الإسلام المسلمين على حسن التعامل مع غير المسلمين و مراعاة حقوق القرابة والجوار . والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعود مرضى غير المسلمين ففي المعاملة الإنسانية لا يفرق الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين بل يأمر اتباعه بالأنصاف مع الأعداء والذين يختلفون معهم في العقيدة والدين يقول الله عز وجل:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ،
ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى
واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون } (المائدة: ٨)
بل الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام مثالا فريدا وعاليا
للتعامل مع غير المسلمين الذين كانوا يعيشون داخل بلاد الإسلام
حيث يقول:

"من ظلم معاهدا، أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته، أو
أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة" (١)
بل قد روى الطبراني بإسناد حسن:
"من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" (٢)

(١) رواه أبو داود ٢/ ١٥٢، والبيهقي ٥/ ٢٠٥.

(٢) الفتح الكبير ٣/ ١٤٤.

كما ان الإسلام أجاز التعامل المالي مع غير المسلمين وقد عاش الكفار في كنف المسلمين في العصور الإسلامية بكامل الحرية ومع كافة الحقوق ولم يمارس المسلمون تلك الأعمال الوحشية التي ارتكبتها النصارى لأسباب في حق المسلمين في الأندلس وما ارتكبه الصليبيون في بيت المقدس وفي بلاد الشام . نعم إذا اسلم الإنسان عن اقتناع ثم جذبه الطمع المادي أو الاغراء الجنسي إلى ترك الإسلام واعتقاد الكفر فلا شك ان الإسلام يعاقبه بشدة حتى لا تصبح الدين لعبة في أيدي الناس يسخر به العابثون المتلاعبون.

فحماية الدين والعقل والمال والعرض من مقاصد الإسلام وأساسه الرئيسية فلحماية النفس شرع القصاص ولحماية المال شرع قطع يد السارق ولحماية العرض شرع حد الزنا والقذف. ولحماية العقل وضعت عقوبة الجلد على السكر وكذلك لحماية العقيدة والدين شرع جزاء المرتد إضافة إلى إقامة النظام العادل للحياة ، وتحقيق المساواة بين كافة البشر، والقضاء على التفرقة العنصرية وحماية الإنسان من التجسس عليه وإساءة الظن به و إعطاء الحقوق كاملة غير منقوصة.

في كل هذه الأمور تعاليم الإسلام فائقة على كافة المواثيق من بينها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ حيث

انه ليس له صفة الإلزام لأنه لم يكن معاهدة دولية بل انه صدر في صورة مناشدة و مناداة فهي توصية غير ملزمة على عكس القانون الإسلامي حيث انه جزء من التشريع الرباني وله صفة إلزام وتكتنفه قواعد ومبادئ إسلامية تساعد في حماية حقوق الإنسان.

إن من أهم المبادئ التي يركز عليها الإسلام المساواة بين البشر فالناس كلهم أسرة واحدة انبثقت من أصل واحد من أب واحد وأم واحدة فلا مكان بينهم للتفاضل في أساس الخلقة وابتداء الحياة. يقول الله تعالى:

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} (النساء : ١)

فالإنسانية معنى مشترك لا يختلف فيه إنسان قارة على إنسان قارة أخرى أما اختلاف الألسنة والألوان فالها من آيات الرب الخالق وان توزيع الناس على شعوب وقبائل يهدف التعارف والتآلف لا الاختلاف والتناحر.

يقول الله عز وجل:

{يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير} (الحجرات : ١٣)

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحقيقة في
حجة الوداع قائلا:

"أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم
لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على
عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض
على أحمر فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت. اللهم فاشهد ألا
فليبلغ الشاهد الغائب"

وقد قضى الإسلام على التفرقة العنصرية بمثل هذه
التوجيهات وسوى بين الحاكم والمحكوم في الحقوق العامة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلن عن نفسه:

{قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ} (الكهف : ١٠٩)

وأبو بكر رضي الله عنه يتولى الخلافة بعد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيقول:

"أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، ان أحسنت
فتابعوني وان صدفت فقوموني"

ومن الواضح لكل ذي عينين ان القانون الدولي لحماية
حقوق الإنسان وكذلك المواثيق الدولية والاتفاقيات الدولية لم
تنجح في حماية حقوق الإنسان بل زادت مجالات انتهاك تلك

الحقوق على كافة المستويات لأنها تخلو من تلك الخصائص التي تتمتع بها قوانين حماية حقوق الإنسان في الإسلام.

إن الإسلام لم يكتف ببيان مبادئ لحماية حقوق الإنسان بل انه أقام منظومة ثلاثية: للعقيدة وللأخلاق وللعبادات الإسلامية التي تصلح الإرادة والسلوك ومن غير إصلاح الإرادة والسلوك لا يمكن حماية حقوق الإنسان لأن زمام الأمور إذا كانت في أيدي أناس من ذوي إرادات فاسدة فتصدر عنهم قرارات فاسدة تؤدي إلى المظالم وهضم الحقوق وهذا ما تعاني منه البشرية الآن على كثرة جمعيات حماية حقوق الإنسان على الصعيد العالمي.

إن الكمال، والخلو من الظلم والخطأ وتأثير الهوى يجعل قوانين الإسلام أرقى وأكثر تأثيراً وفعالية، ثم ان الطاعة التلقائية وتنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع على أساس الأخوة وكون الأمر حلالاً أو حراماً شرعياً لا صحيحاً أو غير صحيح قانونياً فقط يجعله أكثر فعالية.

إن الإنسان الذي يكون في مركز القرار وبيده القوة والسلطان وهو أسير لأهوائه وشهواته ومصالحه، إلى جانب نفسه الأمارة بالسوء لا يمكن ان يكون منصفاً ولا ينتهك حقوق الإنسان.

فإذا كان الأساس الفكري لنظرية الحقوق والحريات هو
نظرية القانون الطبيعي والفكر العلماني فتكون أهواءه ومصالحه هي
في المقدمة وإن كان في كلامه متزنا. وقد نبه القرآن الكريم على
ذلك في قوله تعالى:

{ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله
على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل
له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهادر { (البقرة:
٢٠٤-٢٠٦)

فالخلاصة أن الإسلام وحده من خلال تعاليمه السمحة ضامن
لحقوق الإنسان وإن نظامه يفوق في حفظ حقوق الإنسان على
كافة الأنظمة والدساتير والاتفاقيات الدولية شريطة أن يتم تطبيق
تعاليمه بشكل كامل غير منقوص. والله الأمر من قبل ومن بعد.

دور الشعائر الدينية في بناء الحضارة الإنسانية (حجة الوداع نموذجاً)

بناءً على دعوة كريمة من معالي وزير الحج السعودي د. فؤاد عبد السلام الفارسي للمشاركة في ندوة الحج الكبرى لعام ١٤٢٨هـ بعنوان: "دور الشعائر الدينية في بناء الحضارة الإنسانية" حجة الوداع شعائر وقيم "يشرفني أن أقدم هذا البحث المتواضع إلى الأمانة العامة لندوات الحج والعمرة بوزارة الحج في المملكة العربية السعودية شاكرًا لدور الوزارة الرائد في تسهيل أداء فريضة الحج على ضيوف الرحمن وحرصها الدائم على تنفيذ رغبة خادم الحرمين الشريفين في توعية الحجاج والتوسعة في المرافق اللازمة و تحقيق مقاصد الحج والتوجيه الفكري والمعنوي لقاصدي البيت العتيق، واستشعارهم بمعاني هذا الركن العظيم، فجزي الله القائمين عليها ويدعم على المملكة العربية السعودية نعمة الأمن والازدهار و يحفظها من كل سوء و مكروه.

دور الشعائر في بناء الحضارة الإنسانية (حجة الوداع نموذجاً)

الشعائر: جمع شعيرة وهي: العلامة، والشعائر والمشاعر:
علامات ومعالم.

و "شعائر الله" هي أعلام دينه التي شرعها الله سبحانه فكل شيء يكون علماً من أعلام طاعته فهو من شعائر الله فالصلاة، والصيام والزكاة والحج و مناسكه و مواقيته، وإقامة الجمعة والجماعة في أماكن تجمع المسلمين و بلدانهم من شعائر الله. يقول صاحب لسان العرب:

والشعيرة: البدنة المهداة، سميت بذلك لأنه يؤثر فيها بالعلامات^١ والجمع شعائر.

وشعار الحج: مناسكه و علاماته و آثاره و أعماله جمع شعيرة^٢ و كل ما جعل علماً لطاعة الله عز وجل كالوقوف والطواف والسعي والرمي والذبح وغير ذلك.

و منه الحديث: إن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مر أمتك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج.

كذلك الأذان والإقامة و بناء المساجد والدفاع عن حياض المسلمين في الجهاد في سبيل الله كل ذلك من شعائر الله و يقول الله عز وجل:

{إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} البقرة: ١٥٨ والمراد هنا من الشعائر: المناسك التي جعلها الله تعالى أعلاما لطاعته.

و يقول الله تعالى: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} الحج: ٣٦

و يقول سبحانه و تعالى: {وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} الحج: ٣٢
يعني معالم دين الله و طاعته، و تعظيمها هو: أدائها على الوجه المطلوب.

و قيل: إن المراد منه العبادات الخاصة بالنسك و مواضعها و أزمانها، و قيل: المراد منه: "الهدى" خاصة، و تعظيمها: استسمانها، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه (١) والإشعار هو: جعل علامة على سنامها بأن يعلم بالمدينة ليعرف أنها "هدى" فيكون ذلك دليلا على إحرام صاحبها و على أنه جعلها هديا لبيت الله الحرام فلا يتعرض لها أحد ولا يسيء إليها.

قال تعالى: { لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ } المائدة: ٢

و قد بين الفقهاء أن على المسلمين إقامة شعائر الإسلام الظاهرة' فرضا كانت الشعيرة أم غير فرض فلو أتفق أهل قرية أو محلة على ترك الشعيرة يجب على ولي أمر المسلمين معاقبتهم. يقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني: إن أهل بلدة لو اجتمعوا على ترك الأذان لقاتلتهم عليه و لو تركه واحد ضربته و حبسته (٢)، و روي عنه مثله في أهل بلد اجمعوا على ترك الختان (٣).

و الشعائر تتفاوت في الدرجات يقول الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي: إن معظم شعائر الله أربعة:

- القرآن الكريم.
 - الكعبة المشرفة.
 - و نبي الرحمة المصطفى صلى الله عليه وسلم.
 - و الصلاة.
- و من تعظيم القرآن الكريم: أن يستمعوا له، و ينصتوا إذا قرأ، و أن يبادروا إلى أوامره كسجدة التلاوة والتسبيح عند الأمر بذلك، و أن لا يمسوا المصحف على غير الوضوء.
- ومن تعظيم الكعبة المشرفة: أن لا يطوفوا إلا متطهرين، وأن

يستقبلوها في صلاتهم، وأن لا يستقبلوها ولا يستدبروها عند الغائط.
ومن تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم: وجوب طاعته وحبه
وإتباعه و عدم رفع الصوت عنده.

ومن تعظيم الصلاة: تقديم الثناء و مراعاة آداب المناجاة و
ضم الأطراف و ترك الالتفات (٤).

لقد اختار الله سبحانه و تعالى أموراً ظاهرة محسوسة،
احتصت به، و نسبت إليه، و تجلت عليها رحمته و حفتها عنايته
بحيث إذا رؤيت ذكر الله، وارتبطت بها وقائع وحوادث وأفعال
وأحوال يذكر بأيام الله وآلائه، ودينه وتوحيده الخالص وحسن
بلاء أنبيائه و سماها: شعائر الله التي جعل تعظيمها تعظيمه،
والتفريط في جنبها تفريطاً في جنبه، وسمح للناس أن يقضوا حينهم
الكامن في نفوسهم ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة، بل حث
على ذلك و دعا إليه فقال: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ
تَقْوَى الْقُلُوبِ} وقال:

{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ}

الحج: ٣٠

ومن مقاصد الحج موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم
وإسماعيل عليهما السلام، فانهما إماما الملة الحنيفية ومشرعاها

للعرب، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث لتظهر به الملة الحنيفية، وتعلو به كلمتها، وهو قوله تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} الحج: ٧٨ فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها من خصال الفطرة ومناسك الحج وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم» (٥).

إن أداء مناسك الحج والتقاة أبناء ملة إبراهيم في مكة المكرمة كل عام فيه إبقاء وتخليد لحركة توحيد الإبراهيمية واتصالها بالإنسانية لتكون على عقيدة إبراهيم عليه السلام.

{جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} المائدة: ٩٧
و قيل في بيان أسرار الحج:

كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة يتميز بها الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد، ليرتفع الصيت، و تعلو الكلمة و يتعارف أهلها فيما بينهم.

كذلك الملة تحتاج إلى حج ليميز الموفق من المنافق و ليظهر دخول الناس في دين الله أفواجا وليرى بعضهم بعضا، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة

والترائي(٦).

يقول الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى
١١٧٦هـ مبينا حكمة الحج وأسراره:

"اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين
في زمان يذكرّ حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء
والصالحين' في مكان فيه آيات بينات قد قصده جماعة من أئمة
الدين' معظّمين لشعائر الله متضرّعين راغبين راجين من الله الخير و
تكفير الخطايا فان الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها
نزول الرحمة والمغفرة، و إليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم:
«ما رئي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر
ولا أغيط منه في يوم عرفة»(٧).

كذلك يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

إذا اجتمعت همهم، وتجردت للضراعة والابتهاال قلوبهم،
وارتفعت إلى الله أيديهم، وامتدت إليه أعناقهم وشخصت نحو
السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن
أنه يخيب أملهم و يضيع سعيهم، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم(٨).
إن "الدين" هو رائد الإنسان إلى الحضارات، فمنذ أوّل
حضارة شيدها الإنسان كان "الدين" موجهها لإرادته، مهيمنا على

تصرفاته موحيا لإبداعاته و ابتكاراته.

إن الحضارات الإغريقية 'والبابلية' والآشورية 'والفرعونية' والهندية كلها نمت وازدهرت في ظل الديانات السائدة في عصورها. ومن المعلوم أن الحضارة هي كل عمل تتمثل فيه الخصائص الإنسانية الفكرية والوجدانية والسلوكية(٩).

وقيل: إن الحضارة هي جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع أو مجتمعات مشابة(١٠).

ويقول الدكتور حسين مؤنس: إن الحضارة في مفهومها العام هي: ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكانت الجهود مقصودة أم غير مقصودة وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية(١١).

إن الإسلام قد أحدث تغييرا جذريا في حياة المجتمع البشري على رؤية واضحة وإيمان بعقيدة التوحيد وان مسار الحركة الإنسانية في إعمار الكون و إقامة الحياة ظل تابعا له.

وإن تاريخ التمدن الإسلامي وما شهده العالم خلال ازدهاره من تطورات علمية وثقافية وعمرانية خير دليل وأكبر شاهد على تأثير الشعائر الإسلامية في تشييد الصرح الحضاري للإسلام.

وبالشعائر الدينية المختلفة يحصل التمايز بين الحضارات المختلفة حتى البناء المعماري يحمل علامات توحى إلى طقوس وشعارات دينية يمكن أن يشاهد ذلك في المباني والمعابد التراثية والتحف الفنية في المناطق التي كانت خاضعة للديانات الوثنية كالهند واليونان ومصر وغيرها من البلاد ذات الحضارات العريقة.

بينما تخلو المباني التي بناها المسلمون في عصور ازدهارهم مثل القلعتين: الحمراء والزهراء في الأندلس والحصون والقللاع والمعالم الأخرى المنتشرة في العواصم الإسلامية مثل مكة والمدينة، و دمشق والقاهرة و قرطبة و غرناطة، و طليطلة و قيروان واستانبول^١ والمباني التي شيدها المسلمون الأباطرة المغول في دلهي و لاهور وآسيا الوسطى وغيرها من المناطق.

إن الحضارة الإسلامية التي نشأت في ظل التوحيد وتحت شعار الأذان والصلاة والقرآن كانت ذات إبداع وابتكار في بناء المساجد والمآذن والمنابر والمحاريب كما كانت ذات إبداع وابتكار في مجال تحسين الخطوط وتزيين المباني باللوحات الفنية الخالية من صور ذوات الأرواح وكذلك في كتابة وطبع المصاحف بأنواع وألوان وأنواع مختلفة من الإخراج الفني.

أما الحج فهو من أعظم الشعائر الإسلامية وهو ذو طابع

عالمي يتم أدائه في أيام محددة وفي مشاعر مقدسة. بمكة المكرمة فكان لشعائر الحج تأثير كبير في خلق جو إيماني عالمي وتطویر حضارة إنسانية وذلك لاجتماع خلق كثير من كافة البلاد والأمصار ومن جميع الأعراق والأجناس ثم عودتهم إلى ديارهم حاملين معهم روح الإخاء والمودة وروح المساواة والمواساة، وروح التضامن والتكاتف ومع التجربة الفريدة لتوحيد القبلة ووحدة الصف والاشترار في الأهداف والهنافات والتغلب على الشهوات وتحقيق أسمى الغايات.

منذ فجر التاريخ الإنساني وبداية حركة إعمار الأرض وتكوّن المجتمعات البشرية الكثيفة في أماكن مختلفة من الكرة الأرضية قامت وسادت حضارات عديدة ثم بادت واندثرت معالمها ونشأت حضارات جديدة إن الحضارات كما يقول بعض الفلاسفة مثل الكائنات الحية تولد وتتطور وتزدهر ثم تموت.

وقد ربط المؤرخ البريطاني الشهير آر نولد تويني قيام الحضارات بجو التحدي حيث يكون الناس على استعداد لقبول التحدي والإبداع في ترسيخ دعائم الحضارة ويقول إن الحضارة تنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار (١٢).

إن الإسلام جاء بعد انقراض عديد من الحضارات وظهور

الظلام في المجتمعات الإنسانية فجاءت تعاليمه لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وركزت على بناء الإنسان قبل بناء العمران وتشيد البنيان فقامت حضارة الإسلام على أساس التوحيد والعدل، ووحدة الأمة والأخلاق الفاضلة والقيم العليا النبيلة. و إن الإسلام هو دين الفطرة، و إن تعاليمه تنسجم مع مقتضيات العقل والفطرة، يقول جوته: "إذا كان الإسلام هو التسليم لله فكلنا بالإسلام نحيا و نموت".

ولما كانت الحضارة الإسلامية ربانية المصدر ومفتحة على الجوانب الإيجابية في الحضارات الأخرى ومتفاعلة معها في الأخذ والعطاء فهي تبقي خالدة ومؤثرة في تطهير المجتمع الإنساني من الأعمال والأخلاق المنافية لآداب، وتحقيق العدالة والخير والنهوض بالأمة.

إن الحضارة الإسلامية ظلت قرونا طويلة مصدر إشعاع حضاري ومبعث تقدم علمي وتقني في العالم ووسيلة للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.

لقد أرسى الإسلام دعائم حضارته على التوحيد، وان العقيدة هي التي حملت المسلمين على التضحيات وأورثت فيهم روح التفاني في سبيل الحق والحرية ومكافحة قوي الشر والطغيان

من أهل الشرك والكفر والفساد والطغيان.
كما أن الإسلام أكد على وحدة الأصل الإنساني يقول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات: ١٣
ويقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}
النساء: ١

و يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم:
«يا أيها الناس إن ربكم واحد و إن أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»(١٣).
إن بناء علاقات الناس على هذا الأساس نزرعة إنسانية حضارية بارزة في تشريعات الإسلام المختلفة.

تتجلى هذه المظاهر في وقوف المسلمين صفا متراصين في الصلاة وفي زى الإحرام الموحد أثناء أداء مناسك الحج كما أن المسلمين جميعا من أي جنس أو لون كانوا يؤدون المناسك مع بعض من غير تمييز بين شريف ووضيع وأمير وفقير.

كما ان الإسلام أسس حضارته على قيمة العدل وقد أشار إلى عقيدة التوحيد وإلى قيمة العدل الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه أمام رستم في قولته المعروفة "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله من ضيق الدنيا إلى سعتها و من جور الأديان إلى عدل الإسلام" (١٤).

والقرآن ينص في عشرات من الآيات على الحكم بالعدل وإقامة القسط.

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول و هو غاضب على الشفاعة من أجل إيقاف الحد:

«أ تشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (١٥).

ومن أسس الحضارة الإسلامية العلم: فالإسلام دين العلم وأول وحي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فيه حث على القراءة وطلب العلم {إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق: ١ وقد مدح القرآن التعليم يقول الله عز وجل:

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران: ١٦٤

ومن سمات حضارة الإسلام انها تقوم على أسس الأخلاق
الفاضلة والالتزام بالمواثيق' وإن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم
كان على خلق عظيم ويقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»
كذلك تقوم حضارة الإسلام تقوم على منع الظلم و دفع العدوان.
لقد قامت الحضارة الإسلامية في ضوء هذه المبادئ و شملت
كافة جوانب المعرفة وجميع المظاهر العمرانية وأن الحضارة
الإسلامية هي التي كانت رائدة للحضارة الغربية وهي التي كانت
مقدمة لعصر التكنولوجيا المعاصر.

تقول زغريد هونكه:

"في خلال مدة حكمهم التي دامت ٨٠٠ سنة، خلقت
الأسر العربية الحاكم في الأندلس حضارة زاهرة (١٦).

يقول الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي:

"إعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية
لإقامة اعوجاجها وإزالة تحريفها و إشاعة نورها وذلك قوله تعالى:
{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} النحل: ١٢٣

ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة
مسلمة وسننها مقررّة، إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة
راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها بل الواجب تقريرها، لأنه أطوع

لنفوسهم، وأثبت عند الاحتجاج عليهم (١٧).
في كل أمة و لدى كافة أهل الأديان أمكنة مقدسة ومزارات
وأضرحة تشد إليها الرحال، فهناك مناسك مشهورة ومشاهد
معروفة يجتمع فيها الناس ويزبحون الذبائح ويقدمون القرابين لله
تعالى أو لآلهتهم على اختلاف الملل والديانات.

قال الله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ
بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} الحج: ٣٤

و يقول الله عز وجل: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ}
الحج: ٦٧

وتؤكد الحفريات والآثار للمدن المطمورة أن الأمم البائدة
أيضاً كانت لها أسواق ومشاهد ومزارات كان يجتمع حولها الناس
لإحياء المناسبات.

و لكل أمة تقاليد وطقوس وأساليب وطرق لأداء العبادات
وإرضاء من تعبده وما تعتقد فيه من الآلهة أو الأصنام أو الأضرحة
والتماثيل فتكون زيارتها لتلك المقدسات حجاً سنوياً وتجمع الناس
في تلك المناسبات عيداً سعيداً ومهرجاناً دينياً عاماً.

وبعض أهل تلك الديانات يتحملون عناء كبيراً و مشقة شديدة لأداء تلك الطقوس فالمسافات الطويلة لا يقطعونها إلا زحفاً في الأرض أو مشياً على الأقدام وهم حفاة وشبه عراة ليصلوا إلى تلك المعابد التي تقع في المغارات أو الأماكن النائية لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا بشق الأنفس.

ولا تختلف حالة الديانات السماوية السابقة مثل اليهودية والنصرانية في ذلك فلها أيضاً أماكن ومعابد أو صوامع وكنائس تعتبر زيارتها الدورية عبادة ما فوقها عبادة.

فاليهود لهم عيد الحصاد وعيد الفصح وعيد المظال يحجون فيها إلى البيت المقدس وهي فريضة على كافة اليهود باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم' والإناث والعميان والمصابين بالأمراض البدنية والعقلية وتسمى أيام الحج أيام الزيارة لدى اليهود' يزورون فيها قبور عظمائهم، كما يجتمعون من مساء ١٧ من تموز إلى ٩ من آب ثلاثة وعشرين يوماً متوالية مقابل الجدار المغربي لهيكل سليمان(١٨).

كذلك المسيحيون يقومون بزيارة بيت لحم وأماكن أخرى ذات صلة بحياة السيد المسيح عليه السلام في فلسطين وزيارة قبور رجال الدين المسيحيين مثل ضريح القديس بطرس والقديس بولس

في روما وهي بمثابة الحج كما وصف بذلك في موسوعة الأديان والأخلاق.

والبوذيون يحجون إلى مدينة "كيا" بالهند والهندوس لهم أماكن كثيرة يزورونها ويحجون إليها من بينها ملتقى "نهر كنكا و جهنا" في إله آباد و ضفاف "نهر كنكا" في بنارس و عديد من المغارات والكهوف وأماكن تنسب إلى آلهتهم.

لكن حج المسلمين إلى بيت الله الحرام و طوافهم حول الكعبة المشرفة وزيارتهم المشاعر المقدسة تختلف شكلا ومضمونا عن تلك الأعياد والمهرجانات، فالحج توحيد وإخلاص و ذكر و تلبية و عبادة و تضحية و أيام الحج أيام طاهرات مباركات {فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} بينما تكون أعياد كثير من الأمم صيحة وصراخ ومكاء وتصدية وعريضة ومجون.

إن الحج في الإسلام فريضة قائمة وعبادة مقصودة وهو بمناسكه وأركانه وشعائره وأماكن أدائه وأهدافه وغاياته أقوم دليل وأوضح سبيل إلى بناء حضارة إنسانية نقية.

حضارة تقوم على الإيمان والقرآن، حضارة تقوم على التوحيد والإخلاص، حضارة تقوم على الطهارة والتزاهة، حضارة

تقوم على العدل والمساواة، حضارة تقوم على حفظ الحقوق والحدود، حضارة تقوم على مظاهر الكرم ومكارم الأخلاق.

كانت بداية التشريع الإسلامي منذ نزول أول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء بمكة المكرمة وكانت نهاية هذه العلاقة بين السماء والأرض مع نزول آخر الوحي والإعلان الرباني الواضح:

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} المائدة: ٣

وإن الحضارة الإسلامية هي حضارة العقيدة والدين ولا تقتصر معالمها على النهضة العمرانية أو مواد البناء من الماء والطين. وكانت سنوات ٢٣ الطويلة التي استمر فيها نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم هي الفترة الحقيقية أو الزمن الفعلي لإرساء دعائم هذه الحضارة التي لم تشهد الإنسانية أرقى منها في المبادئ ولا أوفق منها بالفطرة الإنسانية، ولا أنجح منها في توفير الراحة للإنسان و تثبيت الأمن في المجتمع.

ظلت تنمو هذه الحضارة الإنسانية وتتطور وتزداد فيها كل يوم لبنة جديدة إلى أن ترعرعت واستوت وقامت على أسس ثابتة و مبادئ واضحة مع اكتمال الوحي وانتهاء نزول القرآن وانتشار

نور الإسلام في كافة ربوع الجزيرة العربية' فكان فتح مكة' وكانت حجة الوداع' و تم إعلان المبادئ الخالدة تتمثل تلك المبادئ في عقيدة التوحيد والإيمان بالرسالة الخاتمة واليوم الآخر، و في بنود التشريع والتقنين لشريعة الله الخالدة' و في الأخلاق والفضائل التي تخلو منها الحضارات الأخرى المادية القائمة على نزعة التسلية والترفية وتزيين المباني والعمارات.

"حجة الوداع" هي الحجة الوحيدة التي قام المصطفى صلى الله عليه وسلم بأدائها في السنة العاشرة من الهجرة بعد ما فرض على المسلمين كركن أساسي من أركان الإسلام ونزلت الآية الكريمة: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران: ٩٧

وإن هذه الدعوة إلى حج بيت الله الحرام قائمة منذ أن أعلن إبراهيم عليه السلام ودعا الناس إليه بأمر من ربه: {وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} الحج: ٢٧

وسوف تبقى هذه الدعوة قائمة و قوافل الحجيج تتوافد في رحاب مكة من كل حذب و صوب إلى أن تقوم الساعة. وحجة الوداع هي التي أطلق عليها "حجة الإسلام" و حجة

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن حجة الوداع لها أهمية كبيرة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ومهمته النبوية الشريفة' كما أن لها أهمية بالغة باعتبارها إعلاناً عاماً لإرساء دعائم نظام الحكم الإسلامي وإعلان مبادئه الثابتة.

كانت هناك حاجة لأن يتعلم الناس أحكام الحج كما تعلموا أحكام الصلاة والصيام والزكاة ومن هنا جاء أمره صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني مناسككم) (١٩).

كانت الحاجة شديدة لإصلاح أعمال الحج لأن أهل الجاهلية كانوا قد طمسوا معالم الحج فبدل أن تكون المناسك علامات للتوحيد وفق الملة الإبراهيمية الخفيفة كانت قد تحولت شعارات للطقوس الشركية وأماكن الحج ومشاعرها كانت قد تحولت إلى معابد للأوثان حتى أن الكعبة المشرفة التي كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رفع قواعدها مع ابنه إسماعيل عليه السلام كانت تحتوي على نحو ثلاثمائة وستين صنماً فكانت مناسك الحج قد أصبحت طقوساً جاهلية لتقديس الأصنام وتأليه الأوثان وتقديم القرابين لها وللشياطين فقام النبي صلى الله عليه وسلم بإعادة الحق إلى نصابه و تطهير الكعبة المشرفة وتخليص مناسك الحج وأعمالها عن شوائب

الشرك والوثنية وإعادة هذه العبادة العظيمة إلى ما كان عليه في عصر أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد جاءت حجة الوداع تنويجا لأعماله الإصلاحية.

ومن إصلاحاته صلى الله عليه وسلم في الحج جعل الوقوف بعرفات ركنا أساسياً في الحج لكافة الناس فقال: "الحج عرفة" حيث أن قريشاً كانوا لا يدخلون عرفات مع الحجيج ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، قطان بيته و نحن الحمس" وذلك لتعاليمهم على سائر الناس فتزل الوحي:

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} البقرة: ١٩٩

تقول عائشة رضي الله عنه: كانت قريش و من دان دينها يقفون بالمزدلفة و كانوا يسمون: الحمس' و سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله: {مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}

كما ألغى الإسلام تقليد أهل الجاهلية في التفاخر بالأنساب في أسواق مكة و ذكر مآثر آبائهم فأمر الله سبحانه بذكر الله تعالى أشد ذكراً.

ومنع من اللهو والفسوق:

{فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} البقرة: ١٩٧

منعهم من تلطيخ جدار الكعبة بلحوم الإبل و دماءها.
قال الله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ} الحج: ٣٧

كذلك منعهم من أن يأتوا البيوت من ظهورها في حالة الإحرام ومن الطواف حول البيت عراة قال الله تعالى:
{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} الأعراف: ٣١
وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان(٢٠).

وقد نفت في روع النبي صلى الله عليه وسلم أنه أوشك أن يلحق بالرفيق الأعلى بعد ما بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأعلن الله سبحانه إكمال دينه الخاتم.

فجاءت وفود الحجاج من كل البقاع التي انتشر فيها الإسلام لتتشرف بأداء مناسك الحج مع المصطفى صلى الله عليه وسلم وشاهد النبي صلى الله عليه وسلم ثمرة جهاده في صورة هذا

العدد الهائل من أصحابه الأوفياء والذين آمنوا معه.
فأخذ الناس مناسك الحج عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأصلح النبي صلى الله عليه وسلم ما كان أفسده المشركون
من أهل الجاهلية.

و قد قام النبي صلى الله عليه وسلم بمخاطبة الصحابة رضي
الله عنهم ومن خلائهم الأجيال المتلاحقة إلى يوم القيامة مؤكداً أن
يبلغ الشاهد منهم الغائب.

وقد شملت خطبة حجة الوداع مبادئ إنسانية و عناصر
حضارية لم يكن بها عهد للإنسانية من قبل.

فإعلان مكة أو الخطبة التي ألقاها المصطفى صلى الله عليه
وسلم ميثاق شرف للإنسانية يضمن كافة أنواع الحقوق ويهدف
إلى حقن الدماء وحماية الأنفس والأموال والأعراض وفيه تأكيد
على قدسية المكان والزمان ومرجعية مكة المكرمة في الإشعاع
الحضاري باعتبارها في وسط العالم، ومهبط آخر الوحي السماوي
واحتضانها الكعبة المشرفة فنأدى قائلاً:

«أيها الناس خذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج
بعد عامي هذا»

«أيها الناس أي يوم هذا؟ أليس يوم النحر؟ هذا يوم الحج

الأكبر قالوا: بلى ' قال: فأَي شهر هذا؟ أليس بذِي الحِجَّة؟ أليس بشهر حرام؟ قالوا: بلى ' قال: فأَي بلد هذا؟ أليس البلد الحرام؟ فإن دماءكم و أموالكم، و أعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» وبعد هذه المقدمة ألقى خطبة عظيمة شاملة فيها:

- تأكيد على حرمة الأنفس والأموال والأعراض وتحريم الاعتداء عليها.
 - إبطال التعامل بالربا انقاذا للاقتصاد من الانهيارات والأزمات.
 - تثبيت تقويم دائم وإلغاء النسيء و إعادة عقارب الزمان إلى وضعها الطبيعي.
 - المنع من التناحر والتقاتل بين المسلمين.
 - القضاء على عبادة الشيطان باعتبارها إهانة للإنسانية.
 - التأكيد على حقوق النساء.
- و هاهي نص خطبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الكتب مع زيادة ونقص واختلاف يسير في الألفاظ:

نص خطبة حجة الوداع:

{يا أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم؟ و في أي يوم أنتم؟ و في أي بلد أنتم؟ قالوا: في يوم حرام و بلد حرام، و شهر حرام قال:

فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، وفي شهركم هذا، وفي بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا ألا لا تظلموا' ألا لا تظلموا' ألا لا تظلموا انه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا وإن كل دم وماء ومال كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة' و إن أول دم يوضع دم ريعة بن الحارث بن عبد المطلب — كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل — ألا وإن كل ربا في الجاهلية' موضوع، وإن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب (فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) ألا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ثم قرأ:

{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} التوبة: ٣٦

ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا
إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون، و لكنه في التحريش
بينكم، واتقوا الله في النساء، فانهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا،
وإن لمن عليكم حقا، ولكم عليهن حقا أن لا يوطئن فرشكم أحدا
غيركم، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه، و إن خفتن نشوزهن
فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح.

{وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} و إنما أخذتموهن
بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل ألا ومن
كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها" وبسط يده وقال:
ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: ليلغ الشاهد الغائب فإنه
ربّ مبلغ أقره من سامع.

وفي رواية زيادة:

{يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل
لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر،
ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى} ألا هل بلغت؟
أيها الناس إني تركت فيكم ما ان تمسكن به لن تضلوا،
كتاب الله فاعملوا به (و سنتي).

و في رواية أخرى:

ألا ليلغ شاهدكم غائبكم، لا نبي بعدي' ولا أمة بعدكم'
ثم رفع يديه فقال: اللهم اشهد.

وفي رواية فضالة بن عبيد الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعد تحريم الدماء والأموال والأعراض: حتى دفعة دفعها مسلم مسلما يريد به سوء، وسأخبركم من هو المسلم؟ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمانه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله (٢١).

وإن نظرة سريعة تحليلية في عناصر الخطبة تدل على المبادئ والعناصر الحضارية التالية:

- التأكيد على انتهاء عصر الجاهلية بكافة خصائصه الموحشة وسماته المنافية للآداب والمناهضة للقيم والمثل العليا.
- التأكيد على حرمة الدماء والأعراض والأموال وإعادة الكرامة الإنسانية المسلوبة.
- التأكيد على المساواة بين الناس وجعل التقوى مقياساً للتفاضل بين البشر.
- التأكيد على تحريم الربا وإصلاح المعاملات المالية الأخرى المحرمة وبناء الاقتصاد على أسس سليمة.

- الحث على توحيد صف المسلمين والابتعاد عن التناحر والافتتال الداخلي والتفرق والخلاف.
- التأكيد على ضرورة طاعة ولي الأمر والمحافظة على النظام العام.
- تثبيت التاريخ الصحيح والقضاء على التلاعب بالتقويم وما كان يرتكبه أهل الجاهلية من الفطائع في الأشهر الحرم.
- الإعلان عن إعطاء المرأة مكانتها وإعطاءها حقوقاً تليق بها.
- نهاية العبث بالأنساب والقضاء على الفوارق الطبيعية والعنصرية.
- التأكيد على مسئولية الأمة و دورها في قيادة الركب البشري.
- التعايش الاجتماعي مع الآخرين في أمان وسلام.
- وجوب تبليغ الإسلام و أداء الأمانة جيلاً بعد جيل.
- التحذير من الركون إلى الدنيا والانغماس في الملذات والشهوات.
- التزام المنهج الوسط في الفكر والعمل.
- الالتزام بالكتاب والسنة في كافة الظروف والأحوال.
- تسخير وسائل الإعلام لنشر مبادئ الإسلام وحقائقه من

خلال قوله صلى الله عليه وسلم:
اللهم هل بلغت؟ فاشهد، و تأكيده على أن يبلغ الشاهد الغائب.
و لا شك أن كل بند من هذا الميثاق النبوي الشريف الذي
عرضه صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع يوحى بمعان
جليلة ويرشد إلى قيم إنسانية وأخلاقية نبيلة.
وهي في الواقع مبادئ حضارية تقدمية وتنموية من أجل بناء
الإنسان وبالتالي بناء المجتمع الإنساني على أسس سليمة.
ففي الوصاية بالنساء خيراً' رد لاعتبارهن حيث كانت المرأة
مظلومة مدانة بل موعودة مدفونة من غير ذنب ارتكبتها إلى أن وجه
القرآن نداه و تحذيره.

{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} التكوين: ٨ - ٩

وألقى الضوء على نفسية أهل الجاهلية في قوله تعالى:
{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ،
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ
فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} النحل: ٥٨ - ٥٩

فأعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم أن النساء لسن أقل شأنًا
من الرجال' فهن أمهات الرجال وزوجات الرجال وأخوات الرجال
وهل يمكن أن يستمر نسل الرجال من غير مشاركة ربات الرجال؟

فعلى الرجال أن يعاشروهن بالمعروف، وأن يعطوهن حقوقهن.
كما بين صلى الله عليه وسلم من خلال هذه الخطبة التاريخية
الهامة أن كتاب الله وسنة رسول الله هما المرجع والأساس للدين
الإسلامي الخفيف فيجب الاعتصام بهما والتمسك بتعاليمهما.
وأوضح أن الحياة الإنسانية ينبغي أن تكون تحت قيادة و
نظام وأن على جماهير الناس أن يسمعوا ويطيعوا ولو أمر عليهم
عبد حبشي ولا يتمرّدوا ولا يخرجوا عليه حفاظا لسياج الأمة
وابتعادا عن شق عصا الوحدة.

ثم في الختام كرر المصطفى صلى الله عليه وسلم إسهاد كافة
الحضور بعد ما أشهد الله سبحانه على أنه بلّغ الرسالة وأدى
الأمانة فيقول: ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

وفيه تأكيد على أن هذا الدين المبين هو الدين الخاتم وهو
باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما أن فيه تأكيد على
تحمل الأمة مسؤولية تبليغ هذا الدين إلى الأجيال المتلاحقة جيلا
بعد جيل يبلغ الشاهد منهم الغائب.

لقد جعل الله سبحانه الحج إلى بيت الله الحرام ركنا من
أركان الإسلام وقام النبي صلى الله عليه وسلم بأداء هذا الركن
بهذا الشكل المهيّب على رأس جموع حاشدة من الحجيج، وألقى

خطباً وكلمات وأعطى من نصائح وتوجيهات من أبرزها وأهمها
خطبة حجة الوداع التي ألقاها في رحاب عرفات وخاطب فيها
الناس جميعاً وأوضح لهم ركائز الحضارة الإنسانية ومعالم الدين
الإسلامي الخفيف فكانت هذه الخطبة بمثابة إعلان وإقرار بأن مكة
المكرمة هي مركز العالم الإنساني وعماد وسطية وخيرية الأمة
المسلمة، منها ينطلق الركب الحضاري حيث جعل الله سبحانه
الكعبة المشرفة مثابة للناس وأماناً وهي قبلة المسلمين ومركز اتجاه
واتحاد المؤمنين الشاهدين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

و أن مكة المكرمة هي مقر دائم لحل المنازعات التي قد تنشأ
بين فئة وأخرى من المسلمين وأنها مركز إشعاع وإرشاد ديني
وحضاري للإنسانية جمعاء.

كما أكدت حجة الوداع على أصالة هذه الأمة ونقاء
عقيدها وعلى أن الدين المبين مصون من أي تحريف أو تبديل وأن
الأمة المسلمة هي أمة ذات رسالة خالدة، وأن رؤية الإسلام يجب
أن تكون عالية خفاقة {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.

* * *

كتب الإحالات والمراجع:

- (١) لسان العرب : ٤ / ٤١٤ .
- (٢) بدائع الصنائع : ١ / ٢١٩ ، والبحر الرائق : ١ / ٢٥٥ .
- (٣) معارف السنن : ٢ / ١٧١ .
- (٤) حجة الله البالغة : ١ / ٢٣٨ - ٢٤٠ .
- (٥) حجة الله البالغة : ٢ / ٤٢ .
- (٦) حجة الله البالغة : ٢ / ٦٠ - ٦٥ .
- (٧) رواه مالك برقم : ٨٣٧ ، المسوي : ١ / ٣٨٠ .
- (٨) إحياء علوم الدين : ١ / ٢٤٣ .
- (٩) الدين والتدافع الحضاري : ص ٨٣ .
- (١٠) المعجم الفلسفي : ص ٧٣ إصدار مجمع اللغة العربية .
- (١١) الحضارة : ص ١٣ إصدار عالم المعرفة الكويت .
- (١٢) الموسوعة العربية : ٩ / ٤١٢ .
- (١٣) رواه أبو داود وأحمد .
- (١٤) تاريخ الطبري : ٣ / ٣٣ .
- (١٥) رواه البخاري : برقم ٦٧٨٨ ، و مسلم : برقم ١٠٤٦ .
- (١٦) شمس العرب تسطع على الغرب : ص ٤٧٥ .
- (١٧) حجة الله البالغة : ٢ / ٥٩ .

- (١٨) دائرة المعارف اليهودية .
- (١٩) رواه مسلم : برقم ١٢١٨ .
- (٢٠) رواه البخاري : برقم ١٥١٤ .
- (٢١) راجع جزء خطبات النبي صلى الله عليه وسلم لنصوص
خطبة حجة الوداع في كتب الحديث المختلفة للمحدث
الأعظمي رحمه الله في كتاب حجة الوداع للكاندهلوي .

معالم الرحمة في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم

مفهوم الحرب بين الأمس واليوم:

لم تتغير قسوة الحرب وضراوتها عن ما كانت عليه في أيام الجاهلية الأولى المكشوفة في زمن الجاهلية الجديدة اليوم والمستورة بغطاء المدنية والمدحجة بالتقنيات الحربية الحديثة فقد بدأ كانت تطلق على الحرب كلمات "الشر" "الكريهة" "الوغي" "الهيأج" وغيرها تعبر ما في الحرب من معاني البطش والتنكيل والفتك والتدمير والإفناء والإبادة يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

و ما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
و ما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرر إذا أضـريرتموها فتضـرم

فلا رافة مع الغريم ولا رحمة مع الضحايا بل من شأن الحرب أن تدوس و تطحن و تبيد و تنسف و تأخذ ضراوة الحرب صوراً تقشعر منها الجلود و تشمئز منها النفوس.

يقول الشاعر:

فلست بحاضر إن لم تزر كم خلال الدار مشبلة طحون
يدين بها العزيز إذا رآها و يسقط من مخافتها الجنين
تشيب الناهد العذراء منها ويهرب من مخافتها القطين
يظل الليث فيها مستكينا له في كل ملتفت أنين
فالجماعة المغيرة والمهاجمة لا ترقب فيمن تغير عليهم إلا ولا
ذمة بل تأخذه نشوة الانتصار و نزعة الغرور فيردد على لسانه
مزهوا مفتخراً بأنه لا يكتفي بتقتيل الأوصال و تقطيع الأعضاء بل
تتلذذ في النكاية بهم فيقول و نخصف بالآذان منكم نعالنا.
فلا يرحم الأطفال ولا تنجو من التعسف ربات الحجال
يقول الشاعر الجاهلي:

وعقيلة يسعى عليها قـم
متغطرس أبديت من خلخالها
ويقول آخر:

بقرنا الحبالي من شنوءة بعد ما
خبطن بفيف الريح نهدا و خثعما
بل إن ملك اليمن ذو نواس كان يمارس الظلم بنوع آخر
فقد حفر الأخدود وأوقد النار لحرق من لا يوافقه في ديانتته و إليه

يشير القرآن الكريم:

{قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ, النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ, إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ, وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} (البروج: ٣-٧)

كانت الغارات تشن من أجل كسب الغنائم و من أجل إخضاع القبائل الصغيرة أو لمجرد إظهار الغطرسة والكبرياء بل و كانت الغارات تشن بعض الأحيان على القبائل ذات الصلة والقراة أيضاً.

وأحياناً على بكر أحيانا

إذا ما لم نجد إلا أحيانا

إن الحروب المعروفة "بداحس" و "الغبراء" و "البسوس" قد نشبت لأسباب تافهة إما لغيرة على "ناقة" أو "كلبة" و لكنها استمرت أربعين أو ستين عاماً.

و هكذا كانت الإنسانية تتن من جراحاتها و تولول من مصائبها و تزرح تحت نيران أعدائها إلى أن انبثق النور و بعث رسول الإنسانية و إمام الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم و جاء بالدين القويم والصراط المستقيم فانقشع الظلام و تالاً نور فجر الحضارة الإنسانية, و جاء الإسلام كدين يهدي إلى الرشد يسخر النفوس و يتغلل في القلوب من غير أن يمارس

أسلوب الضغط والإكراه.

و الإسلام لا يبيح إجبار أحد على اعتناق مبادئه ، يقول الله عز وجل:

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} (البقرة: ٢٥٦)

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية :

"لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الله الإسلام فانه بين واضح على دلائله و براهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام ويشرح صدره و نور بصيرته، دخل فيه على بينة' و من أعمى الله قلبه و ختم على سمعه و بصره فانه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسوراً (١)، فالذي يدخل في الإسلام يدخل عن قناعة".

و"الحرب" نقيض "السلم" وهي قديمة قدم الإنسان نفسه ، فمنذ أن قام أحد أبناء الإنسان الأول بازهاق روح أخيه و بسط إليه يده ليقتله و نفذ فيه ما سعى إليه، مازال مسلسل الأحداث الدامية مستمرا من غير توقف و مع اتساع رقعة العمران و تزايد عدد الإنسان اتخذت المواجهة بين إنسان و إنسان أبعاداً جديدة و أشكالاً مختلفة و أساليب متنوعة.

(١) تفسير ابن كثير ٣١٠/١ .

فكم من شعوب أبيدت من أصلها ؟ و كم من أمم و قبائل أصبحت أثرا بعد عين نتيجة حروب طاحنة و مجازر وحشية؟
إن أيام العرب التي سجلها التاريخ ، و ذكرت أحداثها و وقائعها' والتر اليسير من فصولها في كتب الأدب والمحاضرات أو في دواوين الشعراء و مجموعات القصائد تكفي للدلالة على حجم الكارثة و فداحة الخسارة للإنسان والإنسانية.

إن معارك حرب الداحس والغبراء و مذابح حرب الفجار والبسوس التي استمرت بعض منها أكثر من أربعين عاما كانت وقودها الأرواح البشرية، كذلك الحروب التي نشبت بين الفرس والرومان و المعارك التي جرت في أرض الرافدين والملحمة التي استمرت قرونا في أرض الهند بين فئات متقاتلة تحولت إلى أرواح مقدسة و رموز للآلهة في الأساطير الهندوسية القديمة.

إن ملحمة "المها بھارتا" في الهند و ملحمة "شاهنامہ" للشاعر المفلق الفردوسي في أرض فارس موسوعتان نادرتان تكفيان لتقدير ما جرى للإنسانية عبر القرون و في معظم أقطار الأرض.

فالحرب لا تنفك عن فتك و قتل و إهلاك و إبادة و تدمير للحرث والنسل فهي تكون في كل الأحوال دامية و طاحنة و محرقة و مبيدة.

و منذ أن شعر الإنسان بأنه سخر الذرة والمجرّة و تَخَلَّق في الفضاء وامتلك ناصية الكون و نجح في صنع الصواريخ والقنابل والأسلحة الذرية والتقليدية و كل نوع من المقاتلات والقاذفات والغواصات والمدمرات أصبح أكثر وحشية و ضراوة.

فبدل أن كانت الحروب توصف بالشر، والكريهة قديماً بدأت توصف اليوم بالمدمرة والحارقة و إذا اشتعلت فلا تبقي ولا تذر.

إن اللغة العربية مع أنها غنية بمفرداتها ، ثرية بتراكيبها و أساليبها، و بارعة و عبقرية في التعبير عن كوامن النفس و دقائق الأحاسيس والخواطر تكاد تعجز اليوم عن وصف بشاعة مناظر الهلاك والدمار التي يحصل نتيجة الحروب الفتاكة.

وقد زادت المخترعات العصرية من آليات القتال والقنابل و أسلحة الدمار الشامل من خطورة الحروب و نتائجها المبيدة والمدمرة للحرث والنسل و قدرتها على إفناء الشعوب بأكملها و إزالة المدن بكافة مبانيها و مصانعها في دقائق معدودة فكم من حضارة قامت ثم تحولت إلى ركام وانقاض ؟ و كم من شعب تطور وازدهر ثم تغير واندثر.

قيل: "إن الحرب شرّ لا بد منه" ويقول ابن خلدون:

"إن الحرب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليقة منذ أن

برأها الله^١ وأصل انتقام بعض البشر من بعض أمر طبيعي في البشر
لا تخلو عنه أمة ولا جيل".

ثم يقول:

"الانتقام في الأكثر إما غيرة و منافسة، و إما عدوان، و إما
غضب لله و لدينه، و إما غضب للملك و سعى في تمهيدته (١).
و رغم تقدم الإنسان في مجال العلم والتكنولوجيا لم تتوقف
الحروب بل أصبحت أكثر فتكا و تدميرا، و أشد قسوة و وحشية،
إن الحروب المعاصرة لا ترحم شيخا عجوزا ولا امرأة حاملا، أو
طفلا صغيرا، ولا تستثنى من الاستهداف مساجد ولا صوامع ولا
بيعا ولا كنائس.

و لما كانت "القوة" مصدر الحق و شريعة الغاب هي
"القانون" و مبدأ إن "الغاية تبرر الوسيلة" هي أساس الانطلاق في
عالمنا المعاصر فمن الطبيعي أن تأتي الحروب المدججة بأسلحة
الدمار الشامل على الأخضر واليابس، ثم لا استنكار في الضمير بل
لا ضمير للإنسان ولا مبدأ للأخلاق لدى المنظرين والمخططين
للحروب.

يقول عالم النفس اليهودي فرويد:

(١) مقدمة ابن خلدون باختصار ص: ٢٧٠ - ٢٧١ .

"إن هذا العالم غابة، أنت فيها آكل أو مأكول، ولا يوجد احتمال ثالث فاحتر أيهما تكون"

و يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون:
"إن الصراع في سبيل البقاء والارتقاء إحدى سمات الكائنات الحية ويقول: إن العيش في ظل سلام كامل (Perfect Peace) خال من التناقضات والخلافات مجرد وهم"

إن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي استطاع في تاريخ الإنسانية أن يغير مفهوم الحرب و يجعلها وسيلة للإصلاح والبناء بدل أن تكون ذريعة للإهلاك والإفناء.

و يجرّدها من معاني القسوة والضاوّة، و من دوافع التغلب والاستغلال و يجعلها طريقة لإنقاذ الناس من الظلم والطغيان، و إخراج الإنسانية من هيمنة الجبابة والطواغيت و يجعل دوافعها التجرد والإخلاص و رفع راية التوحيد و إعلاء كلمة الله، و قد تجلّى ذلك.

في منعه صلى الله عليه وسلم من قتل النساء والأطفال، واستهداف القساوسة والعباد واستنكاره لتمثيل الجثث و تقطيع الأوصال، و في سنه قانونا راقيا للتعامل مع الأسرى والمعتقلين.
لقد أرسل الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم رحمة

للعالمين، و وصفه الرب سبحانه و تعالى قائلا: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}

و مخاطبا لأمته: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (التوبة: ١٢٨)

نظرية الحرب في الإسلام:

إن الحروب كانت تنشب قبل مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين القبائل العربية إما من أجل الحصول على الغنيمة كوسيلة للتغلب على قسوة الحياة البدوية الصحراوية بسبب قلة مواردها و إمكاناتها أو كان الناس يتقاتلون من أجل التفاخر أو من أجل الانتقام.

و هذه الدوافع لا يمكن ضبطها أو وضع حد لها فيتمادى الإنسان من أجل الحصول على أكبر قدر من الغنائم كما يحاول إرغام المقابل على الخنوع والاستسلام.

إن الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون لم تكن بهدف إرغام الناس على قبول تعاليم الإسلام ولا لإكراه أهل الأديان الأخرى على اعتناق الدين الحنيف بل إنها شرعت لحماية النفس الإنساني والحفاظ على حرية العقيدة و دفع الظلم عن المستضعفين

في الأرض كما يقول القرآن الكريم مشيراً إلى علة الحروب:
{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ
وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ
يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: ٤٠)

على عكس ما كان سائداً في عصر الجاهلية الأولى ، قبل
مبعث المصطفى (صلى الله عليه وسلم) حيث أن الفرس حينما
استولوا على مناطق شاسعة و سيطروا على آسيا الصغرى في عهد
برويز هدموا كنائس النصارى و بعد عشر سنوات تحقق الانتصار
للنصارى فافنوا معابد المجوس (١).

إن "السلام" هو هدف الإسلام فمن أسماء الله الحسنى
"السلام" والقرآن يسمي الجنة "دار السلام" و تحية المسلمين فيما
بينهم: "السلام عليكم" كما أن تحيتهم في الجنة "السلام". يقول
الله عز وجل:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}

(الحشر: ٢٣)

{لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ} (الأنعام: ١٢٧)

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} (الأحزاب: ٤٤)

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٢٣ .

{الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل: ٣٢)
{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان: ٦٣)
{إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} (الواقعة: ٢٦)
كما جاء في السنة:

« أفشوا السلام على من عرفتم ومن لم تعرفوا ». .
و من كلمات التشهد : « السلام عليك أيها النبي و رحمة الله و
بركاته السلام علينا و على عباد الله الصالحين ». .
و كلمة التحلل من الصلاة: « السلام عليكم و رحمة الله »
فالسلام داخل في جذر "الإسلام" و مادته 'فلفظ "الإسلام"
مشتق من "السلام".

ولقد دعا القرآن إلى السلام لكن خصوم الإسلام لم
يستجيبوا لهذه الدعوة و ضيقوا الخناق على المسلمين و آذوا رسول
السلام و اجبروه على ترك موطنه و مسقط رأسه كما أرغموا
أصحابه إلى الهجرة بحثاً عن مكان آمن ليعيشوا فيه بسلام و أمان
فهاجروا إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنورة أخيراً.
إن حماية الدين' والعقيدة' والدفاع عن النفس' والعرض' من
مقاصد الشريعة الأساسية ولا يمكن تحقيقها من غير قوة دفاعية

تحميها و ترغم النفوس الشرسة على مراعاتها و عدم الاعتداء عليها
من أجل ذلك حث القرآن الكريم على إعداد القوة الرادعة، قال
الله عز وجل:

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} (الأنفال: ٦٠)

فالحرب شر لا مفر منه و انها وسيلة لرد الطغيان و دحر
الظلم و تأديب المتمردين والعتاة من الناس.
و قد وضع الإسلام ضوابط لخوض المعارك التي يشعلها
الأعداء.

فلا حرب إلا مع الذين يقاتلون المسلمين:
{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)
{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ} (الحج: ٣٩)

والحرب في الإسلام مشروعة للضرورة و مقدرة بقدرها فلا
يقتل إلا من يقاتل في المعركة و أما من تجنب الحرب فلا يحل قتله
أو التعرض له.

معالم الرحمة في الجهاد:

وقد منع الإسلام من قتل النساء والمرضى والأطفال والشيوخ
والرهبان والمنقطعين للعبادة داخل الصوامع كما منع من تمثيل
الجثث وقتل الحيوان وإفساد الزرع وتلويث المياه وهدم البيوت.
روي سليمان بن بريدة عن أبيه: أن رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) كان إذا بعث أميراً على جيش أو سرية أوصاه في
خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال:
"أغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا
ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً".

وحدث نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن
امراً وجدت في بعض مغازي الرسول (صلى الله عليه وسلم)
مقتولة فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان. (رواه مسلم)
وروي رباح بن الربيع: إن الرسول (صلى الله عليه وسلم)
مر على امرأة مقتولة في بعض الغزوات (ولعلها هي المشار إليها
سابقاً) فوقف عليها ثم قال: "ما كانت هذه لتقاتل" ثم نظر في
وجوه أصحابه وقال لأحدهم: إلحق بخالد بن الوليد، فلا يقتلن
ذرية، ولا عسيفاً ولا امرأة.

و عن عبد الله بن زيد قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم

عن النّهي والمثلة»

و في وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة حين بعثه إلى

الشام:

" لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا
أطفالاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا
تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا
بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في
الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له و كذلك جاء في كتاب
عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمرأء الجيش !.

لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، واتقوا الله في
الفلاحين و كان من وصاياه أيضاً:

ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم إذا التقى
الزحفان، و عند شن الغارات " .

و روي مسلم في حديث طويل: ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً و
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « نهى رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) عن قتل النساء والصبيان ». (متفق عليه)
وعن أنس رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم)
قال:

« انطلقوا باسم الله و على ملة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا، و ضموا غنائمكم و أصلحوا و أحسنوا إن الله يحب المحسنين »^(١).
و قال ابن عباس رضي الله عنهما إن النبي (صلى الله عليه وسلم) مر بامرأة مقتولة يوم الخندق فقال: من قتل هذه ؟ قال رجل: أنا يا رسول الله قال: و لم ؟ قال: نازعتني سيفي قال: فسكت^(٢).

وكما كانت "الحروب" قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) عبارة عن محاولة الاستيلاء على أملاك الغير و أموالها بفرض السيطرة بدافع الهيمنة والاستعلاء و عن طريق استخدام القوة و ممارسة العنف كذلك مازالت "الحروب" في عالمنا المعاصر عنواناً لتدمير البلاد و إهلاك العباد والسيطرة على خيرات الأمم و ثروات الشعوب^٣ بل إن أسلحة الفتك والتدمير التي اخترعت حديثاً لم تكن متوفرة في العصور الغابرة فقد زادت "الحروب" فظاعة و هولا و تضاعفت خسائر الحرب مئات المرات على ما كانت عليها.

(١) رواه أبو داود و راجع التفسير المظهر ٢٣٨/١ - ٢٣٩ .

(٢) رواه أبو داود في المراسيل ، التلخيص الحبير ١٠٢/٤ .

إن الجهاد بالمفهوم الإسلامي غير "الحرب" المعروفة بين الناس
فهدف الجهاد هو إعلاء كلمة الله و دفع الظلم عن المظلومين و
نصرة المستضعفين.

وليس من أهداف الجهاد إجبار الناس على دخول الإسلام
ولا الاستيلاء على الأموال والأوطان لأن الإسلام يأبى الظلم، و
يتحاشى سفك الدماء من غير حق' و يحافظ على حرية الفكر
والمعتقد ما لم تكن فتنة للناس و إن الديانات السماوية عموماً في
أصل تعاليمها لا تأمر بالعدوان ولا ترضى بالظلم و شأن الإسلام
في حفظ الحقوق و صيانة الأرواح و تثبيت الأمن أجل و أرفع.
فالجهاد في الإسلام فرض لإقرار السلام في العالم و لحماية
النفس والعقيدة.

ثم إن الإسلام نظم أحكام الجهاد و وضعه في إطار لم تصل
القوانين الدولية أو التنظيمات الحديثة أو القديمة إلى ذاك المستوى
الرفيع في الدقة في الأحكام و حفظ حقوق كافة أطراف النزاع
والقتال و حماية الطبقات الضعيفة من الشيوخ والعجزة والرهبان
والنساء والصبيان أثناء المعارك والحروب.

لقد تنوعت أنواع الحروب في العصر الحاضر و مقدماتها و
مستلزماتها ، فهناك حرب إعلامية، و حرب نفسية و حرب

أخلاقية و أخرى اجتماعية و إن الإسلام يسمح باستخدام كافة الوسائل المشروعة و يمنع من كافة الطرق والأساليب الملتوية و ان الغاية لا تبرر الوسيلة في نظر المسلمين فهناك حرمانات لا يجوز لأحد أن ينتهكها و حدود لا يسمح لأحد أن يتجاوزها. فالإصلاحات التي أدخلها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في الحروب كثيرة:

- نظم الإسلام العهود و المواثيق و ألزم إتباعه الإيفاء بالعقود والعهود.
 - أقر الإسلام التحكيم كمخرج لدفع الحروب والتراعات.
 - عين الإسلام الهدف من الجهاد والقتال ولم يترك الأمر فوضى أن يعرض كل واحد نفسه للخطر من غير أن تتوفر شروط الجهاد أو يلقي الأمة في التهلكة.
 - أعطى الإسلام السفراء والرسل حصانة كاملة و منحهم الحرية الكاملة لأداء مهماتهم.
 - أكد الإسلام على مراعاة الجانب الإنساني مهما كانت الظروف صعبة والمعارك طاحنة.
- أعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمناسبة فتح مكة:
- ألا لا يجهز على جريح، ولا يتبعن مدبر، ولا يقتل أسير،

و من أغلق عليه بابه فهو آمن (١).
و هذا من كمال رأفته (صلى الله عليه وسلم) حيث أن
الجرحي مع كونهم من الأعداء و إنهم لم يخرجوا إلا في محاربة
الإسلام والمسلمين مع ذلك يمنع نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم)
من الإجهاز عليهم وقتلهم ويدعوا لي مداواتهم و معالجتهم.

التعامل مع الأسرى:

من وقع في أسر المسلمين أثناء الحرب فمن الطبيعي أن تكون
المعاملة معه بالمثل لكن الإسلام فتح باباً جديداً و أعطى الخيار
لإمام المسلمين أن يقدر الوضع و يعامل مع الأسرى معاملة
يستحقونها.

فإمام المسلمين مخير في الأسير بين أن يقتله أو يسترقه أو يمن
عليه و يطلق سراحه من دون مقابل أو يجعله وسيلة لفكك ممن
أسر من المسلمين من قبل العدو أو يأخذ فدية مقابل رفع الحظر
عنه وإطلاق سراحه.

هذه هي أساليب التعامل مع الأسرى مع مراعاة الجوانب
الإنسانية في كل مرحلة.

(١) آثار الحرب للزحيلي ص: ٤٧٦ - ٤٧٧ .

و قيل: بأنه لا خيار للإمام إلا أن يقتل الأسرى أو يسترقهم
و ذلك لكسر شوكة الأعداء.

و هناك قول ثالث لبعض الفقهاء و هو أنه لا يحل قتل الأسير
صبراً فأما أن يأخذ الإمام المال في الفدية أو يعلق إطلاق سراح
الأسير على إطلاق الأسرى المسلمين لدى الكفار.

إن الإسلام يوصي بإحسان المعاملة مع الأسرى و يجعل
إطعام الأسير من القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه.

{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}

(الإنسان: ٨)

فمع أن الأسير جاء ليقاتل المسلمين و كان حريصاً أن ينال
منهم لكنه لما وقع في الأسر و اضطر إلى إلقاء السلاح فأصبح
ضعيفاً و أن الإسلام لم يشرع الخوض في الحرب من أجل قهر
الناس والتنكيل بهم بل إنه الخيار الأخير لإقناع من لم ينفعه الحوار
و لم يمنعه من التماذي في الغي و ممارسة الظلم . و إنما جاء الإسلام
ليخرج الناس من الظلمات إلى النور و من متاهات الضلال إلى
حياة الراحة والسعادة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحْيِيكُمْ} (الأنفال: ٢٤)

فيعتني الإسلام بالمرضى والجرحى أيا كانت ديانتهم و يحسن التعامل مع الأسرى مهما كانت سوابقهم و ماضي أمورهم.

إن اتفاقية جنيف حول العناية بالمرضى والجرحى من أسرى الحروب و عدم ممارسة أساليب التعذيب ضد من تم إلقاء القبض عليهم أثناء الحروب قد عقدت في أكتوبر من سنة ١٨٦٤ ثم عدلت بمعاهده في سنة ١٩٠٦ ثم باتفاقية في ٢٧/ من يوليو عام ١٩٢٩.

لكن المسلمين أمروا بحسن التعامل مع الأسرى قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، و ان تعاليم الدين الحنيف في هذا المجال مازال أرقى و أسمى مما وصل إليه الإنسان من النظم والقوانين.

إن الإسلام يحافظ على كرامة الإنسان فلا يهدر آدميته ولا يترك محالاً لا ذلاله أو الإساءة إليه مسلماً كان أو كافراً ولا يختلف الأمر في ذلك بين حالة الحرب و حالة السلم فالنبي (صلى الله عليه وسلم) كان يقول للناس: « استوصوا بالأسرى خيراً » كما يحث القرآن على إطعام الأسير والإنفاق عليه فالمسلمون الأوائل كانوا يتسابقون في تقديم أحسن الأطعمة إلى الأسرى والتعامل معهم بأرقى أسلوب و قد مدح الله سبحانه هؤلاء قائلاً:

{وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}

(الإنسان: ٨)

لقد نهى الإسلام من قتل الأسرى وتعذيبهم أو الانتقام منهم.
و إنما يتم أسرهم من أجل إبعادهم عن القتال و دفع شرهم
في محاربة المسلمين و إضعاف قوة المهاجمين من الكفار.

إن ولي الأمر يتعامل مع الأسرى إما:

بالمَنّ: فيطلق سراحهم ويصفح عنهم إذا أمن شرهم وهم
ضمنوا ذلك و تقتضي المصلحة العامة ذلك و إذا لم يكن الأسرى
يملكون من المال ما يفدون به.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: أن خيلاً من المسلمين أسرت
ثمّامة بن اثال سيد أهل اليمامة تجاه نجد و جاءوا به إلى المدينة
فسأله النبي (صلى الله عليه وسلم) ما عندك يا ثمّامة ؟ فقال عندي
يا محمد خير أن تقتل تقتل ذا دم، و إن تنعم تنعم على شاكِر ، و
إن كنت تريد المال فسل لغط منه ما تشاء.

فتركه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الغد ثم أمر بإطلاق
سراحه بغير فداء فخرج في طريقه إلى بلده ولكنه أتى نخلاً قريباً من
المدينة و قد أثر فيه هذا الصنيع فاغتسل ثم عاد إلى المسجد و دخله
فوجد النبي (صلى الله عليه وسلم) فشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً
رسول الله و عاد إلى اليمامة . وكان أهل مكة يشترون الخنطة من
اليمامة فاقسم أن لا تباع إليهم إلا بعد إذن رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) فكتب أهل مكة للنبي (صلى الله عليه وسلم) يطلبون منه الموافقة على استمرار التجارة بينهم و بين أهل اليمامة، فكتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ثمامة باستمرار التجارة بينهما. كذلك قد منّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أهل مكة بعد ما تمكن من فتحها و حقق الله النصر فأعلن أنه لا يؤاخذهم على ما فعلوا وقال قولته المشهورة:

"لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، إذهبوا فأنتم الطلقاء"
أو بالفداء: و قد يكون الفداء بالرؤوس بحيث يكون التبادل بين أسرى المسلمين و أسرى الأعداء.

أو يدفع الأسير فدية من مال حتى يخلّى سبيله ، و قد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الفدية في غزوة بدر أن يقوم الأسير بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

أما استرقاق الأسرى فإن كان أمراً مقبولا و سائغاً في التشريعات الحربية قديماً و حديثاً.

لكن الإسلام حرص منذ أول يوم على أن لا يطرأ الرق على الأحرار بل أن يعتق أعناق من هم يعدون من الأماء والعبيد. فقد جعل الإسلام اعتاق العبيد طاعة و وسيلة للتقرب إلى الله سبحانه فتسابق المسلمون في اعتاق العبيد.

وجعل تحرير الرقاب كفارة في اليمين والقتل والظهار وغيرها
من المخالفات.

ومن أخلاقيات الحرب في الإسلام أن لا يساء التعامل مع
الأسرى بل يحسن إليهم فقد كان الصحابة يكرمون أسارى بدر
ويؤثرونهم على أنفسهم في الإطعام بأمر من الرسول (صلى الله
عليه وسلم)^(١).

و قد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن إلحاق الأذى
بالأسرى فقد أنب بلالاً رضي الله عنه قائلاً: هل نرعت منك
الرحمة؟ حينما مر بامرأتين يهوديتين على جثث القتلى فأجهشتا
بالبكاء على رجاكما القتلى^(٢).

كما منع المصطفى (صلى الله عليه وسلم) من تفريق
الأقارب من الأسرى فلا يفرق بين صغير و أمها ولا يبعد أخ عن
أخيه و تراعي الجوانب الإنسانية في هذا الأمر.

يقول المصطفى (صلى الله عليه وسلم): « لا توله والدة
عن ولدها » فلا يجوز التفريق بين الوالدة والولد، ولا بين الولد و
والده إذا لم تكن له أم، بل نص الفقهاء أنه لا يصح التفريق بين

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٥ .

(٢) الحقوق والواجبات ص: ٣٠٢ .

الأخوة أو بين الأخ و أخته^(١).

هناك أسس تحدد منهج المسلمين في التعامل مع الأعداء
فالآيات القرآنية:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)

{فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (البقرة: ١٩٤)
{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل: ١٢٦)

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ،
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشورى: ٤٠)

تؤكد على الصبر و عدم الاندفاع للانتقام مع التعرض
للهجوم والاعتداء لكن إذا أراد الإنسان أن يعاقب من اعتدى عليه
فلا يجوز له التجاوز عما تعرض له من اعتداء.

من أخلاقيات الحرب:

كما أن هناك خطوطاً حمراء أمام الجندي المسلم فلا يجوز له
أن يتجاوزها في حال من الأحوال.

(١) المغني ٤٦٧/١٠ .

فإذا قام الجيش المهاجم بانتهاك حرمة النساء المسلمات فعلى الجيش المسلم صد هذا الطغيان و وضع لهذا الاعتداء لكن ليس لإفراد الجيش من المسلمين أن يعتدي على حرمة نساء الاعتداء أو يمارس معهن الفاحشة ردا و انتقاما حيث أن الزنا محرم في الشرع حتى مع نساء الأعداء.

كذلك إذا قام الجيش المهاجم والمعتدي بتمثيل جثث الجنود المسلمين فهذا العمل على شناعته لا يبرر للجندي المسلم أن بنفس العملية و يمثل جثث القتلى من الأعداء.

كذلك إذا قام الأعداء بقتل الأطفال والنساء و كبار السن من المسلمين فلا يبرر ذلك قتل الأطفال والنساء منهم.

لم يتعرض الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غزواته يغمر المقاتلين و حاول قدر المستطاع أن يصون دماء الأبرياء و أموالهم أثناء الحرب.

و لم يسمح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقتل المرأة و ان المرأة الوحيدة التي قتلت من بني قريظة هي التي كانت قد قتلت مسلما بإلقاء الرحي على رأسه من فوق سطحها فكان قتلها عقابا على جنائيتها لا بسبب العداوة بينها و بين المسلمين.

و لما خرج المسلمون لغزوة "مؤتة" أوصاهم الرسول (صلى

الله عليه وسلم) بأن لا يقتلوا النساء والأطفال والمكفوفين ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار.

وإن من مبادئ الإسلام أن لا يؤخذ البرئ بجريرة المذنب {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} (الأنعام: ١٦٤).

ومن إصلاحات الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنظام الحروب تطبيق مبدأ الرأفة والتعامل بالدوافع الإنسانية مع الأسرى والرهائن. و لما أسر المسلمون سبعين أسيراً في غزوة بدر فوزع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ٦٨ منهم على الصحابة قائلاً: " استوصوا بالأسارى خيراً".

و قد أخذ الفدية عن بعض الأثرياء منهم مقابل إطلاق سراحهم و أطلق كثيرا منهم من دون مقابل. و كلف المتعلمين منهم بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة مقابل الإفراج عنهم.

و اعتبر الأسيرين فقط من مجرمي الحرب الذين عذبوا المسلمين و أرادوا أن يقلعوا الإسلام من جذوره فأمر بقتلهما جراء ما كان قد ارتكبا من جرائم.

أما الأسيران اللذان وقعا في الأسر في سرية عبد الله بن جحش فقد أسلم أحدهما وأطلق سراح الثاني بعد أخذ الفدية منه.

وهكذا تعامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الأسرى
بمتهى الرأفة و غاية الإنسانية.

في غزوة حنين أسر المسلمون عدداً كبيراً من وفد هوازن،
ولكن وفداً من كبار هوازن جاءوا إلى الرسول (صلى الله عليه
وسلم) في "الجعرانه" مسلمين تائبين و طلبوا أن يرد إليهم الرسول
(صلى الله عليه وسلم) أموالهم و أهليهم فترل لهم الرسول (صلى
الله عليه وسلم) عن حقه و حق بني عبد المطلب في المال والسبي و
حث الناس التنازل عن حقوقهم فاستجابوا له و تنازلوا عن
حقوقهم في الأموال والسبايا بل أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)
أعلن أن مالك بن عوف الذي قاد جيوش هوازن و ثقيف في هذه
المعركة لو جاء مسلماً لعفا عنه و رد إليه أهله و ماله فخرج مالك
من الطائف و قصد الرسول (صلى الله عليه وسلم) و أعلن إسلامه
واسترد ماله و ذويه^(١).

روي يعلى بن مرة قال : سافرت مع رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) غير مرة فما رأيته يمر جيفة بجيفة إنسان فيجاوزها
حتى يأمر بدفنها ولا يسأل مسلم هو أو كافر^(٢).

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٦/٣ - ٢٠٧ .

(٢) سنن الدار قطني ٤٧٢/٢ .

و في الحديث دلالة على دفن من وجد ميتا، احتراماً لآدميته
و خوفاً من أن تعبت به الوحوش.

و روي البيهقي عن عكرمة إن النبي (صلى الله عليه وسلم)
رأى امرأة مقتولة بالطائف فقال: ألم أنه عن قتل النساء؟
من صاحب هذه المرأة المقتولة؟ قال رجل من القوم: أنا يا
رسول الله اردفتها فأرادت أن تصرعني فتقتلني فأمر بها رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) أن توارى (١).

كذلك روت عائشة رضي الله عنها أنه: لما أمر رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) بالقتلى (في بدر) أن يطرحوا في القليب،
طرحوا فيه إلا ما كان من أميه بن خلف فانه انتفخ في درعه
فملاها فذهبوا يحركونه فتزيل لحمه فاقروه، والقوا عليه ما غيبه من
التراب والحجارة (٢).

فالمسلمون هم الذين قاموا بمواراة جثث كفار قريش في
قليب بدر (٣).

كذلك لما تم قتل مقاتلة بني قريظة وفق حكم سعد بن معاذ

(١) سنن البيهقي ٢١٧/٦ .

(٢) الروض الأنف ٧٤/٢ .

(٣) فتح الباري ٢١٧/٦ .

رضي الله عنه فقام المسلمون بمواراة جثث القتلى في الخنادق
حفرت في سوق المدينة^١ إذ ليس من المقبول شرعاً إن تترك جثث
القتلى في العراء تعبت بها الكلاب والوحوش و تلوث البيئة و تعفن
الجو^٢ وقد جاء الإسلام بمبدأ احترام الإنسانية فقد ثبت وقوف
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينما رأى جثمان يهودي و لما
سئل عن ذلك قال: ألم تكن نفساً.

وهناك وقائع وأحداث تثبت مدى مراعاة الإسلام الجوانب
الإنسانية.

روي ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً من المشركين قتل
يوم الأحزاب فبعث المشركون إلى رسول الله (صلى الله عليه
وسلم): أن أبعث إلينا بجسده نعطيك اثنا عشر ألفاً فقال رسول
الله (صلى الله عليه وسلم): لا خير في جسده ولا في ثمنه (١) ثم
أمكنهم من أخذه إليهم.

وهذا يدل على أنه يجوز وقف القتال من أجل إبعاد الجثث عن
ساحة القتال وتمكين الكفار من أخذ جثث القتلى منهم ودفنها.

ومن جوانب السمات القيادية في شخصية الرسول (صلى
الله عليه وسلم) أنه كان يتفقد رعاياه أحياءاً وأمواتاً ويستطلع

(١) سنن البيهقي ١٣٣/٩ .

الأخبار عن مصير الأعداء وأوضاعهم.

روي محمد بن إسحاق في غزوة أحد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما فرغ الناس لقتلهم جعل يتفقد عنهم ويستكشف عن مصير جنده.

فقد سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً في القتلى و به رمق قال فقلت له: أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال: أنا في الأموات فابلق قومك عني السلام، وقل لهم أن سعد بن الربيع يقول لكم: انه لا عذر لكم عند الله ان خلص إلى نبيكم (صلى الله عليه وسلم) و منكم عين تطرف قال: ثم لم أبرح حتى مات قال: فجئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبرته خبره (١).

دوافع الجهاد ومراحل مشروعيته:

إن الدّين الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) يعطي

(١) الروض الأنف ١٤١/٢ .

للنفس الإنسانية أهمية كبيرة ويدعو إلى الحفاظ عليها و عدم إزهاقها من غير حق.

يقول الله عز وجل:

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة: ٣٢)

ويقول:

{وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} (الفرقان: ٦٨)

و يقول النبي (صلى الله عليه وسلم):

«أكبر الكبائر الإشراف بالله و قتل النفس و عقوق الوالدين

و قول الزور» (١)

لقد اعتبر الإسلام قتل النفس بغير حق جريمة كبرى و جعل القصاص عقوبة من يرتكب هذه الجريمة، أما القتل بالحق فهو إما يكون مقابل نفس ذهبت نتيجة عدوانه عليها أو بسبب ارتكابه الزنا مع كونه محصناً أو بسبب مفارقة الجماعة والخروج على الملة. إن الحرب لا مناص منها لرد الطغيان و دفع العدوان فهي

(١) متفق عليه.

مشروعة لإقامة القسط والعدل بين الناس و قد بين الله سبحانه أن
من مصالح الحرب حماية المعالم والدفاع عن الشعوب . يقول الله
عز وجل:

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ
وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} (الحج: ٤٠)

ويقول في موضع آخر:

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة: ٢٥١)

كما أن من مقاصد الحرب دفع الفتنة والقضاء على الشحناء
والبغضاء من قلوب الفئتين المتحاربتين.

يقول الله عز وجل:

{كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (المائدة: ٦٤)

و هناك حرب مشروعة و مصادمة غير مشروعة والقول

الفاصل في ذلك هو ما بينه القرآن الكريم:

{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ
ضَعِيفًا} (النساء: ٧٦)

إن القتال إذا كان من أجل الحق فهو جهاد في سبيل الله و
قد جاء فضله في الكتاب والسنة بشكل واضح.

يقول الله عز وجل:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ
عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (الصف: ١٠-١١)

وقد أمر الله سبحانه بالقتال:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٤٤)

فالقتال إذا كان لمثل هذه الأغراض السامية و تحقيق المصالح
العليا للأمة فهو خير وسيلة لإيجاد مناخ آمن للأمم والشعوب و
هذا النوع من القتال هو الذي وصف بالجهاد وهو ما من إلى يوم
القيامة و إن كان الجهاد لا يقتصر على القتال واستخدام السيوف
دائما بل إن "الجهاد" هو بذل ما في الوسع من المال أو السلاح أو
ما يملك من مواهب و طاقات من أجل إعلاء كلمة الله و كسر
شوكة أهل الكفر وإنقاذ الناس من الشرك والضلال.

لكن كلمة "الجهاد" إذا أطلقت و كانت خالية من القرائن

فيراد به القتال بالسلاح مع أهل الكفر.

لم يشرع الجهاد إلا لردّ الطغيان و تثبيت أهل الإيمان و رفع
رأية الإسلام وليس من أهدافه إكراه الناس على قبول دين الإسلام
حيث أنه { لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ } ولو كان هدف الجهاد هو إرغام
الناس على قبول الإسلام لما كانت الجزية وسيلة لحماية الكفار مع
البقاء على كفرهم.

إن الظلم والطغيان يصاحبان الكفر والعصيان في الأغلب من
أجل ذلك شرع الجهاد وذلك بهدف إنقاذ الناس من الظلم ومنحهم
حرية الاعتقاد والقضاء على الفتنة التي وصفت بأنها أشد من القتل.

و "الجهاد" أمر قائم و تشريع ثابت وهو ماض إلى يوم
القيامة وليس صحيحاً ولا دقيقاً أن يقال إن "الجهاد" كان تشريعاً
مؤقتاً أو أنه شرع من أجل الدفاع عن الوطن الإسلامي في حالة
الهجوم عليه بل الواقع أن مشروعية القتال أو وجوب الجهاد يختلف
 باختلاف الأوضاع و باعتبار ضعف المسلمين و قوتهم.

ففي المرحلة الأولى و بداية أمر الدعوة صبر الرسول صلى
الله عليه وسلم و أصحابه على أذى المشركين و ذلك أثناء إقامتهم
بمكة قال تعالى:

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } (الحجر: ٩٤)

وقال: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }
(الأعراف: ١٩٩)

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا »^(١)

و في ذلك يقول الإمام القرطبي في تفسيره لم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في القتال مدة إقامة بمكة^(٢).

ثم جاء الإذن بالقتال و نزلت الآية الكريمة:
{ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ }
(الحج: ٣٩-٤٠)

ثم في المرحلة التالية فرض القتال على المسلمين ضد من بدأهم بالهجوم ولم يسمع لهم للبدأ في القتال.
يقول الله تعالى:

{ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (البقرة: ١٩٠)

ثم جاء مرحلة الحكم النهائي بقتال جميع الكفار على

(١) أخرجه النسائي ٣٨٦ ، سنن البيهقي ٩ / ١١ .

(٢) تفسير القرطبي ٣ / ٣٨ .

اختلاف أديانهم و أجناسهم و إن لم يبدعوا بالقتال حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية كسر الشوكة الكفر و إعزازا للدين و إعلاء لكلمة الله تعالى، يقول الله عز وجل:

{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التوبة: ٥)

و يقول:

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٩)

و يقول في سورة الأنفال:

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} (الأنفال: ٣٩)

و في ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

و لما مضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من هجرته أنعم الله فيها على جماعات بإتباعه حدث لهم بها مع عون الله عز وجل قوة بالعدو، لم يكن قبلها ففرض الله عليهم

الجهاد بعد إذ كان إباحة فقال تبارك و تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} (البقرة: ٢١٦)(١)

ويقول الإمام السرخسي رحمه الله:

و قد كان رسول الله صلى عليه وسلم مأموراً في الابتداء بالصفح والإعراض عن المشركين قال تعالى: {فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} (الحجر: ٨٥) وقال تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف: ١٩٩) ثم أمرهم بالقتال {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} (البقرة: ١٩١) وقال تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله} (الأنفال: ٦١)

ثم أمر بالبداية بالقتال فقال تعالى:

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً} (البقرة: ١٩٣) وقال تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} (التوبة: ٥) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(٢)

فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين و هو فرض

(١) أحكام القرآن للشافعي ٢ / ٩ - ١٩ .

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٥ و مسلم برقم ٢٢ من حديث ابن عمر .

قائم إلى قيام الساعة^(١).

يقول الإمام أبو بكر الجصاص الرازي:

فالحال التي أمرنا بالمسألة، حال قلة عدد المسلمين و كثرة عدوهم، والحال التي أمرنا فيها بقتال المشركين و بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية في حال كثرة المسلمين و قوتهم على عدوهم وقد قال تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} (محمد: ٣٥) نهي عن المسألة عند القوة على قهر العدو^(٢).

المقارنة بين الغزوات والحروب العامة:

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بلغ عدد القتولين ستة ملايين و أربعمئة ألف شخص.
و في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) بلغ عدد القتلى خمسة و ثلاثين مليوناً و ستين ألف شخص.
هذه الإحصائيات ليست خيالية ولا مبالغ فيها بل هي موجودة وموثقة في دائرة المعارف البريطانية وغيرها من المصادر الأجنبية.
فهل نفعت هذه الحروب العالمية شيئاً أو خدمت الإنسانية

(١) المبسوط ١٠ / ٢ .

(٢) أحكام القرآن ٣ / ٧٠ .

قديمًا أو حديثًا؟

كذلك إذا نظرنا إلى ضحايا محاكم التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى فقد بلغ عددهم اثني عشر مليون نسمة. و في المعسكر الشرقي الشيوعي فقد وصل عدد المقتولين من العمال والفلاحين نحو مائة مليون نسمة من غير أن يقدم ذلك شيئاً للإنسانية أو يخفف عنها آلامها أو يحقق شيئاً من آمالها.

و على عكس ذلك إذا نظرنا إلى الغزوات التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم واستمرت سلسلتها سنوات ولم يتجاوز عدد القتلى من الطرفين (١٠١٨) شخصاً مع أن هذه الغزوات كانت ذات تأثير فعال في إخماد الفتنة و إنقاذ الإنسانية و حقن الدماء و صيانة الأعراض^١ والقضاء على الظلم والفساد . فالجزيرة العربية التي كانت مسرحاً للأحداث الدامية وموطناً للاشتباكات والمنازعات تحولت إلى واحة أمن و رخاء^٢ فساد الهدوء في المجتمع واستتب الأمن و أصبحت الطعينة قادرة على أن تخرج من الحيرة (في اليمن) وحدها و تطوف بالكعبة ولا تخاف في الطريق إلا الله^(١).

إن الغزوات التي خاضها المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي ٢٧ أو ٢٨ غزوة وكانت آخرها غزوة تبوك في رجب سنة ٩

(١) صحيح البخاري ص ٣٥٩٥ .

للهجرة النبوية الشريفة و بلغت السرايا والبعوث نحو ستين سرية^(١) و قبل أن يفارق الدنيا و يلحق بالرفيق الأعلى استطاع بفضل الله سبحانه أن ينشئ أمة واعية راشدة قامت بتغيير مجرى الحياة و نجحت في بناء الحضارة الإنسانية لم يشهد مثلها التاريخ فلله دره ما أعظم أثره صلوات الله عليه و سلامه.

و في ضوء ما سبق إذا نظرنا إلى خسائر الغزوات والسرايا عموما فيكون العدد الإجمالي كالتالي:

عدد الأسرى من الفريقين ٦٥٦٥ أسيرا، عدد الجرحى ١٢٧ جريحا و عدد القتلى ٧٧١٠ نسمة.

و قد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراح ٦٥٦٤ أسيرا رحمة منه و رأفة و لم يأمر إلا بقتل أسيرين متورطين في جرائم عديدة، ولا يعرف مصير ٢١٥ أسيرا والظاهر أنهم إما اعتنقوا الإسلام أو أطلقوا من غير مقابل مادي.

أما عدد القتلى فيبلغ ١٠١٨ قتيل وهذا أقل خسائر يتصور إلى جانب ما تحقق من انجازات عظيمة في إخراج الناس من ظلمت الجهل إلى نور العلم، ومن البداوة القاتلة إلى الحضارة والمدينة، ولا يشكل إكراها على اعتناق الإسلام لأن الإيمان لا يتحقق بالإكراه.

(١) أنظر رحمة للعالمين ٢ / و ملحق كتاب قادة النبي للهواء محمود شيت خطاب .

يقول الشيخ سليمان المنصور فوري معلقا و مقارنا بين
الغزوات والحروب العامة:

وانظروا إلى خسائر نتجت عن الحرب العالمية التي استمرت من
١٤/ من شهر أغسطس سنة ١٩١٤م إلى ٣/ من شهر مارس سنة
١٩١٧م على معظم أجزاء العالم المتمدن. ذكر أن إنكلترا إنما كانت
تهدف بهذه الحرب إلى تأمين حرية الحكومات الصغيرة و كيائها، و
لهذا الهدف العادي هلكت آلاف النفوس و فويت الأموال الطائلة و
غرقت مئات الطائرات في البحر و تدهورت التجارة العالمية و
فسدت مرافق الحياة ومظاهر العيش، و مع ذلك كله فإن الشعب
الإنجليزي مستعد بعد للتضحيات تحقيقا للغرض المنشود.^(١)

(١) إن صحيفة همدن الصادرة في ١٧/ من أبريل سنة ١٩١٩م نشرت تعداد قتلى
الحرب الكونية المستمرة من سنة ١٨- ١٩١٤م حسب ما يلي:
روسيا ١٧٠٠٠٠ نسمة، و ألمانيا ١٦٠٠٠٠ نسمة، فرنسا ١٣٠٠٠٠ نسمة
وسبعون ألفا، و إيطاليا ٤٠٠٠٠٠ وستون ألف نسمة، والنمسا ٨٠٠٠٠٠
نسمة، بريطانيا ٨٠٠٠٠٠ نسمة، وتركيا ٢٠٠٠٠٠ وخمسون ألف نسمة، و
بلجيكا ١٠٠٠٠٠ وألف نسمة، وبلغارية ١٠٠٠٠٠ نسمة، و رومانيا
١٠٠٠٠٠ نسمة، ومانتي نيكر ١٠٠٠٠٠ نسمة، و أمريكا خمسون ألف نسمة.
المجموع الكلي ٧٣٠٠٠٠ و ٣٨ ألف نسمة.

والكاتب شاك هل دخل عدد قتلى مستعمرات الهند و فرنسا في تعداد إنكلترا و
فرنسا أم لا؟ ولكنه يعترف بأن عدد الجرحى والأسرى والمفقودين ليس داخلا

وانظروا إلى مدى نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أنه ضحى بـ ١٠١٨ رجل فقط في تحقيق جميع المصالح الروحية والخلقية والمادية والقومية التي لم تحققها أمة ولا دولة لغاية اليوم. دعنا عن حروب رجال الدنيا واذكر الحروب المقدسة، فهذه حروب "مها بهارت" لا يقل عدد المقتولين فيها عن عشرة ملايين نسمة، وكذلك أهلكت المجالس الدينية المقدسة في أوروبا نفوسا يربو عددهم على مئات الآلاف من النفوس.

وقد ذكر المستر جان ديون بورت في كتابه "أبالوجي آف محمد إيند قرآن" عدد النفوس التي أعدمته محاكم التفتيش اثنا عشر مليون نفس، قتل المسيحيون بأيدي المسيحيين أنفسهم.^(١)

ودولة أسبانيا وحدها أهلكت ثلاثمائة ألف و أربعين ألفا من المسيحيين اثنان وثلاثون ألفا منهم أحرقوا^(٢) حيا.^(٣)

تعذيب وتنكيل، تقتيل و تمثيل أو استرقاق و استعباد و اعتداء و اغتصاب هي أعمال ظلّت سمة الحروب والغزوات عبر

في الأعداد المذكورة بالتأكيد. (سليمان)

(١) إعجاز التزئيل (ص ٤٦١).

(٢) إعجاز التزئيل (ص ٤٧٤).

(٣) رحمة للعالمين ٢/٢٦٢ - ٢٦٤.

التاريخ الإنساني.

ففي عام ٨٤٤ ق.م حينما اعتلى العرش الملك (آشور ناصر بال) فمارس طريقة سلخ جلود الأسرى و هم أحياء.
و في عصر الفرعون رمسيس الثاني كان يتم إحصاء الأسرى من خلال إحصاء عدد الأيدي التي تم قطعها.
وكان السومريون يقدمون نسبة معينة من الأسرى في قرايين آلهتهم.^(١) وكذلك كان يفعل حكام المناذرة العرب. وكان ملك آشور يقدم ألسنة بعض الأسرى بعد استئلاها كقرايين للآلهة.
و في القرون الوسطى قام الأوروبيون من خلال محاكم التفتيش في الأندلس بارتكاب جرائم يتندى لها جبين الإنسانية لوحشيتها و بشاعتها و ما ارتكب من خلالها من فظائع.
وقد اكتشف جيش نابليون عندما دخل اسبانيا في تلك المحاكم الظالمه ضد المسلمين من أدوات التعذيب، أدوات لتمزيق أثداء النساء، و أخرى لاستئلال الألسنة و لقتل الأسير صبراً و هو واقف أو ممدد أو عن طريق تبضيع جسده بالسكاكين.^(٢)
والصليبيون حينما دخلوا بيت المقدس قتلوا عشرات الآلاف

(١) أسرى الحرب عبر التاريخ ص: ١٥-١٦ لعبد الكريم فرحان.

(٢) محاكم التفتيش القائمة و أساليبها ص: ٣٤-٣٦ للدكتور عبد الرحمن المحجي.

من الأسرى حتى سالت شوارع المدينة بدماء المذبوحين من النساء والأطفال و كبار السن والشباب الذين كانوا قد احتموا بالمساجد. و في العصر الحديث أباد الجنود ملايين البشر خلال الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية فقد تم تدمير هيروشيما و ناغاساكي اليابانيتين بالكامل بالقنابل الذرية عليهما فمات مئات الآلاف و مازالت آثار القنابل تظهر فيمن بقى و أنجب أجيالاً مشوهين من جراء القنابل.

كذلك الشيوعيون في روسيا والنازيون في ألمانيا و الفاشيون في مناطق مختلفة و ما قام به الصرب من تطهير عرقي في البوسنة، و ما فعله الصهاينة في فلسطين في جنين و صبرا و شاتيلا و غيره و ما جرى في العديد من دول أفريقيا و آسيا. كل ذلك دليل على همجية الإنسان و وحشيته ضد إخوانه من بني جنسه. و بعد قراءة هذا التاريخ الدموي للإنسان لا يصعب على أي مؤرخ محايد أن يقدر ما

ما قام به محمد صلى الله عليه و سلم في إنقاذ الإنسانية و إيقاف نزيف الدم.

و كان لفقهاء المسلمين سبق في وضع أسس العلاقات الدولية، فقد أعتبر الألمان الإمام محمد بن حسن الشيباني مؤسس

قانون الحرب والسياسة الدولية وأنشئوا جمعية باسمه و ما قدمه الإمام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه العظيم السير الكبير ليس إلا خلاصة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

إن معالم الرحمة واضحة بادية في كافة مظاهر حياة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد كان ودوداً عطوفاً مع أهل بيته و أفراد أسرته، كما كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين من أمته و كان ذو عناية فائقة و اهتمام دائم بالمستضعفين من الأيتام والأرامل، بل إن رحمته قد شملت العجماوات والجمادات أيضاً فيقول عن جبل أحد الصلد "هذا أحد يحبنا و نحبه"(١) و يمسح جسده الجمل الشاكي و ينادي مالكة و يؤنبه على تجويعه و يبشر بأن "في كل ذي كبد رطبة أجر"، و يخبر أن امرأة دخلت النار من أجل هرة لم تحسن معها المعاملة و أن رجلاً دخل الجنة من أجل الإحسان إلى كلب يلهث بسبب العطش.

إن من يتابع سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في الغزوات والحروب و ينظر إلى مواقفه النبيلة مع الأعداء الألداء من الكفار والمشركين يشهد بسمو أخلاقه و كمال رحمته حتى مع الذين آذوه وأخرجوه من دياره.

فمن كمال رحمته أنه صلى الله عليه وسلم واجه أصعب

موقف في حياته حينما ذهب إلى الطائف و لقي منهم معاملة قاسية
من الطرد والرمي بالحجارة مع ذلك حينما جاءه ملك الجبال و
سأله أن يطبق عليهم الأخشيين فقال قولته المعروفة:
"بل أرجوا أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده و لا
يشرك به شيئاً" (متفق عليه)

و لما طلب منه أن يدعو على الذين كذبوه و عاندوه و
آذوه و أخرجوه فقال:

إني لم أبعث لَعَنًا و إنما بعثت رحمة. (رواه مسلم)
و في معركة أحد لما جرحه الكفار و كسروا رباعيته و
شجّوا جبهته وأوقعوه في الحفرة و حاولوا أن يقتلوه و قتلوا أكثر
من سبعين من صحابته، فظل يردد:

"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (متفق عليه)
و في صلح الحديبية رغم أن الكفار أرغموه على العودة و
منعوه من الوصول إلى بيت الله و أداء مناسك العمرة و مع ذلك
لم يأخذ منهم موقفاً سلبياً، بل قال:

"والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت
الله إلا أعطيتهم إياه"

و بعد فتح مكة لم ينتقم من أحد بل أعطى الأعداء عموماً

الأمان وقال:

"لا تثريب عليكم اليوم، إذهبوا فانتم الطلقاء".

و من كمال رحمته صلى الله عليه وسلم أنه لم يأمر بقتل
من أراد أن يقتله بالسحر و لا من دس في طعامه السم، كما لم
يقتل الأعرابي الذي سلّ السيف عليه غرة حينما تمكن منه و سقط
السيف من يده، هذه و غيرها كثير من الأمور تؤكد كمال رأفته
و رحمته حتى مع أعدائه و أن تعامله الإنساني أثناء غزواته و حروبه
خير دليل على كونه نبيا مرسلا بعث رحمة للعالمين صلوات الله
عليه وسلامه.

بعض المراجع:

- ١- صحيح الإمام البخاري
- ٢- صحيح الإمام مسلم
- ٣- تفسير ابن كثير
- ٤- مقدمة ابن خلدون و تاريخه
- ٥- سنن أبي داود
- ٦- التلخيص الحبير- لابن حجر العسقلاني
- ٧- أثار الحرب للزحيلي
- ٨- المغني لابن قدامة
- ٩- الحقوق والواجبات
- ١٠- سيرة ابن هشام
- ١١- سنن الدار قطني
- ١٢- سنن البيهقي
- ١٣- الروض الأنف
- ١٤- فتح الباري
- ١٥- تفسير القرطبي
- ١٦- محاكم التفتيش القائمة و أساليبها للحجوي
- ١٧- أسرى الحرب عبر التاريخ لخان
- ١٨- شرح السير الكبير للإمام السرخسي

معالم الرحمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

الرحمة: هي الرقة والتعطف يقال: رحمه إذا رق له وتعطف عليه والله سبحانه هو الرحمن الرحيم، وقيل رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وإن رحمته سبحانه وتعالى هي الأصل ومنها أنزلت الرحمة في الخلائق.

وقد ورد في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام والبشر والدواب والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة وترفع الدابة حافرها خشية أن تصيبه" (١).

يقول الراغب الأصفهاني: الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز الله تعالى في طباع الناس الرقة وتفرد بالإحسان

(١) صحيح البخاري رقم ٦٠٠٠ ومسلم ٢٧٥٢.

نفسه^(١).

ويقول القرطبي وغيرهم من المفسرين كالبيضاوي والطاهر بن عاشور: إن الرقة تعني انفعالا في النفس يقتضي التأثير لحال المرحوم فيرحم^٢ والله تعالى منزّه عن التأثير والانفعال^(٣) وإن رحمته كما تليق بشأنه.

والموقف الصحيح في أسماء الله وصفاته أن لا تأوّل وتمرر كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقيل: إن "الرحمة" هي الرقة والحنان أو هي رقة القلب تستدعي مديد العون والإحسان إلى الغير ويقول الكفوي: إنما حالة وجدانية تعرض غالبا لمن به رقة القلب ويكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان^(٣).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

"الرحمة سبب واصل بين الله عز وجل وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم وبها يسكنهم في دار

(١) المفردات / ١٩١.

(٢) تفسير القرطبي ١٠٦/١.

(٣) الكليات ٣٧٦/٢.

ثوابه وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم فبينهم وبينه سبب العبودية وبينه وبينهم سبب الرحمة^(١).

والرأفة هي أشد الرحمة وشدة الحرص على إيصال الخير والإحسان إلى الغير.

وقد وصف الله سبحانه المصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

وكانت الرحمة والرأفة من أهم سمات أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله وقد تجلت معالم الرحمة في كافة تصرفاته وجميع معاملاته.

فقد كان صلوات الله عليه وسلامه شفيقا بالأمة حريصا على إسداء الخير إلى جميع أفرادها مصداقا لقول الله عز وجل:

{عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}
(التوبة: ١٢٨)

ومثلا حيا وتفسيرا صادقا لقول الله عز وجل:

{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: ١٠٧)

"الرءوف" هو شديد الرحمة و"الرحيم" هو الذي يريد الخير لغيره وقيل: رءوف بالطائعين ورحيم بالمذنبين، قال ابن عباس

(١) تفسير ابن القيم/٣٥.

رضي الله عنهما: سماه المولى بإسمين من أسمائه وفي الجمع بينهما دلالة على أن في كل منهما معنى ليس في الآخر على نحو ما ذكره. إن رأفته صلى الله عليه وسلم اختصت بالمؤمنين وإن رأفة الله عز وجل ورحمته للناس عامة {إن الله بالناس لرءوف رحيم} (البقرة: ١٤٣)

ثم إن رحمته صلى الله عليه وسلم عامة للعالمين، أما الرأفة فهي خاصة بالمؤمنين لأن المؤمنين هم أمة الدعوة والإجابة، أما غيرهم فهم أمة الدعوة فقط^(١).

وفي الفرق بين الرأفة والرحمة يقول الكفوي:

الرحمة أن يوصل إليك المسار، والرأفة هي أن يدفع عنك المضار، والرأفة إنما تكون باعتبار إفاضة الكمالات والسعادات التي بها يستحق الثواب، والرحمة من باب التزكية والرأفة من باب التخلية، وذكر الرحمة بعد الرأفة مطرد في القرآن الكريم لتكون أعم وأشمل^(٢).

وإن رحمة الله سبحانه قد وسعت كل شيء وقرر الله سبحانه أن تكون الرحمة صفته الثابتة، لا تزول عنه أبدا حيث يقول سبحانه:

(١) زاد المسير ٥٢١/٣.

(٢) الكليات ٣٧٨.

{كتب ربكم على نفسه الرحمة} (الأنعام: ٥٤) ومن مظاهر رحمته إرساله الرسل وإنزاله الكتب وإن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أعظم الرسل وأفضلهم قد بعثه الله رحمة للعالمين جميعا يقول الله عز وجل:

{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: ١٠٧)

وقد تجلت مظاهر الرحمة في كافة جوانب حياته الخاصة منها والعامة، وإن شئنا أن نؤكد أنه رحمة مهداة ونعمة مسداة، شمل بخيره العميم كافة المخلوقات وقد جاء بالشرعية السمحة للناس.

كان يقول النبي صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة^(١)، ويقول: إني لم أبعث لعانا إنما بعثت رحمة، وإن رحمته عامة فما من أحد إلا وقد نال حظا من رحمته، المؤمن بالهداية، والمنافق بالأمن من القتل والكافر بتأخير العذاب^(٢).

وقد روى البخاري عن مالك بن الحويرث قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومي، فاقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيما رفيقا^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣٥/١.

(٢) الشفاء ١٧/١.

(٣) صحيح البخاري برقم ٦٠٢.

ولما قيل له: يا رسول الله! أدع على المشركين قال: إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة^(١).

ومن آثار رحمته صلى الله عليه وسلم أنه لم يكلف أمته بما يشق عليها ويسبب لها العنت والجهد فقال:

يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا وأن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما ديم عليه وقلّ^(٢).

ويقول: إن هذا الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة^(٣).

ودخل المسجد يوما فإذا جبل مشدود بين الساريتين فقال: ما هذا الجبل؟ فقالوا: جبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا حلوّه ليصلّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعده^(٤).

كذلك نهى المسلمين عن صوم الوصال رحمة بهم فلما قالوا:

(١) صحيح مسلم ٢٥٩٩.

(٢) أخرجه البخاري ١٨/١ وفي ١٢٢/٨.

(٣) صحيح البخاري ١٧/١ كتاب الإيمان.

(٤) صحيح البخاري أبواب التهجد ٦٧/٢ و برقم ١٣١٢.

إنك تواصل فقال: إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي
ويستقيني^(١).

ويقول صلى الله عليه وسلم: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم
بالسواك عند كل صلاة^(٢).

إن تكاليف الإسلام سهلة سمحة لا حرج فيها ولا عنت لأنها
منوطة بقدره المكلف واستطاعته.

يقول الله عز وجل: { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها } (البقرة:

٢٨٦)

ويقول: { وما جعل عليكم في الدين من حرج } (الحج: ٧٨)
إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان رئيستان لحماية
المجتمع الإسلامي من التفكك والدولة الإسلامية من الانهيار.

وقد جاء الحكم في كتاب الله عز وجل بصراحة ووضوح:
{ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر } وأولئك هم المفلحون { (آل عمران: ١٠٤)
وقد قرن الله سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفات
الإيمان وجعله مثل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يقول الله عز وجل:

(١) رواه مسلم برقم ١١٠٥.

(٢) البخاري ٥/٢ باب السواك يوم الجمعة.

{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم} (التوبة: ٧١)
ويمدح الله سبحانه من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:
{ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين}
(آل عمران: ١١٣-١١٤)

وجعل القيام به سبب الشرف والفضيلة للأمة بأكملها:
{كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} (آل عمران: ١١٠)

واعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوصاف المؤمنين الذين وعدهم الله بالنصر والتمكين قال تعالى:
{ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} (الحج: ٤٠-٤١)

وجعل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سمات المنافقين:
{المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر

وينهون عن المعروف { (التوبة: ٦٣)
ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:
"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،
فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (١).
ويبين أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب
عدم إجابة الدعاء.
عن أبي حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال:

والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف أو لتنهون عن المنكر
أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب
لكم (٢).

واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر سببا للفوز والنجاة وأن التقصير في أداء هذه الفريضة يؤدي
إلى الهلاك والدمار وقد ضرب لذلك مثلا وقال:
مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على
سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في

(١) رواه مسلم ٢/٢٢٠.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢١٦٩.

أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا
حرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا؟
فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم
نجوا^١ ونجوا جميعا.

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيقول الجرجاني في
كتاب التعريفات:

الأمر مفهوم بالمعروف: الإرشاد إلى المرائد المنجية، والنهي
عن المنكر: الزجر عما تميل إليه النفس والشهوة^(١).
والمعروف ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه وقيل:
المعروف ما يستحسن من الأفعال.
والمعروف خلاف المعروف وهو كل ما قبحه الشرع وحرّمه
وكرهه فهو منكر^(٢).

ويقول الزبيدي: الأمر بالمعروف: هو ما قبله العقل وأقره
الشرع ووافق كرم الطبع والنهي عن المنكر.

يرى جمهور أهل السنة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض
كفاية وبه قال الضحاك والطبري وأحمد بن حنبل وقيل: انه فرض

(١) التعريفات / ٥٤.

(٢) لسان العرب ١/ ٢٣٩.

عين في بعض المواضع:

١- إذا كان المنكر في موضع لا يعلم به إلا هو وكان

متمكنا من إزالته.

- من يرى المنكر من زوجته وأولاده أو رأى الإخلال بشيء من الواجبات.

- مسئول الحسبة لاختصاصه بهذه الفريضة^(١).

٢- ويرى الحسن البصري وابن شبرمة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نافلة.

٣- وفصل بعض الفقهاء على أقوال:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون واجبا في الواجب فعله أو في الواجب تركه.

ومندوبا في المندوب فعله أو في المندوب تركه وهو رأي الجلال البلقيني والأذرعي من الشافعية^(٢).

ويرى الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكذلك عز الدين ابن عبد السلام أن مقصود النهي عن المنكر أن يزول ويخلفه ضده، أو يقل وإن لم يزل بجملته أو يخلفه ما هو مثله، أو يخلفه ما هو شر

(١) شرح مسلم للنووي ٢/ ٢٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة / ١٤٦.

منه، والأولان مشروران، والثالث موضع الاجتهاد والرابع محرم^(١).

وخلاصة الأمر أن المعروف إسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع.

والمنكر هو كل ما قبحه الشرع وحرمه ونهى عنه. وقيل: إن المعروف: هو المعلوم والمنكر: هو المجهول فهو ضد المعروف.

ويطلق المعروف على الجود والإحسان أيضا يقال: فلان صاحب معروف أي ذي جود وإحسان، ويطلق المعروف أيضا على ما يستحسن من الأفعال.

أما في الاصطلاح الشرعي: فالمعروف هو كل ما أمر الشارع بفعله إلزاما أو ترغيبا فهو كل ما يستحسن فعله في الإسلام وهو مستحسن في العقول السليمة ولدى الطبائع المستقيمة أيضا. أما المنكر فهو كل ما نهى الشارع عنه نهيا إلزاميا تحريما فهو مستقبح في الإسلام وكذلك مستقبح لدى العقول السليمة والطبائع المستقيمة أيضا.

(١) شرح الأصول الخمسة / ١٤٦.

وقيل: الأمر بالمعروف: الدلالة على الخير والنهي عن المنكر: هو المنع عن الشر.

وقيل: الأمر بالمعروف: أمر بما يوافق الكتاب والسنة، والنهي عن المنكر: نهي عما تميل إليه النفس والشهوة^(١).

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة الأنبياء والرسل وغاية إنزال الكتب وتشريع الأحكام والشرائع.

وقد وردت آيات وأحاديث للتأكيد على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الله عز وجل:

{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} (آل عمران: ١٠٤)

يقول ابن جزّي في التسهيل:

(ولتكن منكم أمة) دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وقوله "منكم" دليل على أنه فرض كفاية لأن من للتبعيض وقيل: إنها لبيان الجنس وأن المعنى: كونوا أمة، وتغيير المنكر يكون باليد واللسان وبالقلب على حسب الأحوال^(٢).

(١) أنظر التعريفات للجرجاني والكلبيات للكنوي.

(٢) التسهيل ١ / ٤٠٧.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد^(١).

ويقول مشيراً إلى عصره: وقد كان الذي خفناه فإننا لله وإننا إليه راجعون.

يقول الإمام النووي رحمه الله:

وينبغي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى التحصيل المطلوب فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه"

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقي، وإذا تركه الجميع ثم الكل ممن تمكن منه بلا عذر ولا خوف.

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ٤.

يقول النووي رحمه الله:

قال العلماء: لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد بل يجب عليه الأمر والنهي لا لقبول كما قال الله عز وجل:

{ ما على الرسول إلا البلاغ } (المائدة: ٩٩)

ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين.

يقول إمام الحرمين: والدليل على ذلك إجماع المسلمين فإن غير الولاية في الصدر الأول، وعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاية بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية.

ثم انه يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمعروفات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها.

وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وبما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا له إنكاره بل ذلك للعلماء، ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار

فيه^(١).

وقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا:
من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،
فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان^(٢).

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي تحتاج
إلى فقه دقيق وفهيم سليم حتى لا يؤدي تصرف الإنسان إلى إثارة
الفتنة وزيادة المنكر يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "من وعظ أخاه
سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه"

ويقول القاضي عياض: هذا الحديث أصل في صفة التغيير
فحق التغيير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولاً أو فعلاً فيكسر
آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله، ويترع
الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو يأمره إذا أمكنه^(٣)، ويرفق
في التغيير جهده بالجاهل ولذي العزة الظالم المخوف شره، إذ ذلك
أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٣/٢.

(٢) رواه مسلم ٤٩/٦.

(٣) هذا النوع من التغيير قد يمارسه الإنسان داخل بيته وبين أولاده، أما بين عامة
الناس فسلطة التغيير العملي تكون خاصة بالجهات المسئولة حتى لا تحدث الفتنة
ولا يعم الفوضى كما هو واضح من أقوال العلماء التي نقلت فيما بعد.

الصالح والفضل لهذا المعنى، ويغلظ على المتماذي في غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر غلاظه أشد مما غيره.

فإن غلب على ظنه أن تغييره يسبب منكرا أشد منه من قتله أو قتل غيره بسببه كف يده، أو اقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف.

فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة. هذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى وهذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء المحققين خلافا لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قتل ونيل منه كل أذى^(١).

قال الإمام النووي وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه: فاصبروا حتى تلقوني على الحوض فقول: اصبروا" أي حيث يلزم من ذلك سفك الدماء أو إثارة الفتنة ونحو ذلك.

يقول إمام الحرمين:

ويسوغ لأحد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، ما لم ينته العمل إلى نصب قتال وشهر سلاح فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان قال وإذا جار والي الوقت وظهر ظلمه وغشمه ولم يترجر عن سوء صنعه بالقول

(١) إعلاء السنن ٨٠٩/١٢.

فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة ونصب الحروب.

وهذا محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه^(١).

ومن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون ذلك تحت قدرته، وأن لا يكون موجبا للفساد وإثارة الفتنة وزيادة الذنوب.

ويدل عليه قوله عليه السلام: "فإن لم يستطع فبلسانه" فإن العجز عن التغيير باليد ليس إلا لمخافة ترتب فتنة عليه وكذلك العجز عن التغيير باللسان ليس إلا لهذا المعنى وإلا فالأخذ بيد الغير والنطق واللسان مطلقا لا يعجز عنه أحد من المسلمين الأصحاء. وقيل: إن الأمر باليد إلى الأمراء، وباللسان إلى العلماء وبالقلب إلى العوام.

فإذا أراد الأمر بالمعروف فليبدأ بنفسه ثم بعياله وأطفاله وعشيرته كما يدل عليه قوله تعالى:

{قوا أنفسكم وأهليكم نارا} وقوله تعالى:

{وأنذر عشيرتك الأقربين} ثم لغيرهم.

(١) إعلاء السنن ٩/١٢.

قال القاضي في تفسير قوله تعالى: {ولتكن منكم أمة} الأمر بالمعروف يكون واجبا ومندوبا على حسب ما يأمر، والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن القاضي يجب أن ينهي عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. و ذكر الزمخشري: إن شرط النهي أن يعلم الناهي ان ما ينكره قبيح وأن لا يكون ما ينهي عنه واقعا (وإن كان قد وقع فلينه عنه في المستقبل) وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي عنه يزيد في منكراته وأن النهي لا يؤثره. وإن شرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية وأن لا يغلب على ظنه أنه أنكر لحقته مضرة عظيمة وأن الأمر هو لكل مكلف وغير المكلف إذا هم بضرر غيره. منع كالصبيان والمجانين ينهاون عن المحرمات كيلا يعتادوها كما يؤمرون بالصلاة لذلك. فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما لا شبهة فيه وثبت ذلك بالآيات والأحاديث وعليه انعقد الإجماع. ولكنه فرض على الكفاية ليس بفرض على كل أحد إذا قام به غيره، لقوله تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير}

وحقيقته تقتضي البعض دون البعض فدل على أنه فرض على الكفاية^(١).

يقول العلماء: إن قول الله تعالى {فذكر إن نفعت الذكرى} فلا يدل على انتفاء الأمر بالمعروف إذا احتل عدم النفع بل فيه الأمر به مادام النفع محتملاً كما هو مقتضى الفرق بين "إن" و"إذا" نعم إذا انقطع احتمال النفع بالكلية وغلب على الظن أنه لا يؤثر فيه سقط الوجوب^(٢).

وإن معالم رحمته صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة خاصة قد تجلت في مواقف كثيرة وهذه هي بعض نماذج منها:

جاء رجل من أهل البادية وقال له صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك فيجمع له الرسول صلى الله عليه وسلم في كلمتين وجيزتين تعاليم الدين الإسلامي الحنيف:

"قل آمنت بالله ثم استقم"^(٣).

(١) قاله الجصاص ٢/٢٩.

(٢) وراجع ابن كثير ٢/١٠٩.

(٣) رواه مسلم.

ويقول له رجل: يا رسول الله 'أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئاً، أدخل الجنة؟ قال: نعم(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم بسكران، فأمر بضربه، فمنا من يضربه بيده، ومنا من يضربه بنعله، ومنا من يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجل: ماله، أخزاه الله 'فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا عون الشيطان على أخيك(٢)".

وفي رواية له: "لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان"، وفي رواية أبي داود: ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. فقد تجلت رحمته صلى الله عليه وسلم في نفيه عن المنكر أنه صلى الله عليه وسلم أمر بجلده لكن منع عن لعنه وأثبت له المحبة مع تكراره الشرب، وإقامة الحد عليه في كل مرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل كان اسمه عبد الله 'ويلقب حمرا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحدود.

وسلم قد جلده في الشراب فأتى به يوماً، فأمر به فجلد فقال رجل
من القوم: اللهم عنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه
وسلم: لا تلعنوه فو الله ما علمت، أنه يحب الله ورسوله^(١).
وهناك موقف آخر تجلت فيه رافة النبي صلى الله عليه وسلم
ورحمته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد روي أبو هريرة
رضي الله عنه:

أن أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه واهريقوا على بوله ذنوبا
من ماء أو سجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا
معسرين^(٢).

وقد تجلّت معالم الرحمة في نهيه صلى الله عليه وسلم عن المنكر
بوضوح أكثر في حديث رواه أبو أمامة رضي الله عنه: أن غلاما
شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أتأذن لي في
الزنا؟ فصاح الناس به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قريبه، أدن
مني، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي صلى الله عليه وسلم:
أتحبه لأملك؟ قال: لا جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا

(١) صحيح البخاري كتاب الحدود.

(٢) رواه البخاري ٦١٢٨/١٠.

يحبونه لأمهاتهم.

أتحبه لابنتك؟ قال: لا جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا

يحبونه لبناتهم.

أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف أنه ذكر العمّة والحالة ويقول في كل واحدة: لا جعلني الله فداءك فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال: الله طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصّن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه - يعني الزنا^(١).

فقد تجلت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن المنكر وعالج أشد شيء على النفس وهي الرغبة إلى الزنا وشدة الشبق لدى الشاب المليء المتفجر بالقوة والجموح بغاية من الحكمة والتحمل حتى كرّه إليه ارتكاب الفاحشة أو ممارسة الزنا من غير أن يؤنبه أو يستخدم في حقه كلمة شديدة جارحة لشعوره.

فقد عالج صلى الله عليه وسلم هذه الحالة الشاذة علاجاً نفسياً تربوياً بحث عن جذور المرض والسلوك الشاذ في أعماق النفس فاقتلعها باليد الحانية المشفقة والقلب الرحيم والأسلوب الحكيم فما أعظمه معلماً ومربياً حكيماً.

و من شواهد رحمته صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف

(١) رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح.

والنهي عن المنكر ما روته عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم:

هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبي إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(١)، فلم يرد أن ينتقم منهم على ما أساءوا إليه وآذوه لأنه رسول رحيم بأمته لم يرض على قط دابر المسيئين أملاً من رحمة الله سبحانه أن يخرج من أصلابهم من يعبدونه ولا يشركون به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول

(١) رواه البخاري الفتح ٦/٣٢٣١.

الله إن دوسا عصت وأبت فادع الله عليها فقل: هلكت دوس،
قال اللهم إهد دوسا وآت بهم^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه
وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا
يعلمون^(٢).

لقد أصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المسائل
الحساسة والقضايا الشائكة في هذا العصر بسبب عدم مراعاة
الشروط والآداب للقيام بهذه الفريضة.

ومن الأسباب التي أدت إلى تقليل شأن هيئات الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وفقد هيبتها حتى أصبحت محل التندر والاستهزاء
في بعض البلاد والمجتمعات:

- ١- نقص كفاءات القائمين عليها.
- ٢- استخدام الأسلوب الذي فيه كثير من الفظاظ
والخشونة.
- ٣- عدم مراعاة نفسيات الفئات المستهدفة.

(١) البخاري الفتح ٦/٢٩٣٧.

(٢) البخاري ٣٤٧٧.

٤ - تعود الناس على اللهو إلى جانب رقة الدين في عامة الناس وجماهيرهم بسبب كثرة الإغراءات المادية وضخامة أجهزة الدعاية والترويج للانحراف الفكري والانحلال السلوكي.

وللأمر بالمعروف وأساليب ولإنكار المنكر درجات وكل ذلك يتطلب إلى تفقه وتبصر كما يتطلب إلى حكمة وتعقل.

فمن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أو المحتسب) أن يكون عالماً بأحكام الشرع فيما يأمر وفيما ينهي لأن الجاهل بأحكام الإسلام يحره بجهله إلى تحسين الشيء وهو قبيح في نظر الشرع أو تقييح الشيء وهو حسن في نظر الشرع وهذا خطر عظيم ومصيبة كبرى لأنه لا يمكن إقامة شرع الله بواسطته.

- وأن يكون ذا رأى وصرامة وقوة في الدين لأنه يحتاج أحياناً إلى اتخاذ أسلوب فيه شدة، فإذا كان ذا تمسك شديد بتعاليم الشريعة وتطبيق تام لأوامر الله ونواهيه لا يفرق بين صغير وكبير وقريب وبعيد وأمير وحقير وإنما يجري أحكام الله على الجميع وإلا تطاول العصاة وظهر الفساد واستفحل الشر.

- وأن يكون عالماً بالمنكرات الظاهرة، ذا معرفة بأساليب

الفسقة وطرفهم وأساليب وحيل الغشاشين والماكرين
وضروب مكرهم لأن كثيرا من المفسدين يمارسون الفساد
بتغيير أسماء الأشياء.

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله:

إن هداية الغير فرع عن اهتداء الإنسان، وتقويم الغير فرع عن
استقامة الشخص نفسه فكيف يكون مصلحا لغيره من لم يكن
صالحا في نفسه؟ لأن فاقدا الشيء لا يعطيه، ومتى يستقيم الظل
والعود أعوج^(١).

ولكن نظرا إلى عموم الآيات والأحاديث في القيام بالأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر يقول سعيد بن جبير رحمه الله:
"إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه
شيء، لم يأمر أحد بشيء".

وقد أعجب بهذا القول مالك رحمه الله^(٢).

وأحيانا يكون بعض القائمين على منصب الحسبة جلدا وإن
لم يكن في خاصة نفسه عدلا تقيا وهذا هو الباعث على قول عمر
بن الخطاب رضي الله عنه:

(١) إحياء علوم الدين ٣٠٩/٢.

(٢) القرطبي ٣٦٦/١.

"اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة" (١).

ويجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مأمورا كان بذلك أو متطوعا أن يقوم بهذا العمل ابتغاء وجه الله ولا يطمع فيما في أيدي الناس خاصة فيمن يقوم بالاحتساب عليهم وتوجيههم وإرشادهم.

روى الغزالي رحمه الله "قصة بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من جاره القصاب فضلات اللحم لسنوره فرأى على القصاب منكرا فدخل الدار وأخرج السنور ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب: لا أعطيك بعد هذا شيئا لسنورك فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد ما أخرجت السنور وقطع الطمع منك" (٢).

كذلك من مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم ومعامله في بيان الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح فقال: إذبح ولا حرج فجاء

(١) السياسة الشرعية / ١٨.

(٢) إحياء علوم الدين ٣٢٩/٢.

آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي فقال: إرم ولا حرج
فما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قدم أو آخر إلا قال:
افعل ولا حرج^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى
الله عليه وسلم فقال: هلكت يا رسول الله قال ما أهلكك؟ قال:
وقعت على امرأتي في رمضان، قال: هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال:
لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال:
فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً؟ قال: لا، قال ثم جلس فأتى النبي
صلى الله عليه وسلم بعرق (الزنبيل) فيه تمر فقال: تصدق بهذا،
قال: (علي) أفقر منا؟ فما بين لابتئها أهل بيت أحوج إليه منا
فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: اذهب
فأطعمه أهلك^(٢).

فجاء وهو يظن أنه هالك وعاد قد أخذ زنبيل التمر ورسول
الله صلى الله عليه وسلم يضحك، وهذه القصة تدل على كمال
رحمته صلى الله عليه وسلم حتى إن سلمة بن صخر البياضي
الأنصاري رضي الله عنه وهو صاحب الواقعة رجع إلى قومه قائلاً:

(١) صحيح البخاري كتاب العلم، صحيح مسلم كتاب الحج ٣٢٧ - ٣٣٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب الصوم وصحيح مسلم رقم ٨١ - ٨٨.

وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند النبي صلى الله عليه وسلم السعة والبركة وقد أمر لي لصدقتكم فادفعوها إلي كما روي ذلك أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه عليه الذهبي.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون رفيقا في التعامل مع الناس حتى ينجح في استمالة قلوب الناس وفي حصول المقصود من مهمته إلا في حالة قسوة المجرمين وظهور العناد منهم. يقول الله عز وجل:

{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا انفضوا من حولك} (آل عمران: ١٥٩)

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف، ومالا يعطي على سواه^(١).

وعنا رضي الله عنها قالت: إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يترع من شيء إلا شانه^(٢).

ويحكى أن رجلا دخل على المأمون فأمره بمعروف ونهاه عن

(١) صحيح مسلم ١٤٦/١٦.

(٢) صحيح مسلم ١٤٦/١٦.

منكر وأغلظ له في القول فقال له المأمون: يا هذا: إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر مني فقال لموسى وهارون حينما بعثهما إلى فرعون:

{فقلوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى} (طه: ٤٤)
ثم أعرض عنه ولم يلتفت إليه^(١).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقاصد الشرع الأساسية وبهما يمكن إصلاح الناس وتخليص المجتمع الإسلامي بصفة خاصة والمجتمع الإنساني بصفة عامة من الأمراض الاجتماعية والفساد الأخلاقي وبناء مجتمع مثالي يسود فيه الأمن ويعيش فيه الإنسان في حماية وصيانة وتنمو فيه القيم الأخلاقية، وقد نظم المسلمون في عصور ازدهارهم نظام الاحتساب وجعلوا الحسبة جزءاً من التشكيل الإداري فكانت الحكومات تعين المحتسبين يقومون بهذا الواجب ويرغمون الناس على ترك المنكر بقوة الحكومة وتوجد عشرات من الكتب حول نظام الحسبة ولها تاريخ وأساليب في الحكومات والعصور المختلفة.

وفي الوضع الراهن وبسبب انتشار الفساد الاجتماعي على مستوى عالمي مع وفرة وسائل النشر والترويج وعدم وجود نظام

(١) إحياء علوم الدين ٣٢٩/٢.

الحسبة في كل الدول يتطلب الأمر أن توضع ضوابط للأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر وأن ينشأ جهاز فعال من أجل هذا
الغرض والخطوات المطلوبة من أجل تحقيق الهدف ما يلي:

- ١- إعداد جيل من العلماء إعدادا جيدا للقيام بهذه المهمة
فإلى جانب تعليمهم المسائل الشرعية يجب تدريبهم
على الأسلوب الراقي في التعامل مع الناس.
- ٢- عدم ممارسة العنف أو غلظة القول إلا في حالات
استثنائية تتطلب ذلك.
- ٣- تطبيق المنهج العملي المقتبس من هدى المصطفى صلى
الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
تتجلى فيها معالم الرحمة كما كانت هي دأب النبي
صلى الله عليه وسلم.
- ٤- جعل الرفق منهاجا في مخاطبة الناس بدل استخدام لغة
الزجر والتوبيخ في النهي عن المنكر.
- ٥- تدوين ميثاق عام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
يمكن الاستفادة منه في كافة المجتمعات.
- ٦- تقسيم العمل بين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر على اختلاف فئات الناس المستهدفين.

٧- وفي نهاية هذه الورقة لا يسعني إلا أن نشكر القائمين
على هذا المؤتمر العالمي الهادف وأن أرفع اسمي آيات
التقدير لمقام خادم الحرمين الشريفين حفظه الله على
رعايته الكريمة لهذا المؤتمر وأرجو من الله العليّ القدير
أن يكون المؤتمر فاتحة عهد جديد في إبراز معالم الرحمة
في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على مستوى
العالم. والله ولي التوفيق،،،

* * * * *

تحديات الأمن الفكري ومعوقاته في ضوء الثقافة الدينية

الإسلام دين "السلام" والإيمان مشتق من "الأمن" و لفظ "الأمن" يستخدم نقيضا "للخوف".
يقول الأصفهاني: أصل الأمن طمأنينة النفس و زوال الخوف.^(١) و يقول الجرجاني: "الأمن" هو عدم توقع مكروه في الزمن الآتي.^(٢)

و قد ورد في القرآن الكريم لفظ "الأمن" بصيغ مختلفة، والسياق يحدد المعنى في كافة الاستعمالات و مواضع الورد، كما أشير إلى أدوات الأمن ذات طابع مادي كانت أو غير مادي فقد جاء في القرآن الكريم:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُّهْتَدُونَ} (الأنعام: ٨٢)

(١) المفردات ٢٥.

(٢) كتاب التعريفات ٣٥.

و ورد: {أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} (قريش: ٤)
و في قول الله عز وجل: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ،
أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ آمِنِينَ} (الحجر: ٤٦) أشير إلى أن "التقوى" هي
من أدوات الأمن.

و في قوله تعالى: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}
(الحجر: ٨٢)

ذكرت حالة "الأمن".

كذلك قول الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ} (النحل: ١١٢)
و قوله تعالى: {إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً} (الأنفال: ١١)

و قيل عن "الأمن": أنه تعبير عن سنة إلهية في خلقه و في
تدبيره للكون.

و قيل: إن الأمن حالة شعورية إذ لا قيمة للأمن إن لم يوجد
الإحساس به، ثم إن "الأمن" كما يرتبط بالزمان كذلك يرتبط
بالمكان أيضاً كما في قوله تعالى: {إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ
أَمْنًا} و قوله سبحانه: و قوله سبحانه: {أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا
يُجَبِّىْ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا} (القصص: ٥٧)

إن الشريعة الإسلامية كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:
"مبناها و أساسها مصالح العباد في المعاش والمعاد' و هي
عدل كلها' و رحمة كلها' و مصالح كلها' و حكمة كلها.(١)
و إن "الأمن الفكري" هو أساس الأمن الاجتماعي والأمن
السياسي، و به يمكن تحقيق السعادة للبشرية، و إن تحقيق "الأمن
الفكري" في المجتمع يتطلب الجهد المتواصل من أجل تنشئة الجيل
الناشئ على سلامة الفكر، و قيمة الأمن، و روح المسامحة
والمسالمة' و "بالأمن الفكري" فقط يمكن بناء مجتمع متماسك و
جيل مبدع' و منتج' يسعد به الناس و تنهض به الأمة.
و إن "الأمن الفكري" يتحقق بصحة الاعتقاد، والتفقه في
الدين، والتربية الواعية و بناء الشخصية الإسلامية.
و إن الإسلام يقوم بترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس لأنها
هي جوهر الإيمان، و أن الإقرار بالعبودية لله وحده و نفيها عن
غيره، والإيمان بألوهيته و ربوبيته يحرر الإنسان من الخضوع أمام
المظاهر الكونية، و ينقذه من عبادة الطواغيت من الجن والإنس، و
يزيل من قلبه خوف انقطاع أسباب الحياة، و مصادر الرزق. يقول
الله عز وجل:

(١) إعلام الموقعين ٣/٣.

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: ٢-٣)

فالمؤمن بالله وحده يتعد عن عباده الأوثان^١ و عن السجود أمام مظاهر الكون^٢ كما يتجنب الخضوع أمام الجماهير والشعوب، أو لتمثيل القومية والوطنية الجامحة، ولا ترعبه السلطات السياسية الطاغية شريطة التزامه بالحق والصدق.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الروم: ٣٠)

إن الإيمان الصحيح القوي المتدفق يعطي الإنسان الشعور بالأمان و بالطمأنينة والسكينة، و أن الإنسان ما لم يشعر بالهدوء والاستقرار لا يمكن أن يكون عنصرا فعالا في المجتمع و إن القلق والاضطراب والشتات الفكري في الأفراد تنعكس سلبا على صلاح المجتمع و تؤخر خطط التنمية والتطوير.

كما أن الإسلام يحمي الإنسان من حقوق الضرر والأذى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم و أموالهم^(١) و من القواعد الفقهية الأساسية:

(١) مسند أحمد ١/١٨.

"لا ضرر ولا ضرار" و بنى عليها الفقهاء القواعد الأخرى مثل:
الضرر يزال".

و يحث على احترام حرمان المسلمين' و عدم الاعتداء عليها
فيمنع التجسس على المسلم في الحالات الاعتيادية' و يجذ الستر
عليه إذا كان خطأه غير متعد على المجتمع كما يمنع من إساءة الظن
إلى أحد' أو ذكر أحد بسوء في غيابه.

يقول الله سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}
(الحجرات: ١٢)

هذه الآية الكريمة تضع الإنسان المسلم في سياق أمني فلا
تتطرق إليه الظنون والأوهام و لا يقوم أحد بالتجسس عليه ولا
يذكره أحد بسوء في غيابه.

و فيها تأكيد على تنظيف المشاعر والضمان فلا يكون
الإنسان عرضة الهواجس' والشكوك والظنون' فيعيش الإنسان آمناً
على بيته، آمناً على أسراره، آمناً على عوراته' فالحرمان والأنفس
مصونة' والبيوت' والأسرار' والعورات مناطق محظورة على

العابثين والمتطفلين.(١)

إن الدين 'والنفس' والمال 'والعرض' والعقل 'هي من الضروريات التي يجري فيها التدافع بين البشر و حولها تدور الأنشطة والاهتمامات، و من أجل الحفاظ عليها والتنافس فيها تدور المعارك، و تحدث الفتن والكوارث في المجتمعات البشرية. فما لم يكن الضمان لحماية الضروريات الخمس، و لم تتوفر القوة الرادعة للذود عنها لا يتحقق الأمن في المجتمعات البشرية و لن يسعد الإنسان مهما حقق من تطورات في مجال العلوم والتكنولوجيا.

من أجل ذلك أعتبرت هذه الأشياء من الأمور الأساسية في تشريع الأحكام، وجعلت حمايتها من مقاصد الشريعة الأساسية، فوضعت الحدود لحمايتها و شرعت العقوبات لدرأ الأخطار عنها فوضع جزاء قتل النفس متعمداً القصاص، و جعلت عقوبة سرقة المال المحرز قطع اليد، كما وضعت عقوبة من يبعث بالدين فيجعل الإسلام بالدخول فيه عن اختيار ثم الخروج منه موضع سخرية واستهزاء أن يقتل لارتداده عن الدين، كما أن من يتعاطي المخدرات و يشرب الخمر فيعاقب و يقام عليه الحد.

(١) راجع في ظلال القرآن.

كذلك الشخص الذي يعتدي على الأعراض فيمارس الرذيلة
و يثبت وقوعه في الزنا فيقام عليه حد الزنا كما هو منصوص في
القرآن والسنة النبوية المطهرة، فيرجم إن كان محصناً، و يجلد مائة
جلدة إن كان غير محصن.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

إن الأمن مقصود به سلامة النفس والمال والعرض والدين
والعقل و هي الضروريات الخمس التي لا بد منها لقيام مصالح
الدين والدنيا، و قد اتفق الفقهاء على أن أمن الإنسان على نفسه
و ماله و عرضه شرط في التكليف بالعبادات.(١)
فالأمن نعمة عظيمة من أجل ذلك امتن الله سبحانه على
قريش حينما قال:

{وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ} (قريش: ٤)

و إن قوله تعالى:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: ١١٢)

يوحي إلى أن نعمة الأمن لا تقل أهمية من نعمة الطعام

(١) المستصفى ٢٨٧/١.

والشراب للإنسان، فلا تهنأ الحياة ولا يطيب العيش إلا بالأمن، ولا تزدهر الحضارة ولا يحصل التقدم والرقى إلا بالأمن، يقول الإمام الماوردي:

"إذا ساد الأمن واطمأنت النفوس وانصرفت إلى المعمر المثمر والإنتاج الذي ينشر الرخاء في ربوع الأمة فتتسع الأرزاق وتقل الأزمات والقلاقل.(١)"

و لتحقيق الأمن الفكري اعتنى الإسلام قبل كل شيء على ترسيخ العقيدة الصحيحة و غرس الإيمان في النفوس لأن الإيمان الصادق هو أمان و ضمان لسلامة الفرد والجماعة.

و أكد على قيمة النفس الإنسانية و بين كرامة الإنسان و بين الحلال والحرام ثم نبه على الالتزام بحدود الله سبحانه يقول الله عز وجل: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا} (البقرة: ١٨٧) وجعل قتل النفس جريمة كبرى ووضع لردع القتل نظام القصاص.

وقال: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} (البقرة:

(١٩٧)

و قال: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ

(١) الأحكام السلطانية ص: ١٨.

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا { (المائدة: ٣٧)

فجعل قتل شخص بمثابة قتل الإنسانية جمعاء، و هذه غاية في
التأكيد على قيمة الحياة الإنسانية، و بيان منزلتها و كرامتها.
يقول الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي مينا حكمة
تشريع قوانين المظالم:

"إعلم أن أعظم المقاصد التي قصدت ببعثه الأنبياء عليهم
السلام دفع المظالم من بين الناس فان نظامهم يفسد حالهم و يضيق
عليهم ثم يقول:

والمظالم ثلاثة أقسام: تعد على النفس، و تعد على أعضاء
الناس و تعد على أموال الناس فاقتضت حكمة الله أن يزجر عن
كل نوع من هذه الأنواع بزواجر قوية تردع الناس عن أن يفعلوا
ذلك مرة أخرى.

و يقول: فأعظم المظالم القتل' و هو أكبر الكبائر' أجمع عليه
أهل الملل قاطبتهم' وذلك لأنه طاعة النفس في داعية الغضب، وهو
أعظم وجوه الفساد فيما بين الناس، و هو تغيير خلق الله، وهدم بنيان
الله و مناقضة ما أراد الحق في عباده من انتشار نوع الإنسان.(١)

(١) حجة الله البالغة ١٥١/٢.

و يقول الإمام الدهلوي:

إعلم أن المعاصي ما شرع الله فيه الحد، و ذلك كل معصية جمعت وجوها من المفسدة بأن كان فسادا في الأرض واقتضابا على طمأنينة المسلمين، و كانت لها داعية في نفوس بني آدم لا تزال تهيج فيها و لها ضراوة لا يستطيعون الإقلاع منها بعد أن أشربت قلوبهم بها.

فمثل هذه المعاصي لا يكفي فيها الترهيب بعذاب الآخرة بل لابد من إقامة ملامة شديدة عليها و إيلاء ليكون بين أعينهم ذلك فيردعهم عما يريدون كالزنا.^(١)

كذلك شرع الله الجهاد لإقامة الأمن في العالم والسلام في المجتمع يقول الإمام الدهلوي:

إعلم أن أتم الشرائع و أكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد و ذلك لأن تكليف الله عباده بما أمر و نهي مثله كممثل رجل مرض عبيده فأمر رجلا من خاصته أن يسقيهم دواء.^(٢)

لقد تنوعت الدراسات حول الأسباب التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب الجرائم و ممارسة العنف أو الإخلال بالأمن كما تنوعت

(١) حجة الله البالغة ١٥٨/٢.

(٢) حجة الله البالغة ١٧٠/٢.

الآراء حول السبل الكفيلة لمنع الجريمة سواء كانت تمس الأفراد أو تلحق الضرر بالمجتمع أو تخل بالأمن العام.

فهناك أسباب نفسية و جسدية و وراثية و اقتصادية و اجتماعية و دينية و كل ذلك تؤثر في بناء الإنسان كما تؤثر في تنشئته تنشئة غير سوية إذ أنشأ الإنسان في بيئة فاسدة.

إن كوامن النفس الإنسانية لا يعلمها بدقة و إحاطة إلا الله الخالق سبحانه.

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك: ١٤)

فهو الذي يطلع على سرائر القلوب و دقائق النفوس و يعلم خائنة الأعين و يرى ما تخفيه الصدور.

إن النظر في الإحصائيات التي تصدرها جهات الرصد والمتابعة عن الجرائم عموماً يؤكد أن الدول غير المسلمة خاصة الدول التي تعتبر راقية و متطورة مازالت في رأس القائمة في معدل الجرائم.

ثم إن الجريمة أصبحت اليوم أكثر قوة و عنفا و انتشارا بفضل العولمة التي وضعت بأيدي المجرمين التقنية الحديثة من الاتصالات والمعلومات تسهل لهم الاستفادة من هذه المعطيات بكل ذكاء و مهارة.

إن إحدى العصابات قد استثمرت حوالي ٥٠٠ مليون دولار

لإنشاء قاعدة تكنولوجية خاصة بها، و إن محاولات العصابات لم تقف على هذا الحد بل عمت إلى وضع برنامج تنصت حديث يمكن عن طريق الإصغاء إلى الأحاديث الهاتفية^١ و رسائل الفاكس^٢ بالإضافة إلى التحكم في خطوط الطيران القادمة والمغادرة^٣ و يمكن لهذه الأجهزة أن تخزن ملايين المحادثات الهاتفية.^(١)

إن العقوبة هي آخر ما تلجأ إليها الشريعة الإسلامية بعد استنفاد كافة السبل في إصلاح الأفراد.

يذكر في تعريف العقوبة بأنها تأديب و استصلاح و زجر يختلف بحسب اختلاف الذنب.^(٢)

و قيل: "هي" الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيانه أمر الشارع".^(٣)

المقصود من العقوبة إصلاح حال البشر لأن الأوامر والنواهي و حدها لا تكفي لحمل الناس على الخير والطاعة دون وجود عقوبات رادعة لنفوس شرسة و قد أوجب الشريعة أنواعاً من العقوبات لمصلحة الناس لأن الشارع كمثال الطبيب قد يضطر إلى

(١) العلاقة بين العولمة والجرائم ص: ٣٥.

(٢) الأحكام السلطانية ص: ٢٩٣.

(٣) التشريع الجنائي الإسلامي ٦٠٩/١.

عمل جراحي لاستئصال المرض من عضو المريض المتأكل لإنقاذ حياته قبل أن يستشري في سائر جسده.

و الحدود هي العقوبة المقدرة من الشارع حقا لله تعالى، و أن الجرائم الموجبة للحدود قيل خمسة و هي:

السرقه، الزنا، الشرب، السكر، القذف قيل: ست بإضافة قطع الطريق و قد زاد البعض، البغي، والردة والزندقه، و سب الله، و سب الأنبياء والملائكة، و عمل السحر.

و إنما أوجب الشرع العقوبة لأن النفوس المريضة التي لا تنفع معها جهود التهذيب والتقويم، ولا أساليب التبشير والإنذار يجب أن تعاقب رحمة بالناس من جرائمها.

فالعقاب الشرعي يهدف إلى:

- ردع المحرم عن ارتكاب الجرائم، و عن تكرارها والعودة إليها بعد التوقف.
- تلقين الآخرين درسا حتى لا تتجرأ المجموعات الأخرى على ارتكاب مثل هذه الجرائم.
- إنقاذ المجتمع من التأثير والتأثر المضاد كما هو سائد في القبائل البدائية لأن مسلسل التأثير يقضي على الأخضر واليابس.

و بهذا الطريق يطهّر القرآن الضمير من داخله أن يتلوّث بالظنون فيقع في الإثم و يجعله نقيا بريئا من المواجهس والشكوك، يكنّ لإخوانه المودّة التي لا يخذشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوّثها الأوهام والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكّرها القلق وتوقع المكروه^١ و ما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون.

إن قوة الإنسان على التفكير والتدبر والاستنتاج والاستنباط تميّزه على غيره من الكائنات الحيّة و إن وصف الإنسان بالحيوان الناطق، عند المنطقة ليس إلا لهذا الشعور والإدراك.

و "الفكر" كما يقول السيد الشريف الجرجاني أنه ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى المجهول^(١).

و يقول الأصفهاني: إن الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكير، جَوْلان تلك القوة بحسب نظر العقل^(٢) و ذلك للإنسان دون الحيوان.

و قيل: إن "الفكر" مقلوب عن "الفرك" لكن يستعمل "الفكر" في المعاني.

و إن القرآن الكريم يحث على إعمال الفكر، أو التفكير في

(١) التعريفات ٢٥٦.

(٢) المفردات للأصفهاني مادة "الفكر".

الكون و في آيات الله المبثوثة في السموات والأرض.

فقد تكرر تعبير: {لعلكم تعقلون} (البقرة: ٧٣, الأنعام: ١٥١, يوسف: ٢, النور: ٦١)

و {لقوم يتفكرون} (يونس: ٢٤, الرعد: ٣, النحل: ١١, ٦١, الروم: ٢١, الزمر: ٤٢, الجاثية: ١٣)

و {لقوم يفقهون} (الأنعام: ٩٨)

إن الجدل في الله كان من ديدن المنافقين والمشركين في أول الأمر فكانوا يعارضون العقيدة الصحيحة و يجادلون بأساليب مختلفة يقول الله عز وجل:

{وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} (الرعد: ١٣)

و كانوا يتكلمون بما ينافي القدر فقالوا عن شهداء أحد:

{لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} (آل عمران: ١٥٦) و

هذا إنكار صريح لقضاء الله و قدره كذلك قالوا: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} (النحل: ٣٥) و هذا إدعاء و تصريح بالجهل و تعليل لما كانوا عليه من الشرك و فساد العقيدة، و لكن الشرك الأكبر والنفاق في الدين كان غطاءً فما رسموا مناهج خاصة حول العقائد التفصيلية لكن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم و لحوقه بالرفيق الأعلى بدأت المسألة تأخذ بعداً جديداً فقام معبد

الجهني بتكوين جماعة من أهل الأهواء و تكلم في القدر و قال:

لا قدر والأمر أنف.^(١)

و كان معبد الجهني قد تعلم ذلك من رجل نصراني أسلم ثم

تنصر واسمه سنسوية.^(٢)

ثم تعلم منه غيلان الدمشقي و نشر الفكرة بين المسلمين و
قد أنكر مذهبه الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا أحياء في تلك
الفترة و هم عبد الله بن عمر، و جابر بن عبد الله، وابن عباس و
أنس بن مالك و ابن أبي أوفى و آخرون.^(٣)

و قد قتل غيلان بسبب هذه العقيدة الفاسدة التي تتلخص في أن
الإنسان يملك كامل الحرية في أفعاله ولا سلطان لأحد على إرادته.
و على عكس القدرية نشأت فرقة الجبرية التي تؤمن بأن
الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة فهو كالريشة المعلقة في الهواء.
و من الفرق الرئيسية أيضاً الشيعة، والمعتزلة والخواارج و
كلها تفرعت إلى جماعات صغيرة.

إن ظهور هذه الفرق^١ واتساع رقعة العالم الإسلامي^٢

(١) تبين كذب المفتري ص: ١٠.

(٢) ميزان الاعتدال ١٤١/٤.

(٣) الفرق بين الفرق ١٥.

ودخول أهل الديانات الأخرى في الإسلام ثم ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية إلى اللغة العربية أشعلت نار الفتنة و راجت سوق المناظرات والمجادلات و ألّفت الكتب الجديدة، مستخدمة مصطلحات أهل المنطق والفلسفة و ظهر علما مستقلا يعرف بعلم الكلام واستخدمت كل فرقة لإثبات ما تعتقده أدلة منطقية. فظهرت مسألة إنكار الصفات، والقول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله سبحانه يوم القيامة، و مبادئ العدل والتوحيد، و مسألة المتزلة بين المتزلتين وغيرها من القضايا والمسائل التي عكّرت صفو العقيدة الإسلامية و أحدثت فتنة التكفير والتبديع فتمزّقت الأمة. و بدأت تلعن بعضها بعضا، و تكفّر و تبدّع بعضها بعضاً، واستغل الأعداء هذه الفرقة لتعميق الهوة بينها و إضعافها كأمة واحدة متماسكة ذات هوية و تأثير ثم الاستيلاء على بلادها و موارد خيراتها.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره المرء في الدين والجدل بين المسلمين.

فقد روي عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم و هم يتراجعون في القدر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال يا

قوم! بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، و ضرهم الكتاب بعضه ببعض، و إن القرآن لم يتزل لتضربوا بعضه ببعض، و لكن نزل القرآن فصدّق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به و ما تشابه منه آمنوا به.

و عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند باب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذاكرُ يتزع هذا بآيةٍ و يتزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يفتق في وجهه حب الرمان فقال: يا هؤلاء بهذا بعثتم؟ أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.^(١)

و كان الصحابة يعاقبون على فساد العقيدة فقد روي عن مولى ابن عمر أن صبيغاً العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ قال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الموجهة، فأتاه فقال له عمر: عم تسأل فحدّثه، فأرسل عمر إليّ يطلب الجريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، ثم دعا به

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري عن أنس رضي الله عنه.

ليعود له، فقال صبيغ: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلى فاقتلني قتلا جميلا، و إن كنت تريد أن تداويني فقد - والله - برأت فأذن له إلى أرضه، و كتب له إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن لا يجالسه أحد من المسلمين فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت هيئته فكتب أن ائذن للناس في مجالسته.^(١)

و لما أرسل علي رضي الله عنه جيشا لمعاقبة أهل النهروان من الخوارج مع أنهم كانوا متدينين "رأى منهم جباها قرحةً لطول السجود" و أيديا كثفنت الأبل، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون".^(٢)

إن المحافظة على الأمن تتطلب إجراءات وقائية لمنع الجريمة قبل وقوعها و ذلك ليعم الصلاح بين الناس ولا يكون الفساد في الأرض.

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (الأعراف: ٨٥)

يقول الإمام الماوردي عن الجرائم:

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٢.

(٢) فجر الإسلام ص: ٣٢١.

(هي) محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير ولها عند التهمة حالة استبراء تقتضيه السياسة الدينية، ولها عند ثبوتها وصحتها حال استيفاء توجه الأحكام الشرعية.^(١)

إن اصطلاح منع الجريمة بمعناه الواسع يشمل كل ما من شأنه أن يمنع وقوع الجريمة فهو يشمل إزالة عوامل الجريمة وأسبابها سواء كانت هذه العوامل والأسباب فردية أو اجتماعية، وسواء كانت هذه الأدلة تقتضي علاج الخصائص البدنية والعقلية أو تقتضي علاج البيئة التي يعيش فيها الفرد، والمجتمع الذي يعمل في محيطه.^(٢)

إن "الأمن الفكري" إنما يتحقق بإزالة الأسباب التي تؤدي إلى العنف والتطرف ولها عوامل خاصة بالفرد مثل:

- انحراف الفطرة.
- ضعف الإيمان.
- إتباع هوى النفس.
- و عوامل عائدة للبيئة مثل:
- الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد.

(١) الأحكام السلطانية ٢٧٣.

(٢) ولاية الشرطة الاجتماعي في الإسلام ص: ٤٠١.

- عدم إقامة الحدود والعقوبات الشرعية.
 - وجود إعلام مفسد و مؤثر تأثيراً سلبياً.
 - وجود رفاق السوء.
- و هناك عوامل ذاتية في الإنسان تدفعها إلى حياة غير مستقيمة مثل:
- الوراثة.
 - الذكاء.
 - الأمراض النفسية.
 - الأمراض الجسدية.
 - الأمراض العقلية.
 - إدمان الخمر والمخدرات.
- أما العوامل الخارجية التي لها تأثير على حياة الإنسان فهي:
- نظام الدولة.
 - الأسرة.
 - المدرسة.
 - الرفاق.
- كما أن العوامل الثقافية أيضاً لا يستهان بها في تكوين الإنسان وهي:

- التعليم.
- وسائل الإعلام.
- الوضع الاقتصادي.

أما معالجة الوضع أو إصلاح الأمر فيمكن بالاهتمام بالعلم قبل كل شيء لأنه العلم النافع هو ضمان "الأمن الفكري" و كما هو المعلوم أنه رغم وفرة أدوات تبادل المعلومات يوجد الشح في مجال العلم الشرعي الدقيق و مع كثرة المنتسبين إلى العلم هناك نقص حاد في صفوف الفقهاء الموثوقين.

و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض ما يحصل في آخر الزمان حيث روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم و يثبت الجهل".^(١)
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
"يتقارب الزمان' و يقبض العلم' و تظهر الفتن' و يلقي الشح' و يكثر الهرج' قالوا: و ما الهرج؟ قال: القتل".^(٢)
كما ورد من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم ١٦ / ٢٢٢.

صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا".^(١)

أن ما يشاهد اليوم من كثرة المتشددین من الشباب المتدينين إنما يرجع سببه إلى أخذهم المعلومات الدينية عن غير مصادرها و عدم اهتمامهم بالتفقه في الدين مع العلم ان مجرد حفظ النصوص من الكتاب والسنة من غير توفر أدوات الفهم الصحيح لا يجعل الإنسان فقيها ولا يؤهله لأن يكون مرجعاً للفتوى.

و إلى هذه الحقيقة قد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في تأكيده على أن يبلغ الشاهد الغائب لأن "رب حامل فقه غير فقيه" أو رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

و هناك تأكيد على تلقي العلم من العلماء و أخذه عنهم لا كما يفعله بعض طلبة العلم اليوم من الاكتفاء بقراءة الكتب ثم الخروج بالآراء الشاذة والأفكار المنحرفة، فالواجب على الجميع أن يأخذ العلم من العلماء الراسخين لأن الجهل من أعظم الأسباب المؤدية إلى الغلو والاختلاف والتفرق.

(١) فتح الباري ١/١٩٥.

و قد ينشأ الجهل عن سوء الفهم كما قال شارح العقيدة
الطحاوية:

بل سوء الفهم عن الله عز وجل و رسوله صلى الله عليه
وسلم أصل كل بدعة و ضلالة نشأت في الإسلام و هو أصل كل
خطأ في الفروع والأصول لاسيما إن أضيف إليه سوء القصد.(١)
و قد أورد الإمام البخاري في صحيحه حديث معاوية رضي
الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و إنما أنا قاسم والله
يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من
خالفهم حتى يأتي أمر الله".(٢)

كما نقل قول عمر رضي الله عنه: "تفقهوا قبل أن تسودوا"
تحت عنوان باب الاغتراب في العلم والحكمة.

و قول ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: "اللهم علّمه الكتاب".

و ورد أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين
و علّمه التأويل".

(١) شرح العقيدة الطحاوية ٣٩٢.

(٢) صحيح الإمام البخاري حديث رقم ٧١ كتاب العلم.

و قد أشار إلى اختلاف استعداد الناس في الانتفاع من العلم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء فانبثت الكأ والعشب الكثير، و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا، و أصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كأ، فذلك مثل من فقه في دين الله و نفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.(١)

فمن الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في فهم النصوص {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} (يوسف: ٧٦) و كم من تفاوت بين مدارك الفقهاء فان لدى الأئمة الأربعة ثروة فقهية هائلة لما كانوا يملكون من مقدرة على الاجتهاد والاستنباط.

فلا يمكن تحقيق "الأمن الفكري" ما دام كل واحد يفتي، و ما لم يكن هناك اهتمام بالتأهيل الشرعي والتأصيل الفكري من أجل اعداد جيل يتمتع بوسطية الفهم و يتجنب الغلو والاندفاع و

(١) رواه البخاري تحت رقم ٧٩ في كتاب العلم.

لديه من ضوابط لفهم النصوص والتعامل مع الأدلة المتعارضة.
و من الملاحظ في العقود الأخيرة كثرة اهتمام الشباب بمسألة
تصحيح و تضعيف الأحاديث والآثار و هذا مؤشر ايجابي فان
الإسناد من الدين و لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، و ان
وجود علم الجرح والتعديل و فن أسماء الرجال من مفاخر الأمة
الإسلامية و قد شهد بذلك الأعداء أيضا، يقول المستشرق لويس
شبرنغر (S PRENGER) في مقدمة كتاب "الإصابة في تمييز
أحوال الصحابة" باللغة الإنكليزية:

"لم يشهد العالم في الأزمان الغابرة ولا الراهنة قوما أوجدوا
فنا عظيما ذا شأن كبير مثل ما اوجد المسلمون فن "أسماء
الرجال". والذي نتمكن بفضلهم من معرفة أحوال و أخبار خمسمائة
ألف شخص" (١) فالاهتمام بالإسناد و علم أسماء الرجال أمر مهم
للغاية و لا اعتراض على ذلك و لكن هناك جانب آخر و هو أكثر
أهمية بل هو الهدف الرئيس من هذه العلوم و هو فهم ما ثبت عن
النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث فهما دقيقا و به يظهر
التفاضل بين العلماء.

إن الإمام الخطابي' والإمام بن دقيق العيد' والإمام ابن تيمية

(١) الرسالة الحمديّة ص: ٨١ طبعة دار القلم.

و تلميذه الإمام ابن القيم والإمام ابن الهمام لهم تميز واضح في فهم النصوص و ربط بعضها ببعض و تنزيلها على الواقع فينبغي أن يكون الاهتمام بهذا الجانب أكبر لأن معظم الفتن تحدث بسبب التركيز على بعض الأحاديث مع الإغفال عن الأحاديث الأخرى أو عدم إعطاء الآيات القرآنية مكانها من الاستدلال.

إن "الإيمان" تصديق بالجنان، و إقرار باللسان، و عمل بالأركان".

فالتدين الحقيقي يتحقق بجمع كل من الاعتقاد والقول والعمل^١ و إن النية وحدها المضمرة في القلب لا يمكن أن تعتبر "تدينا"، ما لم تظهر في أعمال محسوسة و سلوك مترن.

و هذا ما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان".^(١)

و هذا الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه و يقول:

كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه

(١) سنن ابن ماجه ٢٦٣/١.

جبريل فقال ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و بلفائه و رسله و تؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً و تقيم الصلاة، و تؤدي الزكاة المفروضة و تصوم رمضان.
قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.^(١)

و من الناس من يفقد التوازن فيقع في إفراط و تفريط في تقييم الأمور فيبالغ و يشدد و يتقوقع و يأتي بأفكار و أعمال هي غريبة و بعيدة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد منع من الغلو، و من التنطع، و من انتهاج منهج التشدد في الدين.
و من ذلك ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون. يقول الإمام النووي في شرحه: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم و أفعالهم.^(٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(١) صحيح الإمام البخاري حديث رقم ٥٠ كتاب الإيمان.

(٢) رواه مسلم مع شرح النووي ٢٢٠/١٦.

إن الدين يسر و لن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا و
قاربوا و أبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة و شيء من الدلجة. في
شرح هذا الحديث.

نقل الإمام ابن حجر عن ابن المنير: أن هذا الحديث علم من
أعلام النبوة فقد رأينا و رأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين
ينقطع، و ليس المراد منع طلب الكمال والأكمل في العبادة، فإنه
من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملal أو المبالغة في
التطوع المفضي إلى ترك الأفضل.^(١)

و قال: و إياكم والغلو في الدين.^(٢)

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله:

و هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال.^(٣)

بين العقل والنقل:

يقول الإمام الشاطبي:

إن الله جعل للعقول في إدراكها حدا تنتهي إليه لا تتعداه و لم

(١) فتح الباري ١/١١٧ - ١١٨.

(٢) رواه أحمد ١/٢١٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٨٩.

يجعل لها سبيل الإدراك في كل مطلوب.^(١)

و يقول ابن خلدون:

العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور الآخرة، و حقيقة النبوة، و مثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال. و هذا لا يدل أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عند حده ولا يتعدي طوره حتى يكون له أن يحيط بالله و بصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه.^(٢)

و إن الأمن الفكري كما يحتاج إلى ضبط المتشددين والغلاة من المتدينين كذلك يتطلب الأمر إلى وضع الحد لتطرف العلمانيين والوجوديين والحدائيين فان نزعة العقلانية الزائدة تؤدي إلى التشكيك في النصوص الثابتة و تأويلها تأويلاً لا يرضى بها قائلها. و هناك ميزان دقيق لوضع الأمور في حدودها و قد أبدع في إيضاحها الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه موافقة "صريح المعقول بصحيح المنقول" أو درأ تعارض العقل والنقل، فالعقل هو أساس التكليف في الإنسان فلا تكليف على مجنون فقد

(١) الاعتصام ٣١٨/٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص: ٣٦٤ - ٣٦٥.

عقله، ولا صبي لم يكتمل عقله، لكن الوحي هو أساس العلم وإن ما جاء به القرآن الكريم هو تنزيل من حكيم حميد الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا شأن للعقل من إنكار ما جاء به الوحي وما ثبت من الدين بالضرورة.

لقد أضرت "الفلسفة اليونانية" في الإلهيات المسلمين كثيرا لأنها فتحت بابا واسعا للجدال في الغيبيات و كانت مصداق:
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} (الحج: ٨)

و ان ترجمتها إلى اللغة العربية في عصر الخليفة العباسي "المأمون" أشعلت معارك عقدية بين المعتزلة و أهل السنة، كما عمقت الخلافات بين الطوائف المنحرفة من القدرية والجبرية والجهمية والمرجئة والكرامية إضافة إلى الشيعة والخوارج.

و كان هذا الأثر مقدرا من أعداء الإسلام فمن القصص المعروفة أن المأمون حينما طلب تلك الكتب من ملك الروم فرفض و بعد إصراره استشار الكاهن المسئول عن المكتبة فحبذ الفكرة و شجع الملك على إرسال الكتب إلى خليفة المسلمين قائلا:

"ما تدخل هذه الكتب في أمة إلا و تفسد عقيدتها"

و قد شوهد هذا التأثير عيانا في المناقشات التي جرت بين

المتكلمين من الفرق المختلفة.

إن الإسلام دين العلم، ولا يمانع من الاستفادة من ثقافة أية أمة بل يعتبر "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها" لكن مجال العقيدة مصون بالوحي فلا مجال لترقيع العقيدة من أفكار أمم وثنية وغيرها.

إن الدين عند الله هو الإسلام و قد أكمله الله سبحانه على خاتم النبيين وضمن له الحفاظ من أي تغيير أو تبديل أو تحريف. إن الأديان السماوية السابقة كانت تحمل العقيدة الأساسية نفسها لكن أتباعها قد غيروا و بدلوا فلا مجال للاستقاء منها ولا جديد لديها يمكن الاستفادة منها.

إنما مجال الاستفادة من الأمم الأخرى هي علوم الطبيعة عموماً، والعلوم التجريبية والعلوم الصناعية الأخرى فلا حظر عنها في الشريعة الإسلامية ولا خير في التراث الروحي والإيماني والأخلاقي للأمم الأخرى فقد جاء الإسلام بما هو الأعلى والأفضل والأصلح والأوفق بالفطرة الإنسانية.

إن تحقيق "الأمن الفكري" يتطلب إقامة سياج أمني لتكوين جيل من خلال إعداد منهج تعليمي و تربوي ضامن لحمايته من الانزلاق الفكري أو الحركي و ذلك:

- بتأهيل الشباب تأهيلاً شرعياً يمكنه من التعامل مع النصوص الشرعية والترجيح بين الأدلة المتعارضة عن كفاءة.

ثم إن مصطلحات الجهاد، الموالاة، التكفير أصبحت مصطلحات ذات حساسية وخطورة لما وقع في شرحها من إفراط و تفريط فيجب إيجاد شرح دقيق و متوازن لهذه المصطلحات لا يلغي مكانتها في قلوب الناس ولا تقضي على أهميتها كما لا يجعلها أداة في أيدي الشباب الغر من المتدينين لإثارة الفتنة بين المسلمين و إزهاق أرواح الأبرياء من أبناءهم بدفعهم إلى معارك لم تتوفر فيها الشروط الشرعية اللازمة.

- إن المسلمين يتميزون بإيجاد علمين مهمين من بين العلوم الكثيرة التي أوجدوها لخدمة الكتاب والسنة وهما:

١- علم مصطلح الحديث

٢- علم أصول الفقه.

الأول منهما يعطي للإنسان المسلم الذي يمارسه و ينتفع به منهجاً عادلاً، و ميزاناً دقيقاً للتمييز بين المقبول و غير المقبول من العلم المأثور، فيجعل جميع ما يصله من أحاديث و آثار و أخبار على ذلك الميزان ليميز بين الصحيح والضعيف والمقبول و غير

المقبول منه.

ثم نظام تقسيم الأخبار والأحاديث إلى متواتر و آحاد و عزيز و غريب و صحيح و ضعيف يمكنه من وضع كل حديث في مكانه. أما "علم أصول الفقه" فيعطي ميزانا دقيقا آخر لفهم النصوص دون وكس ولا شطط و يعلمه طريقة تحقيق المناط، و تخريجه، و تنقيحه، والتفريق بين المفهوم والمنطوق، و بين ما هو الثابت بعبارة النص و إشارة النص، أو اقتضاء النص.

فإذا أخضع الإنسان ما لديه من معلومات شرعية لهذين العلمين و ما فيهما من ضوابط لقبول النص و فهمه فلا يقع في الإفراط والتفريط في الأفكار الدينية والمفاهيم الشرعية بإذن الله. أما المنهجية في إيضاح الحقائق، و بناء العقول السليمة في التعامل مع الآخرين فيحتاج الأمر إلى:

- إزالة التوحش لدى البعض من التعامل مع غير المسلمين في شئون الحياة و ذلك ببيان أن المشاركة مع غير المسلمين في الأمور التجارية والمعاملات المالية من البيع والشراء والإيجار والرهن أمر مباح و شائع و مأثور منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يمنع من التعامل إلا ما هو محرم مثل التعامل بالربا والمخدرات والخمر و لحم الخنزير و ما

شابه ذلك.

أما الضابط العام للتعامل مع غير المسلمين وبيان حدوده فهو ما أوضحه بعض الفقهاء المحققين وعلماء الدين الأعلام بدقة وبراعة. يقول الإمام العلامة الفقيه الشيخ أشرف على التهانوي رحمه الله كما نقل عنه العلامة المحدث الشيخ ظفر أحمد العثماني رحمه الله في أحكام القرآن:

المعاملة مع الكفار على ثلاثة أنحاء:

أحدها: الموالاة أي المودة.

والثاني: المداراة أي إظهار حسن الخلق لهم.

والثالث: المواساة أي إيصال النفع إليهم بإعطاء المال ونحوه.

أما الموالاة: فلا تجوز إطلاقاً وهي المنهي عنها بقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض} المائدة: ٥١ وبقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} الممتحنة: ١.

أما المداراة فتجوز في مواضع ثلاثة: الأول لدفع الضرر والثاني لمصلحة الكافر في دينه أي إذا رجا هدايته للإسلام بالمداراة والثالث لإكرامه إذا كان ضيفاً من الوجهاء.

ولا تجوز لمصلحة نفسه من جلب مال أو جاه ونحو ذلك

لاسيما إذا احتملت الإفضاء إلى الضرر في الدين والمراد بالموالاة في قوله تعالى: { لا تتخذ المؤمنون الكافرين أولياء } هي المداراة ولذا استثنى منها حال دفع الضرر بقوله: { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين } آل عمران: ٢٨ وأما في غيره من الآيات فالموالاة على حقيقتها ولذا لم يستثنى منه شيء.

ودليل جواز المداراة لمصلحة دين الكافر قوله تعالى في سورة عبس: { فأنت له تصدى } ومحل الإنكار إنما هو تقديم الكافر على المؤمن لا مجرد مداراته والتصدي له ودليل جوازها لإكرام الضيف ما ورد في وفد بني ثقيف انه صلى الله عليه وسلم أنزلهم في المسجد.

ودليل حرمتها لمصلحة نفسه من جلب مال أو جاه قوله تعالى: "أيتغون عندهم العزة؟"

وأما المواساة فلا تجوز لأهل الحرب وتجوز لغيرهم من أهل الذمة ومن هو مثلهم صرح به في سورة الممتحنة بقوله: { ولا ينهاكم الله } إلى قوله { هم الظالمون } وعبر هناك عن المواساة بالتولى مجازا وقرينة هذا الجواز { أن تبروهم وتقسطوا إليهم } وإنما تجوز المداراة إذا غلب على الظن وقوعه. وأما مجرد التوهم فلا عبرة به وهو محل الإنكار في قوله تعالى { نخشى أن تصيبنا دائرة } المائدة: ٥٢ وهذا هو

حكم المداراة مع الفساق وأهل الأهواء ونحوهم.^(١)

أما الاستعانة بغير المسلمين فقد:

- استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بصفوان بن أمية وهو مشرك يوم حنين.
- واستعان بيهود بني قينقاع وجعل لهم نصيباً من الغنيمة.
- واستعان برجل من خزاعة ليكون عيناً على قريش.

من أجل ذلك يرى الحنفية والشافعية وابن عبد البر من المالكية والحنابلة في الرأي الآخر عندهم الاستعانة بغير المسلمين بشروط معينة وقد حالف الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود يوم دخل المدينة. ومدح المشاركة في حلف الفضول ودخل في حوار المطعم بن عدى حين عودته من الطائف وهذا يدل على جواز التحالف مع الكفار وإعطاء التمثيل للكافر في المجالس النيابية وغيرها إذا كان في صالح المسلمين.

بين الدين والسياسة:

- إن "السياسة" من الدين و لكن "الدين" كله لا يقتصر على "السياسة" فيجب إيضاح هذه الحقيقة حتى لا يقع

(١) أحكام القرآن للتهانوي ١٥/٣ - ١٦.

الشباب في أخطاء وقع فيها بعض المفكرين الإسلاميين و
زعماء الحركات الدينية فأدى تركيزهم على الجانب
السياسي إلى عكس القضية في تحديد مهمة الأنبياء والرسل
عليهم الصلاة والسلام حيث يقول السيد أبو الأعلى
المودودي مثلاً:

"فغاية مهمتهم في الدنيا إقامة الحكومة الإلهية وتنفيذ نظام الحياة
بجميع أجزائه كما جاءوا به من عند الله، وهذه هي الغاية التي فرض
الإسلام من أجلها العبادات: الصلاة والزكاة والصوم، والحج،
والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة وحدها بل معنى ذلك
أنها تعد الإنسان لتلك العبادة: (إقامة الحكومة الإلهية) فكأنها
مقررات تدريبيه لازمة لها.^(١)

فهنا يلاحظ بعض الناقدين من أهل العلم بأن الوسيلة تحولت
إلى الغاية والغاية أصبحت وسيلة.

يقول العلامة سليمان الندوي الذي يعتبر الحكم في الإسلام أعظم
نعمة من الله بعد الوحي والشرائع دون أن يذكر إسم المودودي:
"لا يوجد حرف واحد في سائر تعاليم الإسلام يدل على أن
قيام الحكومة هو الهدف الأساسي لهذه الدعوة وإن العقائد

(١) خطبات مودودي نقلاً عن حوار بين الدعاة الأعلام ص: ٤٣ / أحمد محمد جمال.

والأعمال والشرائع والأحكام والحقوق والواجبات كلها تمهيد لتحقيق هذا الهدف^١ بل الصحيح الثابت ان الشرائع والحقوق والواجبات هي الغاية وقيام الحكومة الصالحة ضمان لاستمرار هذه الأمور وسهولة أدائها وعدم ضياعها فالحكومة مطلوبة في الدين عرضا لهذا السبب"^(١)

ومما لا شك فيه أن المودودي في تحديد مفاهيم المصطلحات الأربعة للقرآن الكريم قد وقع في بعض المبالغات بسبب الظروف السياسية التي عاش فيها ومشاهدته لإهمال جانب من الدين من قبل الدعاة وعامة الناس وشقاء المسلمين تحت نير الاستعمار الأجنبي لكافة أقطار العالم الإسلامي ومن هنا جاء توسعه في النقد ومثاليته الزائدة في تصور الحكم الإسلامي وتحديد خصائص الدولة الإسلامية بحيث لا تكاد تتوفر في أي عصر من العصور وحتى الخلافة الراشدة لا تبقى كاملة المعالم حسب مقاييسه ويتجلى ذلك واضحا في كتابه "الخلافة والملكية" والذي أثار ضجة كبيرة كما أن هذا الاتجاه دفع البعض إلى تتبع مظاهر الجاهلية في حياة أبي بكر وعمر وغيرهما من الراشدين.^(٢)

(١) السيرة النبوية ٤٧/٧.

(٢) الإسلام والجاهلية لصدر الدين الإصلاحي.

كما أن هذه المثالية دفعته إلى الحكم بفشل كافة المجددين ورجال الدعوة والإصلاح والتصور بأن منصب المجدد الكامل مازال شاغرا. والواقع أنه لو أخذ النجاح في إقامة الحكومة الإلهية مقياسا لفوز الدعاة ونجاح الدعوة فسوف يؤدي ذلك إلى القول بفشل معظم الأنبياء والرسل أيضا في مهمتهم - والعياذ بالله - ولم يقصد المودودي ذلك بالتأكيد غير أن المثالية في تصور الحكم وجعل قيام الحكومة الفعلية مقياسا للنجاح يضمن نتائج خطيرة وقد يرجع الحكم على مسيرة الجماعة الإسلامية نفسها بأنها لم تنجح في تحقيق مهمتها مع أن الواقع يشهد بأن الجماعة لم تال جهداً في أداء دورها.

"حاكمية الإله" في التكوين والتشريع حقيقة لا ينكرها مؤمن و إن تطبيق الشريعة الإسلامية فريضة على الناس غير أن الإيمان بهذا المبدأ لا يعني الإصرار على نفي السلطة من البشر فيما لا صلة له بالدين وقصة الخليفة الراشد على بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج حينما رفعوا شعار "لا حكم إلا لله" معروفة حيث رد عليهم بقوله "كلمة حق أريد بها الباطل" و السيد المودودي نفسه يقرر "خلافة الجمهور" ويرى أن الأغلبية من الناس هي التي تقوم بانتخاب رئيس الدولة الإسلامية وعزله.^(١) إذن لا يبقى للإصرار

(١) الخطأ في التعبير لوحيد الدين خان.

على نفي السلطة من الشعب معنى ويصير الخلاف اصطلاحيا فقط
لا فاصلا بين الإيمان والكفر كما يشعر ظاهر كلامه.

ومن ناحية ثانية قد طغى التركيز على صفة الحاكمية لله
سبحانه على صفاته الأخرى وأسمائه الحسنى ولا شك أن هذا نوع
من المغالاة جاء لدى المودودي بسبب حماسه الشديد لإقامة
"الحكومة الإلهية" وظهرت آثاره في أماكن من تفسيره وكتاباته.^(١)

و هذا الطرح الفكري قد أثر في العديد من المفكرين العرب
من زعماء الحركات الإسلامية كما أثر في توجيه بعض الشباب
إلى أن لا همّ لهم غير استعادة المجد السياسي والاحتكاك الدائم مع
السلطات القائمة و ما نتج عنه من مآسي لا يحتاج إلى بيان.
و في ضوء ما سبق تعين أن من أسباب الخلل في جانب
"الأمن الفكري":

— الشحن العاطفي للجيل الصاعد مع فقد أو ضعف
التأصيل الشرعي.

— تأثر الناس من برامج وأنشطة الحركات السياسية غير
المأصلة تأصيلا شرعيا صحيحاً.

— عدم وضوح الرؤية حول مفهوم الجهاد، والولاء

(١) تفسير سورة يوسف و سورة الشورى من تفهيم القرآن مثلاً.

والبراء وعدم التميز بين الموالاة والمداراة والمؤاساة لدى
كثير من الدعاة والمفكرين.

- _____ ثقافة الأخذ بظاهر النصوص من غير الالتفات إلى
ضوابط فهم النصوص لدى سلف الأمة.
- و من أجل بناء سياق "الأمن الفكري" و حماية البلاد والعباد
من الفتن والكوارث المتلاحقة ينبغي اتخاذ الخطوات التالية:
- _____ إعداد برامج تربوية لإعداد جيل محصن من الانفعالات
غير المنضبطة والتأثيرات الخارجية.
- _____ إعداد الفقه الوقائي أو (فقه الحالات الخاصة) للتعامل
مع الأوضاع العالمية الراهنة.
- _____ بيان الأحكام الشرعية في شناعة قتل الأنفس و إثارة
الفتن في المجتمعات الآمنة.
- هذه وغيرها من التدابير الواقية سوف تساعد بإذن الله في
نشر ثقافة "الأمن الفكري" والله ولي التوفيق،،،

حوار مع أتباع الفلسفات الوضعية

مقدمة:

من الواضح للعيان أن "الفلسفات الوضعية" فشلت فشلاً ذريعاً في إسعاد البشرية، فكلما أرادت تلك الأفكار حل مشكلة فكرية، أو اقتصادية أو اجتماعية؛ تعقدت تلك المشكلة، وتحولت من حالة إلى ظاهرة، ومن ظاهرة إلى أزمة، وكلما أريد علاجها اتسع الخرق على الراقع، وبدأ المجتمع الإنساني يئن منها. والسبب في ذلك أنها جعلت التفكير الإنساني وحده أساساً لحل كافة مشكلات الحياة الإنسانية المادية والروحية، واستغنت عن الوحي الإلهي تماماً، أو مالت إلى ممارسات وطقوس تراكمت عبر القرون بسبب الجهل والخضوع أمام مظاهر الكائنات. ومن المعلوم أن الإنسان لا يملك عقلاً محضاً، بل إنه يحمل أيضاً من العواطف والأهواء ما يدفعه إلى الخير حيناً وإلى الشر في أحيان كثيرة، ولا يتصور "عقل محض" غير خاضع أو متأثر من الأهواء أو الظروف والأوضاع. إن "النبوة" وراء طور العقل والتفكير، فالحقائق التي يعجز

العقل عن إدراكها تأتي النبوة لتثبتها وتحققها ، من أجل ذلك ربط الله سبحانه وتعالى إرشاد البشرية بالأنبياء، فأرسل الرسل وأنزل الكتب من السماء.

إن العقل نعمة عظيمة وجوهرة نفيسة، وفيه سر تكليف الإنسان؛ لكنه غير كاف لإرشاد الإنسان إلى مصالحه في الدارين وفي كتاب "نقد العقل الخالص" (Critique Of Pure Reason) للفيلسوف الألماني إمانوئل كانت (Emanuel Kant) الذي نشره عام ١٧٨١م أكبر دليل على ذلك، وكان الكتاب قد أحدث ضجة كبيرة في الأوساط العلمية وهزة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية، وقيل عنه: إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها، أضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرته.^(١)

يقول كانت (Kant): "إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعوي، ويعتمد على صحة مقدماته ومفروضاته وطاقاته، ويكون على ثقة بأنه حلّ جميع المسائل ووصل إلى كنه الكون. ثم يأتي عليه زمان يتجلى فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب، ولا تسمو إلى الأفلاك، ثم تبدأ فترة

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٨/٢.

الارتياح والتشكيك.

لذا يجب علينا البحث في عقولنا، وإدراكنا، وماهية علمنا، ونوعيته، حتى نكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها؛ وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها". (١)

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (Kant) هو أول من انتقد العقل الإنساني واستبعد وجود "العقل المحض" بل قد سبقه علماء المسلمين الاعلام في نقد العقل المحض يقول العلامة المؤرخ ابن خلدون موضحاً حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقائق: "فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك؛ فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ؛ بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فيطمع أن يزن به الجبال، هذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق، ولكن العقل قد يقف

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص: ٣٠ - ٣١.

عنده، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه - وتفتن في هذا لغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك".

ويقول الفيلسوف ابن سينا معترفاً بعجز العقل الإنساني عن إدراك بعض الحقائق:

"أما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان؛ لأنه ليس على نسبة واحدة" وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله إليها.^(١)

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: "فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين".

فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم

(١) نقلاً عن ابن خلدون ص: ٤٥٧.

لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفي بالعلوم العقلية استضر بها ؛ كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه. ^(١)

كما يقول الشيخ الإمام أحمد السرهندي رحمه الله في رسائله: "إن العقل لا تزال علاقته بالجسم العنصري ، ولا يجد إلى التجرد الكامل أو التحرر المطلق سبيلاً، فإن القوة الوهمية تمسك بزمامه، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه، وقوة الغضب والشهوة كالظل المرافق له، وخصال الحرص والطمع الذميمة لصيقة به، وإن السهو والنسيان من لوازم الإنسان، والخطأ والغلط من خصائص البشر، ولا يزولان عن العقل، فليس العقل إذا جديراً بالثقة والاعتماد، وليس أحكامه ونتائجه متحررة من قيود الوهم، والتصرف والخيال، وليست مصونة من اختلاط السهو والنسيان... لذا تبقى العلوم المحصلة من تصرفات العقل وحده موضع شك فلا يمكن الثقة بها والركون إليها". ^(٢)

(١) العقل والنقل ١١٢.

(٢) الرسالة رقم ٢٦٦.

يولد الإنسان فارغ الذهن صافي القلب من غير أن يحمل معه شيئاً من العلم: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}. (النحل: ٧٨)

فهو يخرج من بطن أمه ومعه أدوات التلقي ونوافذ استقبال المعلومات: السمع والبصر والفؤاد؛ إضافة إلى حواس الشم، والذوق، واللمس. أما العقل فهو جهاز لاقط ومتصرف فيما يتلقاه من معلومات، فبعد ما يكتمل نمو العقل يقوم بترتيب أمور معلومة توصل إلى أمور مجهولة.

و إن دماغ الإنسان مزود بأجهزة الحفظ والتخزين للمعلومات، كما أن له الأعوان من قوة الوهم والتخيل، وليس العقل مترفعاً نزيهاً في التفكير، بل كما سبق يخضع للعواطف وما يحمل الإنسان من مطامع وإهداء.

ثم إن العقل مثل طاقات السمع والبصر إدراكه محدود، فليس بإمكانه أن يعي ويخوض في الأمور الغيبية ويحيطها علماً من أجل ذلك يحتاج الإنسان إلى موجه خارجي غير خاضع للأهواء والأطماع.

"فالوحي الإلهي" صمام الأمان بالنسبة للإنسان لوضع الحد

على الشخصية والمطامع الذاتية".

فإن العقل الإنساني إذا لم يكن خاضعاً لوحي سماوي ويكون تابعاً للهوى؛ فيورد الإنسان في المهالك يبرر له كل تصرف سيء ويزين له كل الجرائم والمعاصي.

فلا يشك أحد يحمل قلباً راشداً وعقلاً واعياً في أن حادث إلقاء القنبلة الذرية على المدنيين اليابانيين تشكل جريمة حصدت أرواح مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، وقد استنكر الجميع هذا الواقع؛ لكن محرر دائرة المعارف البريطانية يبرر هذه العملية ويقول: إن هذا الحادث أنقذ حياة أكثر عشرة ملايين من الناس الذين كانوا سوف يقتلون في حالة استمرار الحرب الدائرة بين الفرقاء.

هكذا العقل يبدع في تحويل الجرائم إلى البطولات، والمنكرات إلى المسلمات، فقبل مئات السنين دعا أحد زعماء القرامطة المدعو/ عبيد الله بن حسن القيرواني أتباعه إلى الزواج مع البنات والأخوات؛ معللاً أنه من غير المعقول أن يقدم الإنسان أختاً جميلة إلى رجل أجنبي ويأتي في بيته بامرأة أجنبية أقل جمالاً منها، فإذا كانت الأخت بإمكانها أن تسعد أخاها في تقديم الطعام والشراب، فلم لا تصلح أن تكون زوجاً له؟!

فعلى جميع الأتباع أن يتزوجوا أخواتهم ، ولا يأتوا في
بيوتهم بنساء أجنبيات من غير العائلة، فقد حث الناس على الزواج
مع المحرمات الأبدية ، وقدم لها تبريراً عقلياً مع أن الأمر مستكره
طبعاً يرفضه الإنسان فطرة.

ومن المعلوم للجميع أن البرلمان البريطاني أقر القانون الخاص
بالشذوذ الجنسي وبزواج الرجل بالرجل مع التصفيق من الوزراء
والنواب، كما يوجد في الغرب نوادي ومنظمات تدافع عن
الشذوذ الجنسي.

وكثير من الوزراء والنواب، يتفاخرون بارتكابهم هذه
الرديلة مع أن جميعهم يحملون العقول، وبعض منهم مبدعون في
مجال اختصاصاتهم العلمية والفنية.

إذا لابد من قانون سماوي يرشد العقول وتهدى وتهدب
النفوس ويفك عقول الناس من أسر المطامع والشهوات.

أما "الفلسفات الوضعية" أو الديانات غير السماوية، فهي
ملينة بالأوهام ممزوجة بالأساطير، فيها ما يتنافى مع الشرع الإلهي
ويناقض العقل والنقل والفطرة جميعاً؛ ومع ذلك هناك ملايين من
البشر يدينون بها ويتبعونها، وتحدث لهم مشاكل مع أهل الديانات
السماوية؛ فالحاجة قائمة بل ماسة للحوار معهم وحثهم على

احترام النفس الإنسانية وعدم الحيلولة دون وصول الإنسان إلى الحق والصدق.

ليس المراد "بالفلسفات الوضعية" هنا المذاهب الفكرية والفلسفية الحديثة مثل الوجودية والعلمانية والفوضوية والإنسانية وما شابه ذلك كما يتبادر إليه الذهن، بل المقصود منها تلك الديانات غير السماوية التي اخترعها الإنسان والتزم بها كالترام أهل الديانات السماوية، وهي في الواقع مجموعة أفكار فلسفية وأساطير خرافية وطقوس وممارسات دينية مألوفة منها.

هذه "الفلسفات الوضعية" هي مثل الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية والشتوية والطاوية وغيرها.

ويبلغ عدد البوذيين والهندوس معاً ما يقارب مليارين من الناس في كل من الصين والهند، واليابان والكوريتين بالإضافة إلى سري لنكا والدول الأخرى الصغيرة المجاورة لها.

وإن أي برنامج للحوار الدولي بين الأمم والشعوب لا يمكن إنجاحه بصرف النظر عن هذا العدد الهائل من البشر، فمن الطبيعي أن تدرس هذه الفلسفات الوضعية أو الديانات غير السماوية، وتبحث نقاط الإيجاب والسلب في تعاليمها وفي المعتقدات التي يؤمن بها أتباع هذه الفلسفات والديانات؛ خاصة

هناك احتكاك مباشر للأقليات المسلمة التي تعيش في ظل هيمنة الهندوسية أو البوذية.

كما أن تقارب المسافات بين البلاد والأمصار وظهور الأدوات الحديثة للاتصالات والمعلومات قربت كل الشعوب بعضها ببعض، وأوجدت مصالح مشتركة بين الدول الإسلامية والبلاد التي يدين معظم أفراد سكانها بتلك الديانات والفلسفات. إن الحوار مع أهل الديانات السماوية وكذلك مع أتباع الفلسفات الوضعية مطلب شرعي؛ سواء كان بهدف إيصال الخير والصدق إلى الناس، أو من أجل إيصال الناس إلى الحق والصدق؛ خاصة في وقت أصبح العالم فيه على صفيح ساخن يهدد العالم بنشوب حرب تأتي على الأخضر واليابس، فتكون كارثة مدمرة للإنسانية جمعاء.

والمسلمون هم أولى الناس بالمبادرة إلى حوار شامل لإنقاذ الإنسانية مما تعاني منه، وإظهار ما لديهم من مبادئ ومثل وعقائد وآداب لأن الناس في أمس الحاجة إليها.

إن شعار عقد الحوار مع كافة الأمم والشعوب الذي طرحه خادم الحرمين الشريفين خطوة جريئة ومبادرة عظيمة تعود بالنفع على الأمة ثم على الإنسانية جمعاء، وذلك لما في الحوار

المتبادل من تأثير في نزع فتيل الصراعات والاشتباكات بين الأفراد والجماعات.

إن حب الخالق فطرة جُبل عليها الإنسان، وإن نزعة التدين وظاهرة الالتزام قديمة قَدَم الإنسان نفسه، ففي فترات التاريخ التي طال فيها الأمد ولم يبق فيها التزام بالهدى والكتاب المنير؛ مال الإنسان إلى اختراع الديانات والمعتقدات بنفسه واحتالت الشياطين البشر فصنع بعضهم آلهة لسدّ الفراغ الروحي، واخترعوا فلسفات ومعتقدات أضحت ديانات وتفرعت عنها فرق وطوائف، ودونت لها الصحائف والكتب، وأصبغت عليها القدسية وخضعت لها النفوس، وصنعت لها الهياكل والتمائيل، وبنيت لها الصوامع والمعابد.

وهناك فرق واضح ودقيق بين الأديان التي لها مرجعية دينية سماوية مثل الإسلام والمسيحية واليهودية... وبين المعتقدات أو الفلسفات التي اخترعها الإنسان من أجل سد الفراغ الروحي في حالة غياب الأديان الصحيحة أو عدم الثقة في السائد منها؛ لأسباب دينية وبيئية حيناً؛ ونفسية وعنصرية حيناً آخر.

فالديانات السماوية مصدرها الوحي والنبوة، أما المعتقدات أو الفلسفات الوضعية فمصدرها اجتهادات بشرية عقلية، وما

تراكم عبر القرون الغابرة من عادات شعبية وتقاليد وقصص وأساطير سيطرت على أذهان الناس. ومن هذه المعتقدات أو الفلسفات الوضعية: الهندوسية والبوذية والجينية والطاوية، وغيرها المنتشرة في ربوع الهند والصين واليابان وما جاورها من بلاد. فالبوذية والهندوسية هما الأساس، ولهما الغلبة، فأعداد أتباعهما تفوق أعداد المنتمين إلى الديانات السماوية، أما الفلسفات والمعتقدات الأخرى السائدة في الشرقين الأدنى والأقصى فتتفرع عنهما أو ترجع إليها، وقد انقرض بعض منها، وما زال كثير منها منتشراً بين الشعوب.

هذه الفلسفات هي الهندوسية والبوذية والسيخية والكنفوشيوسية (في الصين تحديداً) والشتو (في اليابان تحديداً) والجينية (في الهند تحديداً) والطاوية (في الصين أيضاً) من المعتقدات أو الفلسفات الوضعية التي نحتاج إلى التحوار مع أتباعها وإيصال الخير إليها والبحث عن أسس التعايش معها من غير الإقرار أو التأييد للمبادئ التي تتكون منها والمعتقدات التي تؤمن بها.

وكانت الهند منذ أقدم العصور مسرحاً للغزوات ونزوح أعداد كبيرة من الطورانيين والآريين إليها والاستقرار فيها، يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: إن سكان الهند فقد أخذوا

عن الطورانيين نسب أجسامهم وأشكال وجودهم، وعن الآريين أخذوا اللغة والدين والقوانين والسجايا والطبائع.^(١)

وقد فقد سكان الهند الأصليون المعروفون بالدراورد هويتهم الدينية والعقدية وشخصيتهم الاجتماعية والفكرية أمام الزحف المتتالي للآريين والطورانيين وغيرهم.

وإن التمازج بين الطورانيين والآريين هو الذي ولّد نظام الطبقات بين سكان الهند الأصليين المغلوبين وبين الوافدين المهيمين من الآريين والطورانيين، فتشكل من الآريين طبقة رجال الدين البراهمة (Brahman) وطبقة المحاريين (Kastria) ومن الطورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vasya) أما السكان الأصليون فقد تحولوا إلى الخدم والعبيد أو طبقة الشودر (Sudra) والمنبوذين. تكونت الفلسفة الهندوسية من عبادة القوى والمظاهر الطبيعية، فاختار الأوائل آلهة منها ومن الحيوانات والعناصر الطبيعية مثل النار والهواء والعواصف والشمس وغيرها.

فمنذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإلى القرن الثامن قبل الميلاد كان قد انتشر بين الهندوس فكرة الإله "فارونا" (Varama) الذي ينظم تنظيم القوى الطبيعية، والإله "ياما" (Yama) إله الموت،

(١) الحضارة الهندية: ١٠٤.

والإله "اندر" (Indar) المتخصص في الحروب والعواصف. فالفيدا الكتاب الهندوسي المقدس تتضمن الأناشيد والتراتيم التي تقس الشمس والنار والعواصف كما يوجد فيه ذكر الأفاعي والأبقار والقروود وغيرها ضمن الآلهة.

ثم جمع بعض الكهنة آلهتهم في "براهما" كموجد والخالق للعالم و"فيشنو" كالمدير والمنظم للأمور الكونية، و"شيفا" كالذي يملك قوة الإهلاك والتدمير.

ويتضمن الأوبنيشاد (Upanshad) التراث الفلسفي الهندوسي حول "الإله" و"الروح" و"براهما" وكان "شنكر" هو الذي قدم تصور الروح المطلق أو الواحد الأوحد وأطلق مثل هذه الأوصاف عمل "براهما" بأنه فوق جميع الآلهة.

إن مجموعة "الفيدا والأبنشد والبورانانا" هي الكتب المقدسة في الفلسفة الهندوسية تعتمد عليها أساساً الديانة الهندوسية المنتشرة على رقعة كبيرة من العالم، ويمكن أن تضاف إليها مجموعة برهمان جرانت"، وهي في الواقع شرح وتفسير "الفيدا".

ويعتبر "رجفيدا" و"يجرفيدا" و"سام فيدا" من أقدم الكتب ألقت في أدوار ثلاثة يصعب تحديدها، ويوجد اختلاف كبير بين تقدير العلماء الهندوس والمستشرقين الغربيين عن زمن تأليف هذه

الكتب، وحدد البعض نحو أربعة آلاف سنة. كما يوجد اختلاف كبير في تحديد أماكن بعثة "الرشى" أو "النبي" الذي أوحيت إليه تلك الكتب. وتعتبر مجموعة "الفيدا" أكثر الكتب استناداً وأصالة، وهي القاعدة الأساسية للديانة الهندوسية أو الفلسفة الوضعية التي يتبعها الهندوس يتلوها في المكانة "الأبنيشد" وبعض المحققين الهندوس يرجحونه على "الفيدا" أيضاً. كما أن البوراننا" يعتبر أكثر الكتب تداولاً وقبولاً بين الناس، وهو سهل الأسلوب واضح المنهج؛ على عكس الفيدا فإن فيها صعوبة وتعقيداً. يتضمن "البوراننا" تاريخ خلق الكون والقبائل الآرية كما يتضمن أيضاً حياة وتراجم العلماء الربانيين فيها وقد قسم "فياس" هذه الكتب في ١٨ جزءاً. ومعنى كلمة "الفيدا": المعرفة" أو الحكمة"، تشمل "رجفيدا" على ١٠٢٨ بيت شعر، و"سام فيدا" على ٥٨٥ شعراً. وفي "يجرفيدا" ترانيم خاصة تتلى وقت تقديم "القرايين إلى الآلهة. وفي "أهرفيدا" أدعية وابتهاالات وعلاج السحر وبيان تأثير

القوى الشريرة.

ومما يبعث على العجب أن بعض الدارسين قد جمعوا
مجموعة كبيرة من النبوات عن بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-
وأوصافه وشمائله من "أقرفيدا" ومن "البوراننا" وغيرهما من الكتب
المقدسة لدى الهندوس.^(١)

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل أن الأديان ترجع إلى
أصل واحد ومهما حصل التغير في الكتب المقدسة القديمة فما
زالت آثار الصدق باقية في بعض آياتها وتشريحاتها.

فإن صح ذلك فهو برهان جديد على صدق محمد -صلى
الله عليه وسلم- وعلى كونه خاتم النبيين ورسول رب العالمين.
وهذا الأمر يثير تساؤلات من جديد حول ما يسمى بالفلسفة
الهندوسية" هل كانت في الأصل هي ديانة سماوية دخلها التغيير
والتبديل على مرور الزمان؟ وهل ظاهرة عبادة الأصنام دخيلة
أوجدها المحرفون كما فعل عمرو بن لحي في البلاد العربية بتغيير

(١) انظر على سبيل المثال "النبي العربي في كتب الهنادك المقدسة" لعبد الرحمن
الجيري وكتب ورسائل لشمس نويد عثمانى وإمام الدين رام نكري والشيخ
ثناء الله الأمرتسري والشيخ إبراهيم السيلكوتي وغيرهم و إن كان يرى
آخرون أن هذه المبشرات موضوعة ولم يشر إليها البيروني وهو من أقدم
الدارسين للديانات الهندية. والله أعلم

ملة إبراهيم عليه السلام وإدخال الوثنية في التعاليم الهندوسية؟
يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾
وجرت سنة لله سبحانه أن لا يعذب أمة حتى يبعث فيهم رسولاً،
فهل من المعقول أن هذا العدد الهائل من البشر المنتشر من الهند
إلى الصين وما جاورها من البلاد لم يبعث فيهم رسول ولم يأت
إليهم نبي؟!!

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن أحد علماء الهند
المعروفين بالعلم والذكاء وهو العلامة الكبير الشيخ مناظر أحسن
الكيلائي رحمه الله كان يرى أن "ذا الكفل" المذكور في القرآن
الكريم قد يكون هو "بوذا" الذي ولد في كبل وستو" وأنه ربما
كان نبياً، ثم حرّف أتباعه تعاليمه بعد مرور الزمن، علماً أن
المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود من "ذي الكفل" ولم يقدموا
مستنداً قوياً على ما ذهبوا إليه بأن المراد من ذي الكفل هو إلياس
عليه السلام لاحتمال أن يكون غيره.

هذا الرأى شبيه بما ذكره الإمام ابن حزم الظاهري عن
"زرادشت" حيث يقول:

أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته وليست
النبوة بمدفوعة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن صحت

عنه معجزة. (١)

الفلسفات والمعتقدات الوضعية:

يوجد في شرق آسيا عدد هائل من البشر، فالصين هي الأولى من ناحية عدد السكان، تأتي بعدها الهند، فهذان البلدان يتجاوز عدد سكانهما معا مليارين نسمة.

ورغم وجود الإسلام والمسيحية وغيرهما من الديانات في تلك المنطقة فما زالت الكثرة الكاثرة من سكان الصين والهند والبلاد المجاورة لها مثل كوريا واليابان وغيرهما تعتنق الديانة البوذية والهندوسية بالإضافة إلى الشنتوية، والطاوية والكونفو شيسية إلى جانب السيخية والمهاريشية، وهذه فلسفات أساساً قبل أن تكون ديانات.

وإن القدر المشترك في تلك الديانات أو الفلسفات الوضعية ممارسات وطقوس تراكمت منذ مئات القرون، فهي على اختلاف طرقها وأساليبها تقدر المظاهر الطبيعية.

وها هي بعض تلك الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تسود شرق آسيا وجنوبها.

(١) الفصل في الملل والنحل ص ٦١.

ونظراً إلى تشابه الطقوس والممارسات بينها لا تمكن التمايز الحقيقي بينها:

البوذية:

وهي المنتشرة في اليابان والصين والهند وكوريا وكمبوديا وسيلان وغيرها من البلاد.

تقاليد البوذيين وطقوسهم شبيهة بتقاليد الهندوس، كما أن عبادة الأصنام وعقيدة تناسخ الأرواح مشتركة بين الديانتين؛ مع فارق ضئيل، وهو أن البوذيين لا يضعون في معابدهم غير تمثال بوذا، أما الهندوس فهم يعبدون كل صنم، وتكثر التماثيل في معابدهم، ويأتي ذكر بعض خصائص البوذيين ضمن الحديث عن الهندوسية.

الهندوسية:

قام المستشرق الفرنسي الشهير "غوستاف لوبون" بدراسة أديان الهند، وألف كتابه المعروف عن "حضارة الهند" يلخص فيه معتقدات الهندوس في النقاط التالية:

(١) عبادة القوى الطبيعية (٢) تشخيص هذه القوى بأسماء الآلهة (٣) اعتقاد خلود الروح (٤) عبادة الأجداد (٥) تقديم

القرايين إلى الآلهة وتخصيص بعض منها للمطر، وآخر للصحة، وإله آخر للمال، كما أن الاعتقاد بتناسخ الأرواح من عقائد الهندوس عموماً.

تبنى الفلسفة الهندوسية على النظام الطبقي والتفرقة العنصرية بين أجناس البشر وتوجد الإشارة إلى هذه الحقيقة في "فيدا" الكتاب المقدس لدى الهندوس.

كما أن "شرائع منو" المعروف "ممنو شاستر" تقرر ذلك وتحدد الطبقات في النظام الاجتماعي الهندوسي.

و هذه الطبقات البشرية في الفلسفة الهندوسية الوضعية كالتالي:

(١) البراهمة: (وهم طبقة الكهان ورجال الدين وهي أعلى الطبقات).

(٢) الأكشرية: (طبقة المحاربين وعليهم الدفاع عن البراهمة وتوفير الأمن في المجتمع).

(٣) الفيشية: (وهم طبقة الزراعة والتجار، عليهم توفير وسائل العيش للبراهمة والمحاربين).

(٤) الشودرا: (وهم أسفل الطبقات، ويسمون بالمتبوذين أيضاً ليس لهم أي حق ويجب عليهم أن يخدموا الطبقات العليا،

وهم أنجاس مناكيد في الفكر الهندوسي ليس لهم أن يقرءوا الكتب الدينية أو يشربوا من نفس الكوب الذي يشرب منه البراهمة.

و يعلل المشرّعون لهذه الفلسفة المبنية على العنصرية والفوارق الطبقية قائلين: إن الرب المولى حينما أراد أن يتكاثر الجنس البشري فخلق من فمه: البراهمة، ومن ذراعه: الأكشيرية، ومن فخذه: الفيشية، ومن رجله: الشودر أو المنبوذين، فالدرجات متفاوتة وفق خلق الرب لتلك المجموعات البشرية.

والمسئوليات أيضاً موزعة، فالرب عندهم هو الذي حدد الأعمال والمسئوليات، لكل من تلك الطبقات حسب درجات تلك الفئات.

فعهد إلى البراهمة دراسة الكتب المقدسة والأسفار المعروفة بالفيديا، وتعليمها وتقديم القرابين إلى الإله وقبول العطايا من الفئات الأخرى.

و فرض على الأكشيرية حماية الشعب والتضحية في الدفاع عن البراهمة وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات. و خص الفيشية، بتربية المواشي وأداء الزكاة وتقديم التضحيات في سبيل إسعاد الطبقات العليا إلى جانب ممارسة الأعمال التجارية والأنشطة الاقتصادية.

أما "الشودر" فأوجب عليهم أن يخدموا تلك الطبقات العليا وخاصة البراهمة وأن يعيشوا حياة الذل طوعاً أو كرهاً. إن الفلسفة الهندوسية قائمة على تقديس المظاهر الطبيعية المختلفة وعبادة كل شيء يضر أو ينفع من الأبقار والثعابين والقروء وغيرها لاعتقاد الهندوس بأنها تمثل قدرات وصفات الآلهة المختلفة من أجل ذلك كثرت لدى الهندوس الأصنام والتماثيل، فالمعابد الهندوسية تغص بملايين الأشكال من التماثيل والأصنام والأشكال الغريبة والموحشة.

يقول الدكتور رادها كرشنن رئيس الجمهورية الهندية الأسبق وأحد فلاسفة الديانة الهندوسية الأبرز مفتخراً على انتمائه الديني: "إن من سعة وسماحة الديانة الهندوسية أن من يعبد ألف إله من شجر وحجر هو هندوسي، ومن لا يعبد شيئاً يبقى أيضاً هندوسياً، ولا يخرج من دائرة الهندوسية الواسعة والفضفاضة بسبب ترك بعض العقائد أو التقصير في العبادة والعمل".

وقد مال بعض المنظرين الهندوس إلى اختصار الطريق وتقليل عدد الآلهة، وذلك بتحديد الآلهة الأساسيين وهم ثلاثة:

(١) الإله شيفا (Shiva)

(٢) الإله الفيشنو (Vishnu)

(٣) الإله براهما.

فالأول هو إله الحياة والتغير في الكون أما الثاني فهو الحافظ
لنظام الكون أما الخالق البارئ فهو "براهما" وهو فوق الآلهة جميعاً.
علماً أن عامة الناس لا يفرقون بين إله وإله ويشركون بها
جميعاً وينسبون إلى كل منها أنواعاً معينة من الكمالات وإن كان
بعض المثقفين من الهندوس يصرحون أحياناً بأن الله هو واحد وهو
الذي حل في باقي الآلهة وهو برهما أو رب الأرباب.

الجينية:

ومن الفلسفات الوضعية ذات صبغة دينية أيضاً ما يسمى
"بالجينية" وهي في الواقع حركة عقلية حاولت التحرر من سلطان
الديانة الهندوسية وهي تعتمد في نظامها التطبيقي على الرياضات
الشاقة والمراقبات المتعبة وطريقها الرهبانية لكن غير رهبانية البراهمة.
فالجينيون يرون أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم
لهذا الكون وأن أرواح الإنسان والحيوانات كلها خالدة وتجري
عليها التناسخ.

وهو دين مسالم أو فلسفة تبالغ في البعد عن العنف وتكره
حتى قتل الهوام والحشرات الصغيرة.

رفض الجينيون آلهة الهندوس (برهما، فيشنو، وشيفا) ولكن جعلوا القديسين أو الجيناوات الأربع والعشرين أنفسهم آلهة تعبد. فلا صلاة عند الجينيين ولا قرايين للآلهة، ولا يقرون بالطبقات بين أجناس البشر وقد قسم "بارسواناث" أحد أبرز الكهنة الجينيين إلى الخاصة وهم الرهبان، والعامة وهم الذين يؤيدون النظام.

يؤمن الجينيون بالتناسخ، كما يؤمنون بالحسنة والسيئة، والنجاة في الفلسفة الجينية هي في التخلص من قيود الحياة، وإن السبيل إلى النجاة شاق وعسير ولا بد للنجاة من قهر جميع المشاعر والعواطف، ومن غرائب الأمور أن الجينيين لا يرون بأساً العرى أمام الناس كما يؤيدون الانتحار أيضاً للتخلص من مشاكل الحياة. و قيل في خلاصة الفلسفة الجينية اليواقيت الثلاثة:

الياقوتة الأولى: الاعتقاد الصحيح.

الياقوتة الثانية: العلم الصحيح.

الياقوتة الثالثة: الخلق الصحيح.

ولا شك أن هذه حكم مفيدة وآداب لطيفة إذا تم تطبيقها في الواقع العملي، ويصف الجينيون رائدهم الديني "مهاوير" المولود في ٥٩٩ ق م بأوصاف الكمال فيقولون:

إنه كان حرّاً كالطير، جسوراً كالفيل، قويا كالثور، مهيباً كالأسد، ثابتاً كالجبل، عميقاً كالبحر، وديعاً كالقمر بهياً كالشمس طاهراً كالإبريز وذلك لأنه كان قد مارس الرياضة الروحية والجسدية الشاقة طوال ١٢ عاماً.

يغلب على التفكير الهندوسي الميل إلى تعدد الآلهة، بل قد بلغ التعدد عند الهندوس إلى درجة أنهم يعبدون الماء والنار والأشجار والجبال وكل شجر وحجر أو جماد وبقر وإن كان تاريخ الفلسفة الهندوسية لا يخلو من فكرة التوحيد فيطلقون على الخالق الحقيقي رب الأرباب وإله الآلهة لكنهم لا يترددون في عبادة الأصنام وتقديم القرابين للآلهة.

أما الجينيون فإن كانوا قد رفضوا في بداية الأمر تصور الإله أو وجود روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون وذلك بسبب سوء تصرف الكهنة الهندوس والذي ألجأهم إلى إيجاد فلسفة جديدة لكنهم في نهاية الأمر جعلوا "مهاوير" إلهاً بل بدؤوا يعبدون الكهنة الأربعة والعشرين المعروفين بالجيناوات.

أما الأدب المأثور عن بوذا فيكاد يخلو من ذكر الإله إثباتاً أو نفياً بل كان يمنع أصحابه من الخوض في اللاهوت أو البحث عما وراء الطبيعة مع ذلك أصبح بوذا هو الإله لدى أتباعه فيعبدون

تمثاله ويسجدون أمامه.

ومن الكتب المقدسة لدى الهندوس إلى جانب "فيدا":

١- مها بهارتا (Maha Bharta)

٢- كيتا (Gita)

٣- يوجا واسستها (Yoga vesisthe)

٤- رامائنا (Ramayana)

تتكون الفلسفة الوضعية الهندوسية بمزيج من العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في سكان الهند الأصليين وما جلبه إليها التورانيون والغزاة الآريون وما تراكمت خلال القرون الطويلة من الأساطير.

ومن معتقدات الهندوس الإيمان بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح وإقرار بنظام الطبقات وتقديم القرابين إلى الأصنام. ويعتبر خروج "بوذا" و"مهاوير" من الديانة الهندوسية وإعداد فلسفة جديدة ونشر معتقدات مختلفة عن الهندوسية يعتبر ضربة قاضية على الهندوسية إلا أنها بسبب كثرة عدد أتباعها وانطواء أهل الهند على أنفسهم وابتعادهم حضارياً عن العالم الخارجي خفف آثار الانشقاق وساعد في استمرارها كمذهب غالبية عدد السكان.

الكنفوشيوسية:

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة تخضع الصين لثلاث ديانات
أو فلسفات أساسية هي:

١. الكنفوشيوسية

٢. الطاوية

٣. البوذية

دخلت البوذية عن طريق تركستان إلى الصين وانتشرت في
الجماهير بينما ظلت الطبقة الاستقرائية من رجال الحكم وغيرهم
ملتزمة بالكنفوشيوسية فكان تقام الطقوس والمراسيم وطريقة تقديم
القرابين إلى الآلهة وفق فلسفة الكنفوشيوس.

(Kong-Foutsu) أو الكنفوشيوس ولد في ٥٥١ قبل الميلاد
ومات في ٤٧٩ قبل الميلاد وظل الصينيون يتناقلون تعليماته الأصلية
جيلاً بعد جيل إلى أن قرر حاكم مملكة "هان" أن يتولى
الكنفوشيوسيون مقاليد الحكم فأصبحت الفلسفة الكنفوشية دين
الدولة.

وهناك نحو تسعة كتب تعتبر من المقدسات في الفلسفة
الكنفوشيوسية منها:

١. لي ، جي

٢. التعليقات على كتاب "الإلاجي" أو "التغيرات" وفيها أبحاث عن ما وراء الطبيعات.
٣. كتاب الشى - جج" وهي عبارة عن بيان حقيقة الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة.
٤. "التشوجج" أو كتاب التاريخ فيه حكايات عن طبائع الملوك.
٥. التشوسيتو أو حوليات الربيع والخريف.
تضاف إليها الكتب الأربعة الأخرى وهي:
 ١. "لون - يو" الأحاديث والأحداث
 ٢. "الدشوة" التعليم الأكبر وهو كتاب طريف يقال ألفه حفيد الكنفوشيوس.
 ٣. "جونج يونج" أو عقيدة الوسط
 ٤. "مفنييس" وفيه خروج عن المعهود في آراء الكنفوشيوس من تقديس الآراء القدماء.

الطاوية:

كلمة طاو (Tao) قبل كنفوشيوس كانت تستخدم بمعنى الطريق أو أسلوب العمل واستخدمها الكنفوشيوس بمعنى الطريق

الصحيح للعمل أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً ولم يعط لهذا اللفظ أي بعد ميتاخربي ومؤسس الفلسفة الطاوية هو لاوتسي " أي العلم القديم.

وقد التقى كنفوشيوس بلاوتسي " في نزعه الأخير وقال لتلاميذه بعد عودته:

إني أعرف كيف يطير الطير، ويسبح السمك، ويجري الحيوان، لكن الذي يجري على الأرض يمكن اقتناصه، والذي يسبح في الماء يمكن صيده، والذي يطير في الجو يمكن إصابته بالسهم.

غير أن هناك تيناً مهولاً ولست أستطيع أن أجده مثيلاً غير التين.^(١)

ومن كتب الطاوية: طاوتي كنج أي كتاب الطريقة والفضيلة " وهو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الطاوية.

وكتاب من جزأين في الطاو والطاوية يشتمل على خمسة آلاف كلمة، ولما أتمه اختفى ولا أحد يدري أين مات.

والكتاب الثالث المقدس هو "جوانج تسو".

ومع التناقضات والاختلافات الكثيرة في الكتب المقدسة أو

(١) قصة الحضارة ٣٠/٤.

مراجع الفلسفات البوذية والهندوسية والطاوية والجينية والسيخية وغيرها توجد هناك نصوص وبنود يمكن أن تكون نواة لإيجاد ميثاق التعاون بين الشعوب أو محاور للحوار الموسع مع كافة الشعوب وإيجاد أرضية مشتركة للتعايش بسلام مع الاختلاف في المعتقدات والفلسفات.

فالكنفوشيوس الفيلسوف الصيني الكبير يقدم فكرة "الإنسان النبيل" أو الإنسان الكامل، وإن الأخلاق الفاضلة التي يدعو إليها هدفها إحلال السلام وتأمين السعادة لأكبر عدد من الناس فإنه كان دائماً يربط بين الأخلاق والسياسة لما بينهما من علاقة جوهرية وقد ركز الكنفوشيوس في تعاليمه على إصلاح الحكومة، يقول رداً على سؤال أحد الأشخاص:

"توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً، والوزير وزيراً، والأب أباً، والابن ابناً" كذلك تلاميذه مثل منشيسوس "وهسون تسو" وغيرهما ركز على الإصلاح الاجتماعي والسياسي والابتعاد عن مسائل المنطق وفلسفة المعرفة والميتافيزيقيا.^(١)

يعتبر الكنفوشيوس لدى الصينيين مثل سقراط لدى

(١) انظر: قصة الحضارة لويل دورانت، الأديان الجيه لأديب صعب، المعتقدات الشعوب.

اليونانيين.

ومنشويوس. ممثلة أفلاطون ويشبهون "هسون تسو"
بأرسطو.

وكان اهتمام الثلاثة بإصلاح الحكم، والإصلاح
الاجتماعي والزراعي والاقتصادي.
والفلسفة الطاوية أيضاً تدعو إلى نبذ الحرب والسلاح
ليعيش الإنسان حياة مثالية.^(١)

ويرى مؤسس الطاوية أن أية حياة يحياها المرء بصورة
تلقائية فهي حياة سعيدة لا تنغصها المنازعات والحروب لأنه لا
وجود للرجبة في الخصام والقتال وعندما لا توجد هذه الرغبة فإن
أحداً لن يفكر بالقتال والحرب ويعم السكون والسلام.

ومن أقوال لاوتسي " (المعلم القديم):

إذا لم تقا تل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع
أن يقاتلك وألن الأشياء في العالم هو الماء لا شيء ألن وأضعف
من الماء ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة
القوية.^(٢)

(١) الأديان الحية/٧٧.

(٢) قصة الديانات/٢١٧.

وتؤكد الفلسفة البوذية أيضاً: أن الشر هو القتل، والسرقة،
والفجور، والكذب والاعتياب، والثروة، والحسد، والحقْد،
والإيمان بعقائد باطلة وأما جذور هذه الشرور هي الشهوة والبغض
والوهم.

ويدعو بوذاً إلى عدم القيام بأعمال شريرة وعدم ارتكاب
خطايا ومن خطايا الجسد عنده: القتل والسرقة والزنى.
وقد جاء في الوصايا العشرة المعروفة بوصايا السنغاها: لا
تقتل، لا تسرق، لا تزني، لا تكذب الخ.

وفي القرن الحادي عشر ظهر كتاب باسم أساس الدين^(١)
لراهب بوذي يطرح السؤال التالي:

لماذا التصادم بين "بوذا" و"لاوتسي" و"كنفوشيوس"
وثلاثتهم بشروا بالعقيدة نفسها يجب إذا احترامهم.^(٢)

وهناك ظاهرة ملفته للنظر في المعابد والهياكل البوذية في
الصين إذ يرى دائماً تمثال بوذاً يحيط به من اليمين تمثال
كنفوشيوس، ومن اليسار تمثال "لاوتسي" مؤسس الطاوية. وهذا
دليل تقدير الجميع أتباعهم مع اختلاف فلسفة كل واحد منهم.

(١) إنجيل بوذا/١١٠.

(٢) البوذية هذه ارفون/١٠٠.

ومن الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تنتشر في اليابان
"الشتو" ومن الكتب المقدسة لدى أتباعها: كوجيكي
ونيهونجي وانجيشكي".

وأهم معابد الشنتوية معبد "ايزى" (Ise) يقع على بعد
٣٠٠ كيلو من طوكيو تؤدي فيه طقوس العبادة لإله الشمس.
فلسفة الشنتو تدعو إلى التفاؤل والعيش ببساطة والكشف عن
العيوب الشخصية قبل عيوب الآخرين وترغب في الهدوء والسلام.
وهناك ديانة "زن" (Zin) وهي في الواقع امتداد للبوذية ولها
طقوس خاصة.

السيخية:

مؤسس الديانة السيخية أو فلسفة السيخ هو غرو نانك
(Gourou Nanak) ولد في بيئة هندوسية وبيت وثني وعاش في مناخ
إسلامي وتأثر ببعض أهل التصوف من المسلمين واختار نهجاً
جديداً للحياة الدينية وفلسفة جديدة لتزكية الروح.
فكان يؤمن بإله واحد ليس له مثل ولا شبهه وعلمه محيط
لكل شئ.

ولد غرونك (Gourou Nanak) في عام ١٤٦٩ ومات في
١٥٣٩ رافق أثناء حياته الوظيفية بعض المنشدين المسلمين واختفى

عن الأنظار فترة ثم ظهر ينادي بأنه صاحب رسالة ومبعوث إلى المسلمين والهندوس جميعاً وتتلخص دعوته في ثلاث قواعد هي:

١- الكد والعناء.

٢- الإحسان مع الآخرين.

٣- التأمل والتفكير.

تعاقب على زعامة الشيخ تسعة أشخاص بعد وفاته ويلقب كل منهم "بغورو" أو "المعلم" و"الشيخ" معناه "المتعلم" أو "المريد".

وفي عهد الغورو الخامس أرجن (Arjun) تم بناء المعبد الذهبي في أمرتسر بولاية بنجاب.

في عصر الغورو العاشر غوبند سينغ تم إنشاء منظمة "الخالصة" ولقب الشيخ بـ (Singh) (الأسد).

والتزم الاتباع حياة الزهد والتقشف والامتناع عن شرب الخمر والتدخين وأكل لحم الخنزير.

و"غرنت صاحب" هو كتاب الشيخ المقدس، وتختلف الفلسفة السيخية عن "الهندوسية" فهي في تصورهما للإله قريبة من مفاهيم الإسلام أكثر ميلاً إلى التوحيد وتحتوي كتابهم المقدس على خليط من المفاهيم الإسلامية وغير الإسلامية وهو عبارة عن

٦٠٠٠ ترنيمه الغورو الخمسة الأوائل.

و شعارات السيخ الخمسة تبدأ بحرف الكاف وبها يتميز
السيخ عن غيرهم وهي:

١- الكيس (Kesh) الشعر يطيله السيخي المنتمى إلى
الخالصة.

٢- المشط (Kangha) يحمله كل سيخي لترتيب شعره.

٣- الكشة (Kaccha) سروال قصير شبه بشورت عسكري.

٤- الكرا (Kara) سوار من الحديد يضعه السيخي في
معصم يده.

٥- الكربان (Kirpan) خنجر يحمله السيخي.

و من لم يلتزم بالكافات الخمسة يعتبر خارجا عن الملّة،
مرتداً، ويقتصر عبادة السيخ على قراءة الكتاب المقدس والسجود
أمامه وتقديم القرابين له.

و يقوم السيخ أيضاً بحرق جثمان الميت وإلقاء الرماد في نهر
"كنكا" المقدس كما هو المعهود لدى الهندوس.

لا توجد في أدبيات السيخ أو كتابهم المقدس ما يدفع
الإنسان إلى العنف وأناشيد الكتاب المقدس تشمل على وصايا
أخلاقية، وإن كانت هناك ثارات وذكريات مؤلمة مع المسلمين فقد

قام السيخ بذبح وحرقت مئآت الآلاف من المسلمين أثناء رحلة عذاب المسلمين إلى باكستان في عام ١٩٤٧م. وبعد اقتحام الجيش المعبد الذهبي للسيخ واغتيال رئيسة وزراء الهند الأسبق وما أعقب ذلك من أحداث دامية عادت الأمور إلى الطبيعة وأصبح السيخ يتعاطفون مع المسلمين. وهناك ترانيم وأناشيد في كتاب السيخ المقدس فيه مدح لمحمد صلى الله عليه وسلم.

نماذج من بنود إيجابية في الفلسفات الوضعية:

في كتاب الهندوس المقدس (Gita) جاء ضمن تعليمات كرشنا: "إن الناسك الحق هو الذي لا ييغض أحداً، ولا يشتهي شيئاً ولا يرى غير الحق، ويجري وراء واجبه دائماً... ويرى جميع الأرواح كروحه ولا يفرق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجه الله وحده".

و في الأصول السبعة لأتباع الفلسفة الجينية:

- ١- أخذ العهود والمواثيق مع القادة الرهبان لأن يتمسك المرید بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السيئ.
- ٢- والتقوى هي المحافظة على الورع والاحتياط في الأقوال والأعمال وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب الأذى والضرر لأي كان مهما كان حقيراً.

وفي تعاليم بوذا تصريح:

بأن الاحترام للحياة إنسانية كانت أو حيوانية هي من أهم الأخلاق البوذية فليس لبوذي أن يقتل حيوانا في لهو كالصيد، أو في جد كذبجه للأكل بل عليه أن يرفق بالحيوان، ويعده أخاه في الخلق، ولا يراه خلقاً أدنى منه لأن الهدوء الروحي والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا.

والحبة الشاملة من أهم وأفضل الأعمال الحسنة وان الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل الحبة التي تحرر القلب من شوائب الشر..... ويجب على الإنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق.

فإذا كانت هذه هي تعليمات ومبادئ "البوذية" و"الهندوسية" و"الجينية" على حد سواء فمن المستغرب حقا أن يعتدي بوذي أو هندوسي على إنسان مسلم، وإذا كان قتل الحشرات والهوام جريمة ومعصية في الفلسفة الجينية فحياة الإنسان ولو كان مسلماً - أحق وأحرى أن يحافظ عليها.

تعامل الملوك المسلمين مع غير المسلمين:

غالبية سكان الهند هندوس و بوذيون مع أن المسلمين

حكموا الهند نحو ثمانية قرون و تركوا في ثقافتها أثراً غائراً و ملأوا ربوعها بمعالم حضارية مثل "تاج محل" و "القلعة الحمراء" و مئات من المساجد الملكية الفخمة^١ و مازال المسلمون يعيشون كأقلية بين نحو مليار نسمة من غير المسلمين و هذا أكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف و ان الحكام المسلمين لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام أو ترك عبادة الأوثان.

يقول غاندي وهو أكبر زعيم هندوسي بلا منازع:
"إن الإسلام هو صوت الحق، ووقتما كان الغرب في ظلمات الجهل طلع على أفق الشرق نور الإسلام كنجم ساطع^٢
لقد جاء الإسلام ليوفر السكينة في قلوب الإنسان المضطربة والقلقة في العالم، إن الإسلام ليس ديناً كاذباً^٣ وقد أصبحت لدى قناعة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف".^(١)

و "يقول رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو في كتابه "من السجن إلى الرئاسة:

"لقد ترك الإسلام بصمة واضحة في ثقافة الهند^٤ فقد علم المسلمون أهل الهند أساليب الأكل واللباس وقضى الإسلام على عديد من التقاليد الوحشية السائدة في الهند مثل "ستي" (إحراق

(١) جريدة هندو - لاهور ، عدد ١٩٣٨/٥/٢٢ .

زوجة الميت بعد وفاة زوجها) كما ترك المسلمون معالم حضارية عديدة".

ويقول:

"إن أثر الغزاة من الشمال الغربي و من الإسلام على الهند كان عظيماً فقد كانت لفكرة الاخاء الإسلامية و للمساواة النظرية بين المسلمين سحرها الكبير' وخاصة عند الطبقات الهندوسية المحرومة من أيما نظير لهذه المعاملة المتكافئة.

ومن هذا الأثر الايديولوجي نشأت حركات مختلفة تهدف إلى عملية صهر وتأليف ديني و دخل كثيرون في الإسلام".(١)
لقد تعامل المسلمون الذين فتحوا بلاد الهندوس والبوذيين بمنتهى الرفق وكمال العدل وغاية السماحة والمداراة مع الرعايا البوذيين والهندوس وأتباع كافة الفلسفات الوضعية والمعتقدات الدينية' تشهد الوثائق التاريخية بأن الحكام المسلمين على اختلاف أصولهم العربية والتورانية والمغولية أعطوا رعاياهم من غير المسلمين كامل حقوقهم' وحریتهم الدينية' فلم يهدموا معابدهم بل خصصوا لها أراضي واقطاعات بمراسيم ملكية.
حتى إن أكثر الملوك التزاماً بتعاليم الدين الحنيف والذي

(١) من السجن إلى الرئاسة ص ١٦٤.

يروج عنه أنه كان شديداً مع غير المسلمين قد أعطى عشرات من المعابد الهندوسية أراضي واقطاعات.

يقول البرفيسور "سري رام شرما" وهو من الهندوس في كتابه المعروف "الإمبراطورية المغولية في الهند":
"لم أجد أي وثيقة تثبت أن الإمبراطور "بابر" قام بهدم أي معبد هندوسي ولا دليل على أنه آذى أي هندوسي من أجل أنه هندوسي".^(١)

ويقول مؤلف هندوسي آخر وهو "كالكارنجن قانون كو":
"إن الحاكم المسلم "شير شاه سوري" قد أقام نظاماً عادلاً للحكم و وفر للهندوس فرصة حقيقية للانتعاش الاقتصادي والسياسي^٢ إنه حاول أن يؤسس وحدة قومية ووطنية بين المسلمين وغيرهم".

وقد نقل مؤلف كتاب دعوة الإسلام السيد/ تي، دبليو،
آرنلد أن الملك الأورنك زيب عالمكير- الذي يتهمه أعداءه بالعصبية:-

كان قد رفض أن يطرد اثنين من موظفي البلاط لكونهما
مخوسيين^٣ يعبدان النار، وقال أن الوظائف تمنح بناء على الكفاءة

(١) الإمبراطورية المغولية في الهند ٥٥.

وليس لاعتبارات أخرى".

ويقول أحد الأساتذة الهندوس وهو السر G.P. رائتي:

"إن عصر أورنك زيب تميز بمنح الهندوس مناصب رفيعة واقطاعات و أراضي كثيرة.

لقد عهد أورنك زيب عالمكير إلى الهندوس منصب حاكم الولاية وقائد الجيش ونواب الحكومة حتى ان الشخص الذي أسند إليه منصب نائب السلطنة في ولاية أفغانستان كان أحد الهندوس من سلالة راجبوت".

وفي عام ١٩٣٦ كتب أحد كبار المفكرين الهندوس وهو الباندي سندر لال مقالا تحت عنوان: حكم الإنجليز في الهند يقارن فيه بين العصر الإسلامي والعصر الإنكليزي الاستعماري يقول فيه: "إن عصر الأباطرة المغول: أكبر وشاهجهان وعالمكير وآخرين كان التعامل فيه بالمساواة والعدل بين الهندوس والمسلمين من غير تمييز أو انحياز إلى فئة دون أخرى".

وهناك شواهد تاريخية ووثائق عديدة أن الملك المسلم أورنك زيب عالمكير كان قد أصدر مراسيم لمنح عديد من كهنة المعابد الهندوسية عطايا كما خصص اقطاعات وأراضي للمعابد نفسها. ومازالت بعض تلك المراسيم موجودة ومتوارثة فيمكن أن

يشاهد مرسومين من هذا النوع في "معبد سوميشورناث" بمدينة إله آباد لدى كهنة المعبد.

وكان عشرات من الهندوس يحظون بمناصب رفيعة في أجهزة السلطة.^(١)

بل كانت هذه سياسة مستحكمة لدى الحكام المسلمين عموماً من أجل إدارة أمور بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين وعملًا بمبدأ العدل بين الرعايا في الإسلام.

يوصي الامبراطور بابر ابنه همايون:

"يا بني إن أرض الهند ذات ديانات وملل كثيرة فأحمد الله على أنه أعطاك الملك وعليك أن تتعد عن كافة أنواع العصبية وأن تقيم العدل بين الناس، ويمكن نشر الإسلام بالعدل بين الناس وليس باستخدام السيف فحاول أن تجمع كافة أهل الديانات كما جمع الله سبحانه العناصر الأربعة في جسد الإنسان ليبقى الحكم مستقراً.^(٢) كذلك الحال كان مستمراً إلى الأيام الأخيرة من حكم المسلمين في الهند فالأمير الشجاع الشهم السلطان تيبو الشهيد الذي يتهمه بعض المغرضين بممارسة الظلم ضد بعض الفئات من

(١) مآثر الأمراء ٣٥/٢.

(٢) تقسيم الهند ص ٣٩.

غير المسلمين وإجبارهم على اعتناق الإسلام، يقول عنه المؤرخ الهندوسي رام سندري رائي:

"إنه لم يجبر أحداً بل إن خمسمائة شخص اعتنقوا الإسلام طواعية" وكان يوجد عديد من البراهمة في بلاطه على مناصب رفيعة' وكان يرسل هدايا إلى القائمين بشئون المعابد الهندوسية' و مازالت بعض الهدايا العينية منها موجودة في معبد "رنكنات" في "سري رنكابتنم".

ولم يقدم ببناء المسجد عند القصر حيث كان المعبد الهندوسي موجودا هناك منذ زمن بعيد إلا بعد الاستشارة مع الكهنة والتنسيق معهم تجنباً من وقوع الفتنة بين المسلمين والهندوس.

بين المناظرة والحوار:

كان الاستعمار البريطاني بدأ بسط سيطرته تدريجياً على الهند من خلال شركة الهند الشرقية إلى أن امتلك ناصية أمور الدولة كاملة في عام ١٨٥٧م وقضى على حكم المسلمين المستمر منذ نحو ثمانية قرون.

ومع بداية الحكم الإنكليزي توافدت جموع من المبشرين النصارى وقامت بحملة شعواء ضد الإسلام وبدأ القساوسة بالتشكيك في القرآن وفي عقائد المسلمين فقام نخبة من العلماء

المسلمين بعد تلك الهجمات فألفوا الكتب' وألقوا المحاضرات' وخاضوا المناظرات وكان في طليعة هؤلاء العلماء الشيخ الإمام العلامة رحمة الله الكيرانوي مؤلف كتاب "إظهار الحق" الشهير الذي لم ينسج على منواله ومؤسس المدرسة "الصولتية" في مكة المكرمة ومساعدته الدكتور وزير خان والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفي سنة ١٢٩٧هـ ومؤسس "جامعة ديوبند الإسلامية" في الهند والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس "ندوة العلماء" بلكناؤ و "الجامعة الرحمانية" بمونجير' والشيخ عنايت رسول الجريا كوتي وآخرون.

ثم انضم الهندوس أيضاً إلى النصارى في الهجوم على معتقدات المسلمين واتخذت الاجتماعات المشتركة عنوان: "مهرجان معرفة الإله" (ميله خدا شناسي) يشارك فيه الجماهير من أتباع الديانات الثلاثة: الإسلام' المسيحية' الهندوسية. وكانت لهذه المهرجانات صدى واسع فقد كانت مناظرات شعبية يحاول فيها كل فريق إظهار تفوقه وبراعته على الآخرين.

وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي يتمتع بذكاء خارق' وقدرة نادرة على إقامة أدلة قوية وبراهين دامغة وكان نتيجة ذلك ظهور كتب مثل "مباحثة شاهجانفور" وانتصار الإسلام' وحجة

الإسلام' و"قبله نما" وهي تزخر بأدلة عقلية على اثبات التوحيد' و وجود الخالق وإثبات النبوة والرد على الإلحاد' والشرك، ودحض مفتريات الأعداء.

فكان شأن هؤلاء العلماء شأن الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: "الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح" والإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب "هداية الحيارى من اليهود والنصارى" مع اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأدلة والبرهان، وكان من أنجح المناظرين وأبرعهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي هزم القسيس "فندر" و سار على نهجه الشيخ أحمد حسن ديدات الذي هزم القسيس "سواغارت".

أما الحوار الذي تتطلبه الظروف الراهنة والذي دعا إليه خدام الحرمين الشريفين وتبنته رابطة العالم الإسلامي مشكورة فهو يختلف عن روح المناظرات الدينية وطبيعتها.

إن هدف الحوار هو صد الفتنة والحيلولة دون هجمة شرسة ومنع الإساءات المتكررة ضد الإسلام وضد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

وإن انقاذ ما يمكن انقاذه هدف نبيل وإن حث أتباع الديانات والفلسفات الوضعية على أن يجتمعوا حول طاولة الحوار

على اختلاف وتباين المعتقدات للبحث عن سبل التعايش الآمن
مطلوب شرعا وعقلا.

وإيجاد عالم يسود فيه السلام ويستطيع أن يعيش فيه
الإنسان من غير خوف من تفجير أو تدمير ومن قتل بغير حق أو
إرهاب، وإيجاد مجتمع إنساني يحرص كل فرد منه على إيصال الخير
إلى غيره ولا يشبه غابة موحشة يريد كل كائن منها افتراس من
تجده أمامه.

إن مثل هذا الحوار يهدف إلى دعوة الناس إلى السلام الذي
يدعو إليه الإسلام، والاتفاق مع أتباع الفلسفات الوضعية على
حفظ الأنفس والأعراض والتعاون على حفظ العقول والأديان
والأموال، وإن صيانة هذه الأشياء من الإعتداء عليها هي من
مقاصد الشريعة الإسلامية.

و من خلال الحوار مع أتباع الفلسفات الهندوسية والبوذية
يمكن تفنيد تلك الإشاعات المغرضة التي تم ترويجها بهدف توسيع
هوة الخلاف بين المسلمين والهندوس والبوذيين بأن الحكام
المسلمين مارسوا الظلم والتعسف ضد الهندوس فقاموا بقتل الرجال
وسبي النساء والأطفال وهدم المعابد والأصنام، وقد تسربت هذه
الإشاعات المغرضة إلى بعض كتب المناهج الدراسية ما يؤثر سلباً

على الجيل الجديد من الهندوس ويشير حفظيتهم ضد المسلمين مع أن الحقائق التاريخية تفند تلك الأكاذيب وأن المنصفين من المؤرخين غير المسلمين من أمثال البروفيسور "رام شرما" و "تارا شنذر" و "بي. إن باندي يؤكدون أن تعامل الحكام المسلمين مع الهندوس كان بمنتهى العدل طوال فترة حكم كلي أو جزئي للمسلمين منذ عصر محمد بن قاسم الثقفي ٧١١م إلى نهاية حكومة بهادر شاه ظفر آخر ملوك المسلمين في عام ١٨٥٧م ولم يتم إرغام أحد على قبول الإسلام لأن الإسلام لا يقر بذلك ولأن وجود الأكثرية الهندوسية حوالي دلهي ولكناؤ' وأحمد آباد وأكبر آباد وغيرها من العواصم أكبر دليل على ذلك.

كما أن المؤرخ الإنكليزي المعروف "سر تامس آرنلد" في كتابه دعوة الإسلام (Preaching Of Islam) يثبت ذلك بأدلة واضحة أن المسلمين لم يجبروا الهندوس على قبول الإسلام. لذا ينبغي أن يفتح باب الحوار وحول كافة النقاط الحساسة وفي ضوء المعلومات والوثائق الدقيقة وفي جو التفاهم بين المتحاورين.

ضرورة الحوار ومجالاته:

إن الحوار بين الحضارات وكذلك بين ممثلي الأديان

والمذاهب وأتباع الفلسفات الوضعية ضرورة إنسانية ملحة لأننا نعيش في عصر اشتد فيه الصراع بين الشعوب^١ وانتشر النزاع بين الأمم^٢ وتراجعت فيه القيم الإنسانية: العدل والصدق والمساواة^٣ مع أن هذا العصر قد تكاثرت فيه وسائل الإقتراب والاتصال وأصبح فيه العالم بمثابة قرية صغيرة وزادت فيه قدرات الإنسان على احتواء المسموعات والمرئيات والمنقولات عبر الأثير والمرسلات على جناح الشبكات العنكبوتية وكان من مقتضيات هذه الثورة الصناعية والمعلوماتية أن تسود في العالم مبادئ التعاون والتفاهم وظروف التصالح والتعايش.

إن الإسلام رسالة السماء ودين البشرية جمعاء و إن نبي الإسلام أرسل رحمة للعالمين وإن القرآن الكريم يحث على مبدأ الحوار بين أهل الديانات المختلفة ويدعوهم إلى كلمة سواء.

وإن الحوار مع أتباع الفلسفات الوضعية الذين يؤمنون بالهندوسية أو البوذية أو الجينية أو السيخية أو الكنفوشيوسية أو الطاوية أو الشنتو وغيرها ويتواجدون بكثافة في الهند والصين واليابان وغيرها يمكن أن يكون في مجالات عديدة فهناك تاريخ حافل بالتعاون مع اختلاف المعتقدات والأفكار أو الفلسفات.

إن الحوار يختلف عن "المناظرات" حيث أن المناظر يحرص

على أفحام الخصم بينما يكون المحاور حريصاً على اقناع من يجري معه الحوار وهو الأمثل في هذا العصر.

إن الذين يتبعون الفلسفات الوضعية مثل البوذية والهندوسية لا يستهان بعددهم فهم معظم سكان الهند والصين واليابان وبتأثيرهم في ما يشهده العالم من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة، فالصين بمبادئها الشيوعية وشعبها البوذي وكذلك اليابان بصناعاتها الفائقة مع تمسك شعبها بالبوذية عموماً من الدول العملاقة، والهند بتراتها وعدد سكانها وانتعاشها الاقتصادي من الدول الناهضة والمؤثرة لذا يجب البحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين ما يؤمن به شعوبها وبين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

فمن يجب التحوار معهم الزعماء وذوو النفوذ من الهندوس والبوذيين وغيرهم وذلك حول النقاط التالية:

- إمكانية التعايش الآمن مع أتباع الديانات الأخرى خاصة مع المسلمين.
- الاتفاق حول الآداب والأخلاق المتفق عليها بين كافة أهل الأديان والمذاهب ودعوة عامة الناس وجماهيرهم إليها.

- التركيز على المبادئ الإنسانية وإبراز قيمة حياة الإنسان حتى لا تهدر دماء الناس من أجل شجرة أو بقرة.
- التعاون مع كافة أهل الأديان في إسداء الخير إلى الإنسانية وفي مجالات إغاثة المنكوبين ومساعدة الملهوفين من خلال مؤسسات طبية واقتصادية خيرية مشتركة خاصة في الأزمات الكبيرة مثل الحروب والفيضانات والزلازل.
- التوقف عن الإساءة إلى المقدسات الدينية مثل القرآن، والرسول -صلى الله عليه وسلم- والكعبة المشرفة.
- تكوين اتحاد عالمي للديانات والفلسفات الوضعية من أجل مواجهة التيارات العلمانية، والإباحية الأخلاقية التي ترفضها الفطرة الإنسانية، وتستنكرها كافة الأديان والفلسفات ذات مصداقية.
- إبراز جوانب الرفق من تعاليم الأديان حفاظاً على السلام والمناخ الآمن من أجل التطور الإنساني والتنمية البشرية الشاملة.
- إيجاد أرضية مشتركة للتعاون بين أهل الملل المختلفة والتعاون بين أهل الديانات المختلفة من أجل تحقيق

السلام العالمي.

- وهناك حاجة إلى عقد لقاء مع زعماء البوذيين
والهندوس خارج الوطن العربي.

إن مواصلة الحوار مع أهل الأديان وأتباع الفلسفات
الوضعية سوف تفتح قلوباً غلفاً وتسمع آذاناً صماً وتبصر أعيناً
عمياً لقبول الحق والصدق بتوفيق من الله سبحانه وما ذلك على
الله بعزیز .

كشف المراجع:

- ١ تاريخ الإسلام في الهند د. عبد المنعم النمر
- ٢ أديان الهند الكبرى د. أحمد شبلي
- ٣ ثقافة الهند مجلة حكومية
- ٤ حضارة الهند غوستاف لوبون
- ٥ دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي
- ٦ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه عباس محمود العقاد
- ٧ بوذا الأكبر حامد عبد القادر
- ٨ الأدب الهندي المعاصر محي الدين الألوائي
- ٩ المعتقدات الدينية لدى الشعوب إمام عبد الفتاح إمام
- ١٠ فلسفة الهند القديمة عبد السلام الرامفوري
- ١١ تحقيق ما للهند من مقولة أبو الريحان البيروني
- ١٢ الأديان الحية أديب صعب
- ١٣ المقدمة ابن خلدون
- ١٤ الفكر الصيني ترجمه: عبد الحلیم سليم
- ١٥ البوذية هنرى ارقون
- ١٦ الديانات الوضعية الحية د. محمد العربي
- ١٧ العقل والنقل للعثماني

١٨	قصة الحضارة	ويل ديورنت
١٩	انجيل بوذا	ترجمة: سامي سليمان
٢٠	البوذية	هنري أرفن
٢١	سيرة السلطان تيبو	محمد إلياس بتكلي
٢٢	المنظرة الكبرى	رحمة الله الكيرانوي
٢٣	الهوة المتزائدة	د. رفيق زكريا
٢٤	دعوة الإسلام	البروفيسور آرنلد
و كتب أخرى ذات صلة بالموضوع.		

الحوار وأثره في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد:
لكل عصر معطياته وظروفه وهي التي تحدد لغته وأسلوبه في الخطاب، وتفرض منهجه في المناقشة والحوار ويتميز عصرنا الذي نعيش فيه بتطور وسائل التواصل والاتصال وتنوع طرق تبادل الأفكار، وتناقل الفلسفات والأيدولوجيات من ناحية، ووفرة المعلومات مع كثرة المشاكل والصراعات بين أهل المذاهب والديانات من ناحية أخرى تؤدي في كثير من الأحيان إلى نشوب حروب واشتباكات، فرغم أن العالم قد تحول اليوم إلى قرية صغيرة، تقلصت بين أقطاره المسافات، تسود أجواء التنافر والتناحر في معظم ربوع العالم.

إدراكا لهذه الحقيقة وإحساسا بخطورة الأمر جاءت مبادرة خادَم الحرمين الشريفين للحوار العالمي بين أتباع المذاهب وأهل الملل والديانات وقد لقيت هذه المبادرة ترحيبا على مستوى العالم، فبعد مؤتمر الحوار العالمي في مكة المكرمة الذي كان مؤتمرا تأسيسيا وتأصيليا، عقدت مؤتمرات عديدة في مدريد، ونيو يارك وعدد من

عواصم العالم.

وكان الهدف من هذه الخطوة المباركة نزع فتيل الصراع، وإيجاد مناخ التعايش والتقارب بين الأمم والشعوب المختلفة ليعيش الناس في هدوء وأمان.

ثم جاءت خطوة مكملية للمبادرة حول إجراء الحوار الداخلي بين أتباع المذاهب المختلفة حتى يعيش المسلمون بروح أمة واحدة واعية، من أجل بناء حضارة دينية وعلمية راشدة.

والحوار المطلوب بين فئات الأمة المختلفة هو الحوار الهادئ وبروح التكاتف والتعاون من أجل حماية جسد الأمة من أن ينهشه الآخرون، وأن ينخروا كيائها باستغلال ظاهرة التفكك بين أجزاء الأمة، وحالة التناحر بين أهل المذاهب الفقهية أو العقدية المختلفة. إن على المسلمين أن يعيشوا فيما بينهم كبنين مرصوص وأن يقوموا بواجب تبيان الحق أمام العالم لإبراز جوانب وعناصر الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وأن يدافعوا عنه بإزالة الشبهات التي تثار حول شخصيته أو تعاليم دينه.

إن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة بمركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية وحوار الحضارات،

خير محضن لمثل هذه المبادرة الكريمة وإن مشاركة كل من وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وجائزة الأمير نايف بن عبد العزيز للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ومركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني تعطي لهذا المؤتمر زخماً خاصاً وأهمية بالغة.

وقد حالف القائمين على تنظيم هذا المؤتمر الدولي التوفيق في اختيار العنوان: "الحوار وأثره في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم".

وأرجو أن هذا المؤتمر سوف يكون نقطة انطلاق في عرض الإسلام بأسلوب عصري بارع، وفتحة عهد جديد للنقاش والحوار في القضايا التي تكون موقع اختلاف بين الشعوب والأمم، أو بين المذاهب الإسلامية نفسها.

كما أرجو أن يساهم هذا المؤتمر في تحديد خارطة الطريق للدفاع المؤثر والقوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع خطوط عريضة لإبراز جوانب مشرقة حضارية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات براعة وفاعلية أحكام الدين الإسلامي في حل مشاكل الإنسانية، واستتباب الأمن في العالم، والقضاء على الجرائم التي ترتكب جهاراً ونهاراً وتوظف مكتسبات العلم

والتكنولوجيا لصالح الإنسانية بدل التسابق والتفنن في إيجاد أسلحة الدمار الشامل، وأدوات الفتك والإبادة التي تهلك الحرث والنسل حتى يكون العالم واحة عمل نافع مثمر وساحة تنمية وتطور وحياة مستقرة آمنة. **والله ولي التوفيق،،،**

- الدعوة بالحكمة

- الموعظة الحسنة

- المجادلة بالتي هي أحسن

هذه هي الطرق الثلاثة التي أشار إليها القرآن الكريم لإيصال الخير إلى الغير وإرشاد الآخرين إلى النهج الرشيد في الإيمان والعقيدة وفي الفكر والمنهج.

يقول الله عز وجل:

{أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: ١٢٥)

يقول الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور:

ومن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أن هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي وهي: البرهان، والخطابة، والجدل المعبر عنها في المنطق بالصناعات وهي المقبولة من الصناعات.

قال فخر الدين (يقصد الرازي):

الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد من أن تكون مبنية على حجة، والمقصود من ذكر الحجة، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب السامعين، وإما الزام الخصم وافحامه. أما القسم الأول فينقسم إلى قسمين لأن تلك الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية مبرأة من احتمال النقيض، وإما أن لا تكون كذلك بل تكون مفيدة ظنا ظاهرا وإقناعا فظهر انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

أولها: الحجة المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة.

وثانيها: الأمارات الظنية وهي الموعظة الحسنة.

وثالثها: الدلائل التي القصد منها افحام الخصم وذلك هو الجدل وهو على قسمين لأنه إما أن يكون مركبا من مقدمات مسلمة عند الجمهور وهو الجدل الواقع على الوجه الأحسن، وإما أن يكون مركبا من مقدمات باطلة يحاول قائلها ترويجها على المستمعين بالحيل الباطلة وهذا لا يليق بأهل الفضل^(١).

وما أجمل كلام الإمام القشيري رحمه الله:

"ينبغي أن يكون منك للخصم تبين، وفي خطابك تليين، وفي

(١) التحرير والتنوير ٣٣١/١٤، والتفسير الكبير للرازي ١٣٩/١٩.

قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصره - لما رآه صحيحا بالحجة -
وترك الميل إلى الشيء بالهوى" (١).

والمراد بالتي هي أحسن: أن يكون أطف وأرفق، وهي مقابلة
الحشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشغبة بالنصح، بأن تدعوه
إلى الله برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات من غير مغالبة ولا
قهر، كما يقول ابن عجيبة الحسني (٢).

ولما كانت عقول الناس متفاوتة، ومن نصوص الكتاب والسنة
ما هي حمالة أوجه، فالاختلاف سنة ربانية بين الناس، وإن انقسام
الناس في شعوب وقبائل للتعارف، واختلاف الناس في الألسنة
والألوان آية من آيات الرحمن في الخلق، يخلق ما يشاء.

أما اختلاف الناس في الديانات والملل والطوائف والفرق
والنحل فأمر اختياري يترتب عليه الأحكام التكليفية، فمنها ما هو
هدى خالص كما أن فيها ما هو ضلال مبين، وكانت بعثة الأنبياء
عليهم السلام من أجل إراءة الناس الطريق السوي ومن أجل
إخراجهم من الضلالة وطرق الانحراف والغواية إلى النور والهداية
ولكن بقاء كثير من الناس على الاختلاف في المعتقد والمنهج مع

(١) لطائف الإشارات ١٠٠/٣.

(٢) البحر المديد ٣١٧/٥.

وضوح الحق لا مناص منه.

يقول الله عز وجل:

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ،
إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} (هود: ١٨٨)

ومن المعلوم أن "البيان" من خصائص الإنسان، والإفصاح عما
يدور في خلده وما يحمله في رأسه من أفكار وآراء يتم عن طريق
البيان، وإن الكتابة أو الإشارة قد تأخذ مقام اللسان في إيضاح
مكنون الجنان في حالة العجز أو الاحتياج وإلا فالأصل هو كما
قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد ذكر الله سبحانه في سياق امتنانه:

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (الرحمن: ٣، ٤)

إن الإنسان يألف بالمكان الذي يعيش فيه، ويعتني عموماً
بالأفكار والأديان التي وجد عليها آباءه وأفراد عشيرته، ومنها ما
هو صحيح واضح البرهان وكما أن منها ما هو فاسد وواضح
البطلان، لذا يحتاج إلى الحوار أو المجادلة بإحسان، فالحوارة أو
المحاجة أو المجادلة بإحسان ظلت عبر التاريخ وسيلة ناجعة للوصول

إلى الحق الصريح، والدين الحق، والفكر الخالص غير المشوب لأن العقول السليمة تقتنع بالأدلة الصحيحة والقلوب الطاهرة تقبل الدين الحنيف.

إن القرآن الكريم قد منع من الجدل بغير علم يقول الله عز وجل: {هَآأَنْتُمْ هَؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَآ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَآ لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} (آل عمران: ٦٦)

ولكنه أمر الذين يحملون العلم ولديهم قدرة على الإقناع لمن لا يستجيب للموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل الله قائلا:

{وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: ١٢٥)

فمن هنا كان علم المناظرة من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتمييز الحق من الباطل، ووسيلة للتفريق بين الصحيح والسقيم، والمعوج من المستقيم، وما كان يعرف بالأمس "بالمناظرة" أخذ اليوم عنوان "الحوار" مع فارق كبير في اختيار الموضوع وأسلوب المحاورة وطريقة الإقناع.

وإن الحوار الهادف هو خير وسيلة لإقناع الآخرين بفكر أو عقيدة معينة بعيدا عن أساليب الإكراه واستخدام العنف.

كما إن الحوار هو السبيل الأمثل لتخفيف حدة التوتر بين فئتين متحاربتين ونزع فتيل الحروب والاشتباكات، وإصلاح

أوضاع البلاد والعباد، فالحوار قيمة حضارية يساعد في خلق جو آمن وبيئة صالحة للاستفادة والإفادة.

وقد قدم القرآن الكريم نماذج عديدة للحوار مع أهل الفكر الرافض والرأي المناقض، كما قدم أنواعا من الحوار مع آدم، مع الملائكة، مع الأنبياء عليهم السلام، مع إبليس وبين هُذَـهُدٍ وسليمان ولكل حوار أسلوب خاص وسياق معين وقد ورد في القرآن الكريم نصا:

{فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} (الكهف: ٣٤)

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} (الكهف: ٣٧)

{وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} (المجادلة: ١)

فالحوار أصل ثابت وقيمة من القيم الحضارية والمطلوب شرعا هو أن يكون الحوار بأقوم الأساليب وأحسن الطرق عملا بقوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: ١٢٥).

وأن يسود الحوار جو العدل والإنصاف، وأن يكون بين المتحاورين الاحترام المتبادل والاستعداد لقبول الحق والرفق واللين في استخدام الكلمات وإيراد الحجج والأدلة.

تطبيقا لما دعا إليه الله سبحانه موسى وهارون عليهما السلام: {إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى {

وقوله تعالى:

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ

عِلْمٍ} (الأنعام: ١٠٨)

وقوله تعالى:

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا، إِعْدِلُوا هُوَ

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} (المائدة: ٨)

فالحوار نافع والمناظرة مطلوبة يقول العلامة ابن خلدون:

"إن التعليم الصحيح يكون في النطق والمفاوضة وفتح اللسان

بالمحاورة والمناظرة".

ويقول الزرنوجي:

"إن قضاء ساعة واحدة في المناظرة والمناقشة أجدى للمعلم

من مكث شهر في الحفظ والتكرار".

إن المناظرات العلمية كانت ولا زالت وسيلة لإظهار الحق

على الباطل لأن المناظرة هي تبادل الكلام بين شخصين يقصد كل

واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما

في ظهور الحق.

فالمناظرة منهج للتدريس، وأسلوب للتثقيف، ووسيلة للإقناع

والاقتناع، ولأن يكون الحوار نافعا وناجحا في إحقاق الحق وإبطال الباطل، ينبغي أن يكون المحاور في حالة نفسية سليمة، وفي وعي تام، وإدراك كامل حتى يكون كلامه مؤثرا.

يقول العلامة أبو الوليد الباجي رحمه الله:

ولا يناظر في حالة الجوع والعطش، ولا في حالة الخوف والغضب، ولا في حالة يتغير فيها عن طبعه، ولا يتكلم في مجلس تأخذه فيه هيبة ولا بحضرة من يزري بكلامه، لأن ذلك كله يشغل خاطر ويقطع المادة ولا يناظر من لا ينصف من نفسه، ولا من عادته التسفه في الكلام ولا من عادته التقطيع، فإنه لا يستفيد بكلامه فائدة، فإن ظهر له من خصمه شيء من ذلك نهاه عنه بلطف ورفق، فإن اللطف في الأمور أنفع، والرفق أنجع، فإن لم ينته عن ذلك، أعرض عن كلامه ولم يقابله في أفعال، وإذا بان له الحق أذعن له وانقاد إليه فإن الغرض بالنظر إصابة الحق^(١).

ومن أمثلة الحوار المقنع ما أجراه الرسول صلى الله عليه وسلم مع رجل أتاه ينكر لون ولده ويشك في سلوك زوجته فقال:
يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟

(١) المنهاج في ترتيب الحجج للباجي ص: ١٩.

قال: حمر، قال: هل فيها من أورك؟ قال: نعم، قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقا نزعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهذا الغلام لعل عرقا نزعته^(١).

وروي ابن عباس رضي الله عنهما: إن ضمادا قدم مكة من أزد شنوءة وكان يرقى من الريح - الجنون - فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون، إن محمدا مجنون.

فقال ضماد: لو أني رقيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي، فلقية فقال: يا محمد إني أرقى من هذه الريح، وأن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد:

فقال ضماد: أعد على كلماتك هذه، فأعادها عليه ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء هات يدك أبايحك على

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٩٩٩ ومسلم برقم ١٥٠٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإسلام^(١).

إن العلماء قديما وحديثا استخدموا الحوار كوسيلة لمناصرة الحق وإبطال الباطل فهناك مناظرات مشهورة حفظها التاريخ من بينها المناظرة اللطيفة والذكية التي قام بها الإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكناني المكي المتوفى ٢٤٠هـ وهي المعروفة "بالحيدة"، أو المناظرة الكبرى في محنة خلق القرآن.

قدم العلامة عبد العزيز الكناني بغداد في خلافة المأمون الذي كان قد تبني فكرة المعتزلة في القول بخلق القرآن، وقد ابتلي المسلمون من هذا القول بفتنة عارمة اضطرت كثير من الناس إلى ترك الجمعة والجماعات، وقد سجن وعذب بسببه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

وقد خاطر الكناني بقول الحق أمام المأ والإيضاح عن العقيدة الصحيحة حتى نقل إلى بلاط الخليفة وقد هدد من رجال الدولة لكنه صمد ولم يتزعزع وناظر أمام الخليفة رأس المعتزلة بشر المريسي وهزمه هزيمة منكرة.

وكان رحمه الله بارعا في الاستدلال، شجاعا، ثابت الجنان، وقد حاصر خصمه بقوة حجته والتزامه أن لا يخرج عن الموضوع

(١) صحيح مسلم برقم ٨٦٨.

وأن يلتزم في الاحتجاج بالكتاب من غير تأويل وبالسنة الصحيحة الثابتة وذلك انطلاقاً من الأصل القرآني المتفق عليه.

{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء: ٥٩)
إن كتاب الإمام ابن تيمية رحمه الله "الجواب الصحيح في الرد على من بدّل دين المسيح"

وكذلك كتاب الإمام ابن القيم: "هداية الحيارى في الرد على النصارى" مع اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأدلة والبرهان خير مثال للمناظرات الدينية أو الردود على المعتقدات الخاطئة.

يقول الشيخ الفقيه العلامة محمد أبو زهر عن كتاب الإمام ابن تيمية رحمه الله "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح".
إن هذا الكتاب أهدأ ما كتبه ابن تيمية في الجدل وهو وحده جدير بأن يكتب ابن تيمية في سجل العلماء العاملين والأئمة المجاهدين والمفكرين الخالدين^(١).

ولا شك أن الجواب الصحيح يتميز بين كافة الكتب التي ألّفت في دحض أباطيل النصرانية، فهو يلقي الضوء أولاً على أن المسيحية الموجودة حالياً هي مزيج من تعاليم المسيح والوثنية

(١) ابن تيمية / ٥١٩.

الرومانية، وإن فكرة الأقانيم الثلاثة ليست من تعاليم الأنبياء عليهم السلام بل هي مأخوذة من أوهام الفلاسفة، ثم يناقش علمياً أن كتب العهد الجديد والقديم مقطوعة الإسناد، وإن الذين دونوها لم يلتقوا ببعيسى أو موسى عليهما السلام، كما يبين أن هناك لبساً في مفهوم الأب والابن وروح القدس، وأن الكثير من علماء النصرى كانوا يدعون إلى التوحيد، وأن فكرة التثليث أمر طارئ في المسيحية، كما أن الإمام ابن تيمية ابدع في عرض نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم في ضوء المعجزات الحسية والمعنوية والشواهد والمبشرات في كتابه القيم.

إلى جانب لفظ "الحوار" هناك كلمات:

المناقشة

المفاوضة

المحاورة

المناظرة

المجادلة

المباحثة وغيرها وهي كلمات ذات معانٍ متقاربة

لكن لكل منها إichاءات خاصة يتبادر إليها الذهن بسبب استخدامها وملايساتها وسياقاتها "فالمفاوضة" عادة تستخدم في

المجال السياسي والدبلوماسي، و"المجادلة" توحى إلى نوع من الخصومة واللدن، وإن كانت تستخدم أيضا في المجادلة الحسنة كما دعا إليها القرآن الكريم، كذلك "المنافرة" لها خلفية تاريخية لا تفهم إلا في جو الشد والجذب وإفحام الخصم، وإلقاء الحجر ولكن في أصل معناها يمكن أن تستخدم في نفس معنى الحوار أو المحاور، كذلك "المنافسة" أو "المباحثة" لها مفهوم خاص في بيئة الجامعات وبين المناقشين لرسائل الدكتوراه أو الماجستير لكن لهما مدلولات واستخدامات أخرى أيضا ومعروفة بين أهل العلم.

وقد حاول البعض أن يفرق بين الحوار والمجادلة قائلا: إذا كان الهدف الوصول إلى الحق والدفاع عنه فهو حوار وإذا كان القصد إلزام الخصم وإسكات المعارض فهو جدل.

وقيل: إذا كان الأسلوب حسنا وواضحا وصريحا فهو حوار، وإذا كان في الأسلوب شدة وغلظة فهو جدل، ولكن كل هذه القيود لا داعي إليها، ولا مشاحة في الاصطلاح كما قيل، وإن تقسيم المصطلحات إلى المنقولات الشرعية والعلمية والعرفية تتم بضوابط، وتفسر الكلمات داخل محيطها وفي دائرة ملاساتها، فلا أرى بأسا في استخدام بعض هذه الكلمات في مكان غيرها وفي معاني مشتركة تتبين من خلال سياقها.

وقد وضع العلماء المتقدمون ضوابط للبحث والمناظرة
وحددوا شروط الرد والقبول والإقناع والاقتناع.
يقول العلامة ابن خلدون:

الجدل هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب
الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً،
وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في
الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأً فاحتاج
الأئمة إلى أن يصنعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودهما
في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث
يسوغ له أن يكون مستدلاً؟ وكيف يكون خصوصاً منقطعاً، أو
محل اعتراضه، أو معارضته؟ وأين يجب عليه السكوت والخصمه
الكلام والاستدلال؟ ولذلك قيل فيه:

"إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي
يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه"^(١).

ومما قيل في هذا المجال:

الجدل: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات
والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات

(١) مقدمة ابن خلدون / ٣٦٢.

البرهان^(١).

المنافرة: علم يعرف به آداب وطرق إثبات المطلوب أو نفيه،
وقيل: إنها توجه المتخاصمين بين الشيعين إظهارا للصواب.
أما **المجادلة:** فهي المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام
الخصم^(٢).

المحاور: في الكلام تكون بين شخصين مختلفين يقصد كل
واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر مع رغبة كل منهما
في ظهور الحق، فكأنهما بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر
الذي هو الفكر المؤدي إلى علم أو غلبة الظن ليظهر الصواب^(٣).
المكابرة: في الاصطلاح المنازعة بين الخصمين لا لإظهار
الصواب بل لإظهار الفضل والغلبة ومن أمثلتها أن يقول المعلن
صاحب التصديق الكل أكبر من الجزء والواحد نصف الاثنين،
والأربعة زوج فيقول السائل امنع هذه الدعاوي أو واحدة منها،
فإن قال ذلك فهو مكابر، والمكابرة مردودة لا تسمع ولا تقبل^(٤).

(١) التعريفات / ١٣٧.

(٢) الرشيدية / ١٨.

(٣) آداب البحث والمنافرة للشنقيطي / ٣.

(٤) آداب البحث والمنافرة / ٦٣.

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة "الحاجة" في أكثر من موضع

مثل:

حاجتكم

تحتاجون

يتحاجون

يحتاجون

وفي الحديث النبوي الشريف: احتج آدم وموسى فقال
موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة.

فقال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه أتلومني على أمر
قدره الله قبل أن يخلقني.

فحج آدم موسى^(١).

وورد: تحاجت الجنة والنار^(٢).

كما ورد: والقرآن حجة لك أو عليك^(٣).

المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم^(٤).

(١) رواه البخاري برقم ٣٤٠٩.

(٢) صحيح البخاري ٤٨٥٠.

(٣) صحيح مسلم ٢٠٣/١.

(٤) مناهج الجدل في القرآن الكريم / ٤٢ زاهر عواض الأملعي.

وقيل: إنه فن المناقشة الذي بعين على تنسيق الأفكار للبحث فيها من بعد حسب مبادئ المنطق أو في الحوار الذي يرتفع به العقل من المحسوس إلى المعقول.

وقيل: إنه منهج منطقي بدأ به سقراط في السؤال والجواب والحل.

أما كلمة "المراء" فقد حث الشرع على تركه حيث ورد في حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه^(١).

كان الهدف من إحداث "علم المناظرة" مناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحماية شريعته وإقامة الحجة والبرهان على كل من خالفه أو أبدى تشكيكاً في كتاب الله أو سنة رسوله، ثم توسعت الدائرة إلى كل من يلحد في الدين ولو تسمى باسم المسلمين.

ومن طالع كتاب "درء تعارض العقل" وكذلك كتاب "منهاج السنة" وكلاهما للإمام ابن تيمية رحمه الله يدرك براعته في الاستدلال والاحتجاج والرد والإفحام لمن يناوئه من الخصوم من

(١) رواه أبو داود برقم ٦١٢٤.

أهل الانحراف والإلحاد.

وفي العصور المتأخرة يمكن أن يعتبر الشيخ العلامة رحمة الله الكيرانوي المتوفى في سنة ١٣٠٨ هـ مؤسس المدرسة الصولتية في مكة المكرمة من أبرز من قام بمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال المناظرة والحوار العلني مع القساوسة الذين شنوا هجوما شرسا على الإسلام ونبى الإسلام صلى الله عليه وسلم فخاض الشيخ في المناظرة الكبرى مع القسيس فنذر، وهي مشهورة هزم فيها القسيس واضطر إلى الهروب، وتم تكريم الشيخ من قبل السلطان عبد العزيز خان في تركيا على هذا الموقف البطولي وهو مؤلف كتاب "إظهار الحق" الشهير الذي لم ينسج على منواله كما أنه هو كان رائدا وقدوة للداعية المعروف أحمد حسن ديدات ومواقفه معروفة في الحاق الهزيمة بالقسيس الأمريكي سوا جارت وغيره.

هؤلاء كلهم جعلوا المناظرات والمحاورات أسلوبا لخدمة الدين الإسلامي الحنيف، والذود عن حماه، والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناصرتة أمام الجماهير.

ومن جانب آخر هناك كتب ألّفت في الرد على الفلاسفة والفرق الباطنية الزائفة وهي أيضا تدخل ضمن الكتب المدافعة عن

الإسلام والمناصرة للنبي صلى الله عليه وسلم.

إن كتاب "تهافت الفلاسفة" للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ قد أدى دوراً مهماً في تفنيد مزاعم الفلاسفة وكسر شوكتهم قرابة مائة سنة إلى أن قام ابن رشد في الدفاع عن الفلاسفة والمهجوم على الغزالي من خلال كتابه "تهافت تهافت الفلاسفة" ثم جاء قاضي زاده للمحاكمة بين الاثنين.

وإذا نظرنا إلى حياة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقته في التعامل مع الناس الذين حاربوه ولم يتركوا سبيلاً في التضييق عليه وتكذيب ما جاء به من الحق.

فقد لقي النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم من مشركي مكة وصناديد قريش حينما دعاهم إلى كلمة التوحيد وترك عبادة الأصنام صنوفاً من الأذى رغم كل ذلك لم يترك أسلوب الحوار والتعامل معهم بخلق دمث وقول لين، وكان لهذا الأسلوب تأثير عجيب في الإقناع والإهداء وفي قطع المراء والجدال، ولعل من أبرز هذا النوع من الحوار ما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعتبة بن ربيعة وهو كما نقلته المصادر كان كالتالي:

أرسلت قريش عتبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحادثه ويفاوضه ويغريه فجلس عتبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

وقال:

يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة،
والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به
جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به من مضى من آبائهم،
فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: قل - يا أبا الوليد - أسمع
قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به مالا، جمعنا لك
أموالنا، وإن كنت إنما تريد به شرفا سوّدناك علينا، حتى لا نقطع
أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك، وإن كان هذا الذي
يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا
فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى
يداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع
إليه قال: أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني،
قال: أفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{حم، تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ} (فصلت: ١ - ٤)

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن انتهى إلى آية السجدة فسجد وكان عتبة معتمدا على يديه واضعا خلف ظهره يسمع منه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد سمعت يا أبا الوليد، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه بوجه غير الوجه الذي جاء به بشدة وقع الآيات عليه وطلب من أصحابه أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وشأنه فأبوا وقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بلسانه^(١).

وهذه القصة تبين لنا من أساليب الحوار:

- إن النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الاستماع لعبية وقال له: قل أبا الوليد، أسمع.
- فخاطبه بالكنية تكريما له ولم يدعه باسمه لأن العرب يحبون في الكنية تشريفا وتكريما.
- أعطاه الفرصة ليقول المزيد إذا كان عنده شيء نسيه أو تركه مجاملة له فسأله: أو قد فرغت يا أبا الوليد؟
- وهذا الأدب الجم والأسلوب الراقي للحوار يجعل الطرف الآخر يسمع بقلب مفتوح، الكلام الذي سوف يلقي إليه.
- ثم بعد الفراغ من التلاوة سأله: قد سمعت يا أبا الوليد

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١، البداية والنهاية ٦٢/٣.

فأنت وذاك؟ ما ترك فيه أثرا بالغاً تلمسه أصحابه من وجهه.

وهذا هو الأسلوب الناجح للحوار، المطلوب في هذا العصر مع أهل الديانات والملل الأخرى بأن يعطي للمحاور حرية كاملة، ويسمع ما يلقيه بعناية تامة وإصغاء كامل، وأن يتحمل المحاور ما يسمعه ولو كان الكلام باطلاً ومثيراً، ثم يلقي ما عنده بهدوء وبأسلوب شيق مؤثر وحجج وأدلة قوية ملموسة ودامغة.

- ومن نماذج الحوار الراقي الجميل والمؤثر أيضاً حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنصار في أعقاب معركة حنين حيث إن بعضاً من الأنصار شعروا بحرمانهم من الحقوق في تقسيم الغنائم، فدخل زعيم الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من قومك

يا سعد؟

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

فجمع سعد الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدّة وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمّن وأفضل.

ثم قال: أما تحيوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: بما نحييك يا رسول الله؟ "الله ورسوله المنّ والفضل"

قال: أما والله لو شئتم لقلتم - ولصدّقتهم ولصدّقتهم - أتيتنا مكذّبا فصدّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأوينّاك، وعائلا فواسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قلوب قوم يسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون - يا معشر الأنصار - أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟

فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، والأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار،

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.
فبكى القوم حتى أخضل لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله
قسما وحظا^(١).

هذا الحوار من أبلغ وأعظم الحوارات، وقد بلغ حد الإعجاز
في حسن تصرف النبي صلى الله عليه وسلم، ولطف تعامله،
وكمال حكمته مع فئة مصدومة نفسيا، غاضبة على حرمانها حتى
تحولت إلى فئة راضية مسرورة مفتخرة على ما نال من حظ عظيم
أثناء خطاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا ينبغي أن يكون الحوار فاعلا ومؤثرا وقادرا على
ترطيب القلوب وتطبيب النفوس.

أما الحوار الذي أجراه السلف الأقدمون مع الغير أو مع
الطرف الآخر فمن أحسن نماذجه ما جرى بين جعفر بن أبي
طالب رضي الله عنه وملك الحبشة أصحمة النجاشي.

فأثناء انتقال طليعة من المهاجرين إلى أرض الحبشة هروبا من
ظلم المشركين في مكة.

أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلما جاءوا، ودعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله،

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٣٣٠.

سألهم قائلاً:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

فأجابهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قائلاً:

أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا.

فأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، وعود علينا أمور الإسلام فصددناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا،

خرجنا إلى بلادك واخترتناك على من سواك، ورغبنا في جوارك
ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟
فقرأ عليه صدرا من {كهيعص} فبكى النجاشي حتى أخضلت
لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا
عليهم ثم قال:

"إن هذا والذي جاء به عيسى عليه السلام ليخرج من مشكاة
واحدة" (١).

فقد نجح حوار جعفر مع النجاشي في إقناعه، وجلب تعاطفه
وكسب وده وحمانيته للمسلمين.

وكذلك من ألطف وأذكى الحوار ما جرى بين ابن عباس
رضي الله عنهما ومجموعة من الخوارج الذين نقموا من علي رضي
الله عنه وتمردوا وخرجوا عليه متهمين إياه بالكفر والضلال.
وهذه المحاورة تدل على ذكاء ابن عباس رضي الله عنهما
الخارق، وفقهه العميق وقدرته البالغة في الإفحام والإقناع.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما اعتزلت "الحرورية" قلت
لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة فلعلي آتى هؤلاء القوم

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٦.

فأكلهم.

قال: إني أتخوفهم عليك، قال: كلا إن شاء الله، فلبست أحسن ما قدرت عليه من هذه اليمانية ثم دخلت، فقالوا: مرحبا بك يا بن عباس، ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزل الوحي وهم أعلم بتأويله.

قال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: لنحدثنه.

قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه؟

قالوا: ثلاثا، قلت: ما هن؟ قالوا: أولهن أنه حكّم الرجال، في دين الله وقد قال الله تعالى: (إن الحكم إلا الله) قال: قلت: وماذا؟ قالوا: قاتل ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفارا حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماءهم.

قلت: وماذا؟

قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قرأت عليكم كتاب الله

المحكم، وحدثكم عن سنة نبيكم ما لا تنكرون أترجعون؟
قالوا: نعم.

قال: أما قولكم أنه حكم الرجال في دين الله فإن الله يقول:
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ }
(المائدة: ٩٥)

وقال في المرأة وزوجها: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا } (النساء: ٣٥)
أنشدكم بالله، أفحكم الرجال في حقن دماءهم وأنفسهم،
وصلاح ذات بينهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟
قالوا: في حقن دمائهم، وصلاح ذات بينهم، قال: أخرجت
من هذه؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم،
ثم تستحلون منه ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم
أنها ليست أمكم فقد كفرتم، وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول:
{ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }
(الأحزاب: ٦)

وأنتم مترددون بين ضاللتين، فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت
من هذه؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم محاً نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله
صلى الله عليه وسلم دعا قريشا يوم الحديبية على أن تكتب بينهم
كتاباً فقال: أكتب: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله، فقالوا:
والله، لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك
ولكن أكتب: محمد بن عبد الله.

فقال: والله، إني لرسول الله وإن كذبتُموني، واكتب يا
علي، محمد بن عبد الله، ورسول الله كان أفضل من علي،
أخرجت من هذه؟

قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم فقتلوا
على ضاللتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار^(١).

حوار الإمام أبي حنيفة مع الملحدين:

نقل الإمام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل: أن
جمعاً من الملحدين اجتمعوا بالإمام أبي حنيفة رحمه الله طالباً منه

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٧/١٠ - ١٦٠.

إقامة الحجة على وجود خالق لهذا الكون قائلين ما الدليل على وجود الصانع؟

فقال أبو حنيفة: دعوني من هذا الموضوع فإن خاطري مشغول بأمر غريب.

قالوا: ما هو؟

قال: بلغني إن في دجلة سفينة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي تذهب وترجع من غير أن يحركها أحد أو يكون عليها أحد؟

فقالوا: أيجنون أنت؟

قال: وما ذاك؟

قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل.

قال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيّار يجري، وتحدث الحوادث من غير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير متحرك؟!

فبهتوا، ورجعوا على أنفسهم باللام(١).

ومن أساليب الحوار المقنع ما نقله الآجري والذهبي والخطيب

(١) درء تعارض العقل ٣/١٢٧، الرياض الناضرة ص: ٢٥٨.

البغدادي وغيرهم عن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله في فتنة خلق القرآن، أن الخليفة الواثق بالله لما طلبه وهو محبوس مقيد إلى مجلسه وقال لابن أبي دواد المعتزلي رأس الفتنة في إثارة مسألة خلق القرآن، والسبب في ابتلاء الإمام أحمد بن حنبل قال: سله فقال الإمام أحمد: يا أمير المؤمنين أنا محبوس مقيد، أصلي في الحبس بتيمة منعت الماء، فمر بقيودي تحلّ ومر لي بماء أتطهر به وأصلي ثم سلمي.

فأمر الخليفة فحل قيده وأمر له بماء فتوضأ وصلى، ثم قال لابن أبي دواد: سله.

فقال الإمام أحمد: المسألة لي تأمره أن يجيبي، فقال: سل، فأقبل الإمام على ابن أبي دواد يسأله، فقال: أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: لا.

قال: فشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟! قال: لا.

قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدهما؟! قال: لا.

قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه بعدهم؟! قال: لا.

قال: لا.

قال: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بعدهم؟!

قال: لا.

قال الإمام أحمد: فشيء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي رضي الله عنهم تدعو أنت الناس إليه؟! ليس يخلوا أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت جهلوه وعلمته أنا، فيا لكع بن لكع يجهل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئا تعلمه أنت وأصحابك؟!

فوثب الخليفة قائما وجعل ثوبه في فيه يضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن نقول: جهلوه أو علموه، فإن قلنا: علموه وسكتوا عنه، وسعنا من السكوت ما وسع القوم، وإن قلنا: جهلوه وعلمته أنت وأصحابك، فيا لكع بن لكع، يجهل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم شيئا تعلمه أنت وأصحابك؟! (١).

(١) أضواء البيان ٤/ ٤١١. ويقول العلامة الشنقيطي رحمه الله: فهذه القصة لم تزل مشهورة عند العلماء صحيحة الاحتجاج، فيها إلقاء الخصم الحجر.

وهكذا استطاع الإمام أحمد بن حنبل من إقامة الحجة وفضح أعدائه بحوار هادف وذكي يفتح العقول والقلوب.

ومن الحوار الطريف أيضا ما جرى بين الإمام أبي الحسن الأشعري وشيخ المعتزلة أبي علي الجبائي الذي كان يعتقد وجوب اختيار الأصلح على الله سبحانه فسأله أبو الحسن الأشعري عن مصير ثلاثة: مسلم مات كبيرا، وكافر مات كذلك وصبي كافر مات صبيا.

فقال الجبائي: أما المسلم ففي الجنة حسب عمله، وأما الكافر الكبير ففي النار في أعلى دركاتها بحسب طغيانه، وأما الصبي الكافر ففي النار في أدنى دركاتها.

فقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: فما بال الصغير في النار؟ قال الجبائي: يقول الله له: علمت في سابق علمي أنك إن كبرت كفرت، فرأيت أن الأصلح لك أن أقتلك في الصغر، لتكون في أدنى دركات النار.

قال أبو الحسن الأشعري: لم لا يقول الكافر الكبير وكذا كل كبير في النار يا رب لقد علمت في سابق علمك أنني إن كبرت كفرت، وأنا أرضي بأقل من مصير هذا الغلام فلم لم تمتني صبيا؟ قال الجبائي: أبك جنون؟

قال أبو الحسن: لا ولكن وقف حمار الشيخ بالعقبة^(١).
ومن الحوار اللطيف والطريف ما جرى بين العلامة الأصولي
الفقيه أبي إسحاق الاسفرائيني وشيخ المعتزلة عبد الجبار.
قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء، أراد أن أفعال
العباد من خلقهم لأن الله أعلى وأجل من أن يشاء القبائح كالزنا
والسرقة وغيرها من الأعمال.
فقال أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.
قال عبد الجبار: أترأه يخلقه ويعاقبني عليه؟
فقال أبو إسحاق: أترك تفعله جبرا عليه كأنك أنت الرب
وهو العبد؟
فقال عبد الجبار: أ رأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى على
بالردى أترأه أحسن إلى أم أساء؟
قال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك منه ملكا لك فقد
أساء، وإن كان له فأنا أعطاك ففضل وإن منعك فعدل فبهت عبد
الجبار وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب^(٢).
ومن العلماء الذين عرفوا بقوة العارضة وحسن الاستدلال

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ٤/٤١٢.

والمقدرة الخارقة على توضيح الحق وتبيان الأمر القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى ٤٠٣ هـ كان يلقب بسيف السنة ولسان الأمة وكان يضرب به المثل في شدة ذكائه ودقة فهمه وسرعة بديهته.

ولما أرسله الخليفة العباسي رسولا إلى ملك الروم أراد الملك أن يدخله من باب صغير منحيا راعكا ففطن ذلك فدخل بظهره وأنقذ نفسه من موقف محرج.

ولما رأى أساقفتهم ورهبانهم قال: كيف الأهل والأولاد؟ فاستأوا ذلك وقال الملك: مه، أما علمت أن الرهبان يتزهون عن ذلك؟

قال: تزهون هذا، ولا تزهون رب العالمين عن الصاحبة والولد؟!

وقال أحد الأساقفة في حضور الملك مستفزا له: ما فعلت زوجة نبيكم؟ مشيرا إلى حادث الإفك. فرد الإمام الباقلاني على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة فبرأهما الله عز وجل. وكانت هذه (عائشة) ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج، وكلتاها بريئتان مما قيل فيهما.

فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع وهما بحمد الله مترهتان مبرأتان من السماء بوحى من الله عز وجل^(١).

إن المناظرات والمحاورات التي أجراها العلماء وأعلام هذه الأمة كان لها أثر بالغ في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والذود عن تعاليم دينه الحنيف وأذكر هنا دور ثلاث شخصيات من شبه القارة الهندية الذين عاشوا في نهاية القرن الماضي أو بداية هذا القرن.

أولهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه الشهير في الرد على النصارى "إظهار الحق".

شهد هذا الشيخ عصر انهيار الإمبراطورية المغولية المسلمة وسيطرة الاستعمار البريطاني على الهند فلما دخلت الهند تحت حكم التاج البريطاني في عام ١٨٥٧م أعلن أحد أعضاء البرلمان البريطاني آنذاك:

"الحمد لله الذي أرانا هذا اليوم الذي أصبحت فيه الهند تحت سيطرة انجلترا وأمكن أن يرفرف علم المسيح عليها كلها، وعلينا أن نجتمع قوانا ونبذل جهدنا في تنصير شعب الهند ولا نترك الكسل

(١) البداية والنهاية ٣٤٢/١١، ترتيب المدارك ٥٩٤/٤.

يستولي علينا" (١).

وواكب هذا الانتصار وصول فوج من المنصرين والمبشرين
المسيحيين، وعمت مدارس التنصير كافة مناطق الهند وأنشئت
كليات ومعاهد متخصصة كما بلغ عدد المبشرات المسيحيات
لزيرة النساء في البيوت تحت شعار إيصال المعونة أو القيام بعلاج
المرضى إلى عشرات الآلاف.

وقام المنصر الشهير هنري مارتن بترجمة الكتاب المقدس إلى
الأردية والفارسية واللغات الأخرى المحلية وتم توزيع نحو ١٦٠
مليون نسخة من الإنجيل لغاية عام ١٨٩٩ م.

كذلك قام القساوسة بتأليف الكتب لإثبات تفوق الدين
المسيحي على الإسلام وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم،
وتشويه سمعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن في أزواجه
تحت عناوين:

- تفتيش الدين الحمدي
- إبطال الدين الحمدي
- إظهار الدين النصراني
- أمهات المؤمنين

(١) تاريخ الإسلام في الهند للنمر / ٤٠١.

- ميزان الحق وغيرها.

ومن بين المنصرين المشهورين/ القسيس فندر وكان أمريكيا
كاثوليكيا لكنه تحول إلى البروستانتية إرضاء لزوجته البريطانية
حتى أرسلته كنيسة إنجلترا كرئيس المنصرين إلى الهند، وقد أبدى
نشاطا ملحوظا في تجميع الناس في الشوارع أو الوقوف على درج
المسجد الجامع في دهلي وإلقاء المحاضرات المناوئة للإسلام تحت
حماية قوات الأمن البريطانية.

أما كتاب "ميزان الحق" الذي ألفه فقد هاجم فيه على القرآن
وأراد التشكيك في بلاغته، كما تناول شخصية الرسول صلى الله
عليه وسلم بأسلوب مناف للأدب وأصبح كتابه مرجعا للقساوسة
الآخرين، فلما استفحل أمره وتفاقم شره تحداه الشيخ رحمة الله
الكيرانوي ودعاه إلى مناظرة علنية حول الموضوعات المطروحة إلى
أن تم تحديد التاريخ وعقدت جلسة المناظرة الكبرى في مدينة آغرا
واستمرت المناظرة يومين أمام الملاء الكبير والجمع الغفير، وانهمزم
القسيس فندر فاضطر إلى الهروب مع الدعايات الكاذبة.

ولما بلغ خبر هذه المناظرة إلى الآستانه دعا السلطان عبد العزيز
خان الشيخ رحمة الله الكيرانوي وأكرمه، وأشار إليه أن يقوم
بتأليف كتاب شامل في الموضوع فألف كتابه "إظهار الحق" وعددا

من الكتب الأخرى في دحض النصرانية والدفاع عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، رحمه الله رحمة واسعة وكان لكتابه تأثير كبير في إيقاف مد التنصير.

ومن الأعلام الذين واجهوا فتنة التنصير في تلك الفترة، الشيخ محمد علي المونجيري، والشيخ محمد قاسم النانوتوي، والدكتور وزير خان الذي عمل كمساعد للشيخ أثناء المناظرة.

أما الشخصية الثانية التي جعلت الحوار وسيلة للدفاع عن الإسلام وعن النبي صلى الله عليه وسلم الشيخ العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله المتوفى ١٢٩٧هـ.

فقد كان رحمه الله يمثل المسلمين في المباحثات مع أهل الديانات الأخرى التي كانت تنظم في مناطق مختلفة يشارك فيه القساوسة المسيحيون، وكهنة الديانة الهندوسية وعالم مسلم يمثل المسلمين ويدافع عن الإسلام، يبذل كل واحد منهم جهده لإثبات أن دينه هو الحق ودين غيره باطل.

وقد استطاع الشيخ بإلحاق الهزيمة لكافة المناوئين في مدينة "شاهجهانفور" حيث كان الإنكليز يهتمون بإقامة مهرجان شعبي كبير يسمى "بميله خدا شناسي" (مهرجان معرفة الإله).

وإن مؤلفات الشيخ "مباحثه شاهجهانفور"، و"حجة

الإسلام" و"البراهين القاسمية" كلها تزخر بأدلة دامغة لدحض
أباطيل النصارى وأساطير الهندوس، وإقامة الحجة على صحة دين
المصطفى صلى الله عليه وسلم وبيان ما في أحكامه من أسرار
ومصالح.

أما الشخصية الثالثة: التي أريد أن أذكرها هو الداعية
المعروف/ أحمد حسن ديدات.

ولد في الهند عام ١٩١٨م واستوطن جنوب أفريقيا ونبغ
كأكبر رجل العصر في دحض أباطيل النصارى ومناصرة الدين
الإسلامي الخفيف في مواجهة القساوسة.

ظروفه العائلية لم تساعد في إكمال دراسته، ولكنه تبني
كتاب "إظهار الحق" للعلامة رحمة الله الكيرانوي في مقتبل حياته
وبنى عليه ثقافته، وإن ذهنه الوقاد، وذاكرته القوية، ومقدرته
الخطابية، ولغته الإنكليزية جعلته أكبر متحد للقساوسة في الدفاع
عن هجومهم على القرآن الكريم أو شخصية النبي الأكرم صلى الله
عليه وسلم، وبيان حقانية القرآن الكريم، وإثبات التحريف في
كتب العهد العتيق والجديد.

دخل في المناظرات مع العدد من القساوسة اللامعين، وألحق
بهم هزيمة فعمت شهرته على مستوى العالم، وإن خوضه في

المنافرة مع القس الأمريكي البارز/ جيمي سواجارت في ساحة إحدى الجامعات الأمريكية، وانتصاره وهزيمة القسيس أمام الملايين من الناس جعل اسمه على لسان كل صغير وكبير كمحاور قدير وداعية بارز.

أنشأ مركز الدعوة الإسلامية في بلاده ونشر مجموعة من الكتب، وألقى المحاضرات في أفريقيا وأمريكا ولندن، وماليزيا والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وغيرها من الدول، فتناول فيها مواطن الضعف في كتب العهد القديم والجديد، واختار لكتبه ومحاضراته عناوين مثل:

- القرآن فريد في تدوينه.
 - بين الإسلام والنصرانية.
 - هل الكتاب المقدس كتاب الله؟
 - بشرى موسى لمحمد صلى الله عليه وسلم.
 - العلوم، والوحي القرآني.
 - محمد صلى الله عليه وسلم الأعظم بين الأنبياء.
- قد وزعت ملايين النسخ من كتبه وأشرطته، ونال جائزة الملك فيصل العالمية في عام ١٩٨٦م.
- وبعد عمر حافل بالانجازات في مجال الدعوة انتقل إلى رحمة

الله في عام ٢٠٠٥م عن عمر يناهز ٨٧ عاما.
وقد ترك أثرا كبيرا في الطبقة المثقفة بثقافة عصرية، فرحمه الله
رحمة واسعة وتغمده برضوانه.

كل هذه الأمثلة تدل على أن الحوار مع الغير كان له أثر بالغ
في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم سواء سميانه مناظرة، أو
محاورة، أو جدالا حسنا، وسواء تم ذلك بشكل شفوي ومباشر أو
في صورة تأليف كتاب يتناول الشبهات حول الإسلام من أهل
الديانات الأخرى ويرد عليها بأسلوب قوي وأدلة دامغة.

ولعل البعض في عصرنا الحالي يأنف من سماع كلمة "المناظرة"
أو "المجادلة" وما شابه ذلك ويتبادر إلى ذهنه معنى اللدد والخصومة
لذا يجبذ استخدام كلمة "الحوار" ولا شك أن المسلمين لا ينادون
إلى "صدام الحضارات" ولا يبيحون الاعتداء على المسلمين، وأن
مشروعية الحرب في الإسلام خاضعة لقانون العدل واحترام آدمية
الإنسان ، وليست لإخضاع الشعوب ونهب ثرواتها.

وإن التعايش الآمن من أصول العلاقات الدولية في الإسلام إذا
لم تكن فتنة أو طغيان من أهل الكفر، وإن الإسلام يحرم الظلم
بجميع صوره وإشكاله يقول الله عز وجل: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا، إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} (المائدة: ٨)

وإن التنوع الحضاري واقع لا يمكن إلغائه والمطلوب هو حسن التعامل معه واختيار الأنفع والأصلح منه.

ويمكن تلخيص أهم نقاط البحث فيما يلي:

- الحوار وسيلة حضارية لتبادل الأفكار وإقناع الآخرين بالفلسفات والأيدلوجيات، والإسلام لا يمانع من إجراء الحوار حول المعتقدات بل يطالب بإقامة الحجة والبرهان على صحة ما يعتقده الإنسان.
- إن القرآن الكريم يقدم نماذج من الحوار بين الأنبياء وأقوامهم، وبين الراشدين والملحدين، وبين الفئات المختلفة من الناس بل ويجاور مع الطغاة والجبابة وإبليس أيضا.
- إن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم الحوار كوسيلة للدعوة إلى دينه وقدم نماذج رائعة ومؤثرة للحوار اللطيف والمفيد.
- ظل الحوار الهادف سائدا بين السلف الأقدمين كوسيلة للدفاع عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وحماية الدين وإقناع الناس وإفحام الملحدين والمنحرفين عبر

القرون.

- يحث القرآن الكريم على المجادلة الحسنة وقد طور علماء المسلمين أساليب المجادلة والمحاورة وألف العلماء قديما وحديثا كتباً في آداب البحث والمناظرة.
- انتشرت مجالس المناظرات حول الموضوعات الفقهية والاعتقادية وغيرها في عصر بعض الخلفاء العباسيين وخاصة بعد ترجمة علوم اليونانيين وازدهار سوق المناظرة والفلاسفة والمتكلمين.
- إن جهود علماء المسلمين في الحوار مع أهل الديانات الأخرى كانت رائعة ومجيدة وتعتبر أسماء الأئمة: الباقلاني، والاسفرائيني، وابن القيم، والكيرانوي، والنانوتوي وديدات بارزة ومهمة في الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم.
- إن مبادرة خادم الحرمين الشريفين لفتح باب الحوار مع أهل الديانات المختلفة خطوة موفقة وحكيمة وهي الطريقة المثلى للتفاهم بين الشعوب وتخفيف حدة التوتر وإبراز خصائص ومزايا الدين الإسلامي الحنيف أمام العالم.
- إن الحوار النافع يتطلب إيجاد كوادر مدربة من المحاورين

الذين يجيدون لغات العالم الحية إلى جانب إطلاعهم
الواسع على ثقافات وديانات الشعوب المختلفة لذا أقدم
اقترح إنشاء معهد علمي متطور مزود بكافة المتطلبات
من المدربين والمصادر عن الثقافات والحضارات
والديانات المختلفة يقوم بتدريب وتخرج دعاة ذوي
كفاءات عالية، بارعين في التفاوض والمحاورة بأسلوب
ذكي ومؤثر . والله ولي التوفيق،،،

* * * * *

أسس الحوار مع أتباع الأديان الشرقية

من الحقائق الثابتة أن العالم قد شهد في العقود الأخيرة تطوراً هائلاً في التقنيات الحديثة و ظهرت ثورة في دنيا المعلومات و أن أدوات الاتصالات الحديثة قد أحدثت انقلاباً عظيماً في كافة مجالات الحياة و ساهمت في تقليل المسافات و تقريب المساحات بين البلاد والأمصار، وإن العالم تحول إلى قرية صغيرة يمكن الوصول إليها والتأثير فيها ومتابعة ما يجري من الأحداث في أية زاوية منها من غير بذل الكثير من الجهد والوقت.

لكن المجتمع الإنساني رغم كل هذه الانتصارات في دنيا الإبداعات والاختراعات والتزود بالقنوات الفضائية والشبكات يعاني من انقسام حاد و تمزق شديد بسبب الاختلافات العرقية أو الدينية أو السياسية، حتى إن مستقبل الحياة الإنسانية على هذا الكوكب الأرضي بات مهدداً و أصبحت لغة الغارات والاشتباكات هي طاغية ومسيطرة في معظم أنحاء العالم.

و كان من المفترض أن يكون الدين عاملاً للتوحيد والتقريب بين الأمم والشعوب لا سبباً للتفريق والتمزيق و دافعاً

إلى قتل النفوس و إراقة الدماء، لكن غياب الرؤية الواضحة لدى أهل الديانات و عدم التنسيق بينهم أعطت للقوى السياسية الطاغية فرصة لاستغلال التزايدات الدينية استغلالاً سياسياً عملاً بمبدأ " فرّق تسد " فاستطاعت في تعميق هوة الخلاف بين أهل الديانات حتى أصبحت الديانات نفسها في قفص الاتهام بأنها من عوامل التفريق لا من وسائل التوحيد والتأليف لذا يجب على أهل الديانات سماوية كانت تلك الديانات أو وضعية أرضية. أن يقوموا بإحياء ثقافة الحوار بينهم بهدف بث روح التسامح بين الناس و إيجاد مناخ التعاون بين أهل الملل والديانات المختلفة ضد تيارات الفساد الأخلاقي والإلحاد، و من دون ذلك لا يمكن الحفاظ على مكتسبات الحضارة أو منجزات التطور العلمي والتقني، ولا بناء المجتمع الآمن أو المدينة الفاضلة يعيش فيها الإنسان حياة السعادة النفسية والروحية.

إن الحوار بين الأديان ينبغي أن يقوم على أساس واضح و منهج سليم و ان يهدف إلى غاية نبيلة، و ينبغي أن يركز الحوار على الموضوعية والإنصاف و يساهم في إيجاد مناخ آمن للتعايش مع التنوع في الأفكار والانتماءات والتعدد في الفكر والثقافة و في الانتماء إلى الدين.

إن ثقافة الحوار دعوة إلى الاحتكام إلى العقل والحكمة في مواجهة العصبية القتالة والمقيدة.

إن المسلمين لهم تاريخ حافل في فتح باب الحوار و إثراء الحوار بأشكال و أساليب عديدة فقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران و حاور الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عجوزاً مسيحية و حاور الخليفة العباسي المهدي مع البطريك بيثاوس والخليفة هارون الرشيد طبيبه الخاص حول المبادئ الدينية عن طريق الاستماع والإسماع و بهدف الإقناع والإقتناع.

كما حاور القاضي الباقلاني مع ملك الروم والإمام فخر الدين الرازي مع القساوسة في خوارزم، بل كان بعض ملوك المسلمين مولعين بعقد مجالس للمناظرة والبحث العلمي مع أطراف عديدة و مع أهل الديانات الأخرى.

إن الوضع الدولي الراهن يؤكد على أهل الديانات حتمية إرساء قواعد الحوار و ضرورة إقامة جسور التعاون و ذلك اتقاء احتدام الصدام بين الفتنتين المختلفتين من أبناء وطن واحد أو من بني جنس واحد.

إن الدين الإسلامي الحنيف دين الفطرة و دين العقل

والبرهان فهو لا يمنع من الحوار من أجل الوصول إلى الحق، بل القرآن الكريم نفسه يدير الحوار مع من لا يؤمن به ويدعوهم إلى الإحتكام إلى العقل والمنطق فينادي قائلاً:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}
(آل عمران: ٦٤)

كما يمنع أتباعه من التعرض لأي ديانة و لو كانت باطلة بسوء حيث يقول:

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} (الأنعام: ١٠٦)
ولا يكره أحدا على اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين
{قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ}
(الكهف: ٢٩)

إن "الحوار" كان ولا يزال أسلوباً حضارياً للإقناع والاقتناع و وسيلة ناجحة للتأثير على الغير و حثه على الخير' وقد ضمن القرآن الكريم أنواعاً من الحوارات بهدف إقامة الحجة وتبيان الحق ومن أجل إزالة اللبس وتنوير عقول المخاطبين و دحض الأباطيل من الآراء والأفكار.

كما أن المصطفى صلى الله عليه وسلم استخدم أسلوب الحوار في التعليم وترسيخ المفاهيم في الأذهان مع أتباعه' ومع غير

المسلمين أيضاً، فقد حاور صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران كما
فاوض مع مندوب مشركي قريش عروه بن مسعود الثقفي من
أجل الاتفاق على بنود صلح الحديبية.

إن الحوار الحضاري الهادف بين الأمم والشعوب و بين
أتباع الديانات السماوية فيما بينها و بينها و بين أتباع الفلسفات
الوضعية حاجة ملحة اليوم لوضع الحد للصراعات المدمرة والتي
يخشى منه أن تأتي على الأخضر واليابس إذا لم يتدارك الأمر و
تركت القوى الطاغية تنفذ سياسة التفريق بين الشعوب من أجل
فرض الهيمنة عليها تعمل عملها' و تستغل نقاط الضعف فيها.

إن المسلمين لما يملكون من قيم الصدق والأمانة ومبادئ
العدل والمساواة إضافة إلى الشجاعة الأدبية والإيمانية لقبول الحكم
العادل ولو كان ضد أنفسهم هم أولى الناس بتأصيل الحوار
والمبادرة نحو عقد اللقاءات متعددة الأطراف من أجل تحقيق
السلام في العالم و إنقاذ الإنسانية مما تعاني منه.

إن الإسلام يدعو إلى العقيدة الصحيحة ويغرسها في
النفوس بالحجة والبرهان من غير إكراه وإجبار أو إرهاب أو
إغراء.

وإذا أثر غير المسلمين البقاء على دينهم فلا يرغمهم أحد

على قبول الإسلام فهم "يُتركون وما يدينون" شريطة أن يتجنبوا أساليب الاعتداء أو إثارة الفتنة في المجتمع.

إن منهج الإسلام قائم على السّماحة في التعامل مع الآخرين والمسالمة مع المسلمين والدفاع عن الوجود والحقوق ضد المعتدين واعتبار الناس جميعاً من أصل واحد و من حق الجميع أن يعيش و يعمر الأرض.

وإن منهج الحوار الإسلامي يتميز بالواقعية والعقلانية و استخدام أساليب الإقناع من غير التعنيف والتجريح، و استعمال الحكمة في الخطاب، والقصد الحسن، والنية الطيبة. يقول الله عز وجل:

{أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل ١٢٥)

ويخلو منهج الحوار الإسلامي عن الكلمات النابية و تبادل الشتائم، يقول القرآن الكريم:

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} (الأنعام ١٠٨).

و باتخاذ الحوار منهجاً يمكن تحقيق التقارب والتفاهم بين

الأمم و إرساء دعائم الحرية والتسامح بين الشعوب.
وفي مناخ الأمان والسلام فقط يمكن بناء معالم الحضارات
و تنفيذ خطط ومشاريع التنمية وتطوير المجتمع الإنساني فالسلام
حاجة الجميع.

إن مخاطبة الناس ذوق و فن' و قد حثّ الإسلام على
اختيار الموعظة الحسنة واستخدام الكلمة الطيبة لغرس المبادئ النبيلة
في النفوس و إصلاح ذات البين لأن الكلمة الطيبة لها تأثير عظيم
في تقريب القلوب المتنافرة و ترسيخ مفاهيم الإخاء والتراحم
والتفاهم.

يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي ~ أَكْلَهَا كُلَّ
حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يُضْرَبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }
(إبراهيم ٢٤)

إن منطق التجريح والتعنيف في المحاوراة والمخاطبة يولد
الكراهية و يوسع الفجوة و قد أشار الله سبحانه إلى ذلك في قوله:
{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} (آل عمران ١٥٩)

إن الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية من الأديان

الشرقية نشأت في الهند و بها انتشرت و ترعرعت و ما زالت الأغلبية الساحقة من أهل الهند تنتمي إليها وتؤمن بأساطيرها و تتمسك بمبادئها و تمارس طقوسها منذ أقدم العصور على اختلاف عدد المنتمين إلى كل ديانة من تلك الديانات.

فالهندوسية هي دين الغالبية العظمى من سكان الهند و مملكة نيبال و لها أتباع في دول شبه القارة الهندية الأخرى. كما أن لهم تواجداً في ماليزيا و اندونيسيا وهم منتشرون في معظم قارات العالم. تأتي بعدها "البوذية" منشأها الهند حيث ولد بوذا و مازالت مدينة "بوده غيا" كعبة للبوذيين يقصدونها و يعتكفون فيها أسابيع و شهوراً باعتبارها مدينة مقدسة حصل بوذا على المعرفة هناك أو جعلها مصدراً لإطلاق دعوته. و كانت البوذية أكثر انتشاراً في الهند وامتلك البوذيون الحكم في العصور القديمة ثم حصل نوعاً من الانحسار للبوذية أمام الزحف الهندوسي الجارف، وازدادت البوذية انتشاراً في الصين واليابان و في كوريا وغيرها من بلاد شرق آسيا ومازالت الأغلبية من أهل سريلانكا يدينون بالديانة البوذية.

أما الجينية فهي أضيق انتشاراً وأتباعها أقل عدداً لكنها موجودة و لهم معابد خاصة تختلف عن المعابد الهندوسية.

أما السيخية فهي ديانة حديثة العهد فهي أحدث وجوداً و
أتباعها اقل عدداً لكنهم أكثر التزاماً و أقوى تنظيمياً و تمسكاً
بالشعائر الدينية والشارات والعلامات المميزة عن غيرهم.
وها هي بعض التفاصيل عن تلك الديانات و مبادئها و
معتقداتها الأساسية:

البوذية:

وهي المنتشرة في اليابان والصين والهند وكوريا وكمبوديا
وسيلان وغيرها من البلاد.
تقاليد البوذيين وطقوسهم شبيهة بتقاليد الهندوس، كما أن
عبادة الأصنام وعقيدة تناسخ الأرواح مشتركة بين الديانتين؛ مع
فارق ضئيل، وهو أن البوذيين لا يضعون في معابدهم غير تمثال بوذا،
أما الهندوس فهم يعبدون كل صنم ، وتكثر التماثيل في معابدهم،
ويأتي ذكر بعض خصائص البوذيين ضمن الحديث عن الهندوسية.
و يبلغ عدد البوذيين والهندوس معاً ما يقارب مليارين من
الناس في كل من الصين والهند، واليابان والكوريتين بالإضافة إلى
سري لنكا والدول الأخرى الصغيرة المجاورة لها.
و إن أي برنامج للحوار الدولي بين الأمم والشعوب لا
يمكن إنجاحه بصرف النظر عن هذا العدد الهائل من البشر، فمن

الطبيعي أن تدرس هذه الفلسفات الوضعية أو الديانات غير السماوية، وتبحث نقاط الإيجاب والسلب في تعاليمها وفي المعتقدات التي يؤمن بها أتباع هذه الفلسفات والديانات؛ خاصة هناك احتكاك مباشر للأقليات المسلمة التي تعيش في ظل هيمنة الهندوسية أو البوذية.

كما أن تقارب المسافات بين البلاد والأمصار وظهور الأدوات الحديثة للاتصالات والمعلومات قربت كل الشعوب بعضها ببعض، وأوجدت مصالح مشتركة بين الدول الإسلامية والبلاد التي يدين معظم أفراد سكانها بتلك الديانات والفلسفات. إن الحوار مع أهل الديانات السماوية وكذلك مع أتباع الفلسفات الوضعية مطلب شرعي؛ سواء كان بهدف إيصال الخير والصدق إلى الناس، أو من أجل إيصال الناس إلى الحق والصدق؛ خاصة في وقت أصبح العالم فيه على صفيح ساخن يهدد العالم بنشوب حرب تأتي على الأخضر واليابس، فتكون كارثة مدمرة للإنسانية جمعاء.

والمسلمون هم أولى الناس بالمبادرة إلى حوار شامل لإنقاذ الإنسانية مما تعاني منه، وإظهار ما لديهم من مبادئ ومثل وعقائد وآداب لأن الناس في أمس الحاجة إليها.

فالديانات السماوية مصدرها الوحي والنبوة، أما المعتقدات أو الفلسفات الوضعية فمصدرها اجتهادات بشرية عقلية، وما تراكم عبر القرون الغابرة من عادات شعبية وتقاليد وقصص وأساطير سيطرت على أذهان الناس. ومن هذه المعتقدات أو الفلسفات الوضعية: الهندوسية والبوذية والجينية والطاوية، وغيرها المنتشرة في ربوع الهند والصين واليابان وما جاورها من بلاد.

فالبوذية والهندوسية هما الأساس، ولهما الغلبة، فأعداد اتباعهما تفوق أعداد المنتمين إلى الديانات السماوية، أما الفلسفات والمعتقدات الأخرى السائدة في الشرقين الأدنى والأقصى فتتفرع عنهما أو ترجع إليها، وقد انقرض بعض منها، وما زال كثير منها منتشرًا بين الشعوب.

وكانت الهند منذ أقدم العصور مسرحاً للغزوات ونزوح أعداد كبيرة من الطورانيين والآريين إليها والاستقرار فيها، يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: إن سكان الهند فقد أخذوا عن الطورانيين نسب أجسامهم وأشكال وجودهم، وعن الآريين أخذوا اللغة والدين والقوانين والسجايا والطبائع.^(١) وقد فقد سكان الهند الأصليون المعروفون بالدراورد

(١) الحضارة الهندية: ١٠٤.

هويتهم الدينية والعقدية وشخصيتهم الاجتماعية والفكرية أمام الزحف المتتالي للآريين والطورانيين وغيرهم.

وإن التمازج بين الطورانيين والآريين هو الذي ولّد نظام الطبقات بين سكان الهند الأصليين المغلوبين وبين الوافدين المهيمنين من الآريين والطورانيين، فتشكل من الآريين طبقة رجال الدين البراهمة (Brahman) وطبقة المحاربين (Kastria) ومن الطورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vasya) أما السكان الأصليون فقد تحولوا إلى الخدم والعبيد أو طبقة الشودر (Sudra) والمنبوذين.

الهندوسية:

تكونت الفلسفة الهندوسية من عبادة القوى والمظاهر الطبيعية، فاختار الأوائل آلهة منها ومن الحيوانات والعناصر الطبيعية مثل النار والهواء والعواصف والشمس وغيرها.

فمنذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإلى القرن الثامن قبل الميلاد كان قد انتشر بين الهندوس فكرة الإله "فارونا" (Varama) الذي ينظم تنظيم القوى الطبيعية، والإله "ياما" (Yama) إله الموت، والإله "اندر" (Indar) المتخصص في الحروب والعواصف. فالفيدا الكتاب الهندوسي المقدس تتضمن الأناشيد والترانيم التي تقسّد

الشمس والنار والعواصف كما يوجد فيه ذكر الأفاعي والأبقار والقروذ وغيرها ضمن الآلهة.

ثم جمع بعض الكهنة آلهتهم في "براهما" كموجد والخالق للعالم و"فيشنو" كالمدير والمنظم للأمور الكونية، و"شيفا" كالذي يملك قوة الإهلاك والتدمير.

ويتضمن الأوبنيشاد (Upanshad) التراث الفلسفي الهندوسي حول "الإله" و"الروح" و"براهما" وكان "شنكر" هو الذي قدم تصور الروح المطلق أو الواحد الأوحد وأطلق مثل هذه الأوصاف عمل "براهما" بأنه فوق جميع الآلهة.

إن مجموعة "الفيدا والأبنشد والبوراننا" هي الكتب المقدسة في الفلسفة الهندوسية تعتمد عليها أساساً الديانة الهندوسية المنتشرة على رقعة كبيرة من العالم، ويمكن أن تضاف إليها مجموعة برهمان جرائنت"، وهي في الواقع شرح وتفسير "للفيدا".

ويعتبر "رجفيدا" و"يجرفيدا" و"سام فيدا" من أقدم الكتب ألّفت في أدوار ثلاثة يصعب تحديدها، ويوجد اختلاف كبير بين تقدير العلماء الهندوس والمستشرقين الغربيين عن زمن تأليف هذه الكتب، وحدد البعض نحو أربعة آلاف سنة.

كما يوجد اختلاف كبير في تحديد أماكن بعثة "الرشى" أو

"النبي" الذي أوحيت إليه تلك الكتب.

وتعتبر مجموعة "الفيدا" أكثر الكتب استناداً وأصالة، وهي القاعدة الأساسية للديانة الهندوسية أو الفلسفة الوضعية التي يتبعها الهندوس يتلوها في المكانة "الأبنيشد" وبعض المحققين الهندوس يرجحونه على "الفيدا" أيضاً.

كما أن البورانا" يعتبر أكثر الكتب تداولاً وقبولاً بين الناس، وهو سهل الأسلوب واضح المنهج؛ على عكس الفيدا فإن فيها صعوبة وتعقيداً.

يتضمن "البورانا" تاريخ خلق الكون والقبائل الآرية كما يتضمن أيضاً حياة وتراجم العلماء الربانيين فيها وقد قسم "فياس" هذه الكتب في ١٨ جزءاً.

ومعنى كلمة "الفيدا": المعرفة" أو الحكمة"، تشمل "رجفيدا" على ١٠٢٨ بيت شعر، و"سام فيدا" على ٥٨٥ شعراً. وفي "يجرفيدا" ترانيم خاصة تتلى وقت تقديم "القرايين إلى الآلهة.

وفي "اثرفيدا" أدعية وابتهالات وعلاج السحر وبيان تأثير القوى الشريرة.

ومما يبعث على العجب أن بعض الدارسين قد جمعوا

مجموعة كبيرة من النبوات عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وأوصافه وشمائله من "أهرفيدا" ومن "البوراننا" وغيرهما من الكتب المقدسة لدى الهندوس.^(١)

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل أن الأديان ترجع إلى أصل واحد ومهما حصل التغير في الكتب المقدسة القديمة فما زالت آثار الصدق باقية في بعض آياتها وتشريحاتها.

فإن صح ذلك فهو برهان جديد على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كونه خاتم النبيين ورسول رب العالمين. وهذا الأمر يثير تساؤلات من جديد حول ما يسمى بالفلسفة الهندوسية" هل كانت في الأصل هي ديانة سماوية دخلها التغير والتبديل على مرور الزمان؟ وهل ظاهرة عبادة الأصنام دخيلة أوجدها المحرفون كما فعل عمرو بن لحي في البلاد العربية بتغيير ملة إبراهيم عليه السلام وإدخال الوثنية في التعاليم الهندوسية؟ يقول الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}

(١) أنظر على سبيل المثال "النبي العربي في كتب الهنالك المقدسة" لعبد الرحمن الجيري وكتب ورسائل لشمس نويد عثمان وإمام الدين رام نكري والشيخ ثناء الله الأمرتسري والشيخ إبراهيم السيكالكوتي وغيرهم و إن كان يرى آخرون أن هذه المبشرات موضوعة ولم يشر إليها البيروني وهو من أقدم الدارسين للديانات الهندية. والله أعلم

وجرت سنة لله سبحانه أن لا يعذب أمة حتى يبعث فيهم رسولاً،
فهل من المعقول أن هذا العدد الهائل من البشر المنتشر من الهند
إلى الصين وما جاورها من البلاد لم يبعث فيهم رسول ولم يأت
إليهم نبي؟!!

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن أحد علماء الهند
المعروفين بالعلم والذكاء وهو العلامة الكبير الشيخ مناظر أحسن
الكيلائي رحمه الله كان يرى أن "ذا الكفل" المذكور في القرآن
الكريم قد يكون هو "بوذا" الذي ولد في كبل وستو" وأنه ربما
كان نبياً ، ثم حرّف أتباعه تعاليمه بعد مرور الزمن، علماً أن
المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود من "ذي الكفل" ولم يقدموا
مستنداً قوياً على ما ذهبوا إليه بأن المراد من ذي الكفل هو إلياس
عليه السلام لاحتمال أن يكون غيره.

هذا الرأى شبيه بما ذكره الإمام ابن حزم الظاهري عن
"زرادشت" حيث يقول:

أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته وليست
النبوة بمدفوعة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن صحت عنه
معجزة.^(١)

(١) الفصل في الملل والنحل ص ٦١.

قام المستشرق الفرنسي الشهير "غوستاف لوبون" بدراسة
أديان الهند، وألّف كتابه المعروف عن "حضارة الهند" يلخص فيه
معتقدات الهندوس في النقاط التالية:

(١) عبادة القوى الطبيعية (٢) تشخيص هذه القوى بأسماء
الآلهة (٣) اعتقاد خلود الروح (٤) عبادة الأجداد (٥) تقديم
القرايين إلى الآلهة وتخصيص بعض منها للمطر، وآخر للصحة، وإله
آخر للمال، كما أن الاعتقاد بتناسخ الأرواح من عقائد الهندوس
عموماً.

تبنى الفلسفة الهندوسية على النظام الطبقي والفرقة
العنصرية بين أجناس البشر وتوجد الإشارة إلى هذه الحقيقة في
"فيدا" الكتاب المقدس لدى الهندوس.

كما أن "شرائع منو" المعروف "بمنو شاستر" تقرر ذلك
وتحدد الطبقات في النظام الاجتماعي الهندوسي.

و هذه الطبقات البشرية في الفلسفة الهندوسية الوضعية
كالتالي:

(١) البراهمة: (وهم طبقة الكهان ورجال الدين وهي أعلى
الطبقات).

(٢) الأكشرية: (طبقة المحاربين وعليهم الدفاع عن البراهمة

وتوفير الأمن في المجتمع).

(٣) الفيشية: (وهم طبقة الزراعة والتجار، عليهم توفير وسائل العيش للبراهمة والمخاربين).

(٤) الشودرا: (وهم أسفل الطبقات، ويسمون بالمنبوذين أيضاً ليس لهم أي حق ويجب عليهم أن يخدموا الطبقات العليا، وهم أنجاس مناكيد في الفكر الهندوسي ليس لهم أن يقرءوا الكتب الدينية أو يشربوا من نفس الكوب الذي يشرب منه البراهمة.

ويعلل المشرعون لهذه الفلسفة المبنية على العنصرية والفوارق الطبقية قائلين: إن الرب المولى حينما أراد أن يتكاثر الجنس البشري فخلق من فمه: البراهمة، ومن ذراعه: الأكشيرية، ومن فخذه: الفيشية، ومن رجله: الشودر أو المنبوذين، فالدرجات متفاوتة وفق خلق الرب لتلك المجموعات البشرية.

والمسؤوليات أيضاً موزعة، فالرب عندهم هو الذي حدد الأعمال والمسؤوليات، لكل من تلك الطبقات حسب درجات تلك الفئات.

فعهد إلى البراهمة دراسة الكتب المقدسة والأسفار المعروفة بالفيديا، وتعليمها وتقديم القرابين إلى الإله وقبول العطايا من الفئات الأخرى.

و فرض على الأكشيرية حماية الشعب والتضحية في الدفاع
عن البراهمة وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات.
وخص الفيشة، بتربية المواشي وأداء الزكاة وتقديم
التضحيات في سبيل إسعاد الطبقات العليا إلى جانب ممارسة
الأعمال التجارية والأنشطة الاقتصادية.

أما "الشودر" فأوجب عليهم أن يخدموا تلك الطبقات
العليا وخاصة البراهمة وأن يعيشوا حياة الذل طوعاً أو كرهاً.
إن الفلسفة الهندوسية قائمة على تقديس المظاهر الطبيعية
المختلفة وعبادة كل شيء يضر أو ينفع من الأبقار والثعابين
والقروود وغيرها لاعتقاد الهندوس بأنها تمثل قدرات وصفات الآلهة
المختلفة من أجل ذلك كثرت لدى الهندوس الأصنام والتمائيل،
فالمعابد الهندوسية تغص بملايين الأشكال من التماثيل والأصنام
والأشكال الغريبة والموحشة.

يقول الدكتور رادها كرشنن رئيس الجمهورية الهندية
الأسبق وأحد فلاسفة الديانة الهندوسية الأبرز مفتخراً على انتمائه
الديني: "إن من سعة وسماحة الديانة الهندوسية أن من يعبد ألف إله
من شجر وحجر هو هندوسي، ومن لا يعبد شيئاً يبقى أيضاً
هندوسياً ، ولا يخرج من دائرة الهندوسية الواسعة والفضفاضة

بسبب ترك بعض العقائد أو التقصير في العبادة والعمل".
وقد مال بعض المنظرين الهندوس إلى اختصار الطريق
وتقليل عدد الآلهة، وذلك بتحديد الآلهة الأساسيين وهم ثلاثة:

(١) الإله شيفا (Shiva)

(٢) الإله الفيشنو (Vishnu)

(٣) الإله براهما.

فالأول هو إله الحياة والتغير في الكون أما الثاني فهو الحافظ
لنظام الكون أما الخالق البارئ فهو "براهما" وهو فوق الآلهة جميعاً.
علماً أن عامة الناس لا يفرقون بين إله وإله ويشركون بها
جميعاً وينسبون إلى كل منها أنواعاً معينة من الكمالات وإن كان
بعض المثقفة من الهندوس يصرحون أحياناً بأن الله هو واحد وهو
الذي حل في باقي الآلهة وهو برهما أو رب الأرباب.

ومن الكتب المقدسة لدى الهندوس إلى جانب "فيدا":

٥- مها بهارتا (Maha Bharta)

٦- كيتا (Gita)

٧- يوجا واسستها (Yoga vesisthe)

٨- رامائنا (Ramayana)

تتكون الفلسفة الوضعية الهندوسية بمزيج من العادات

والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في سكان الهند الأصليين وما جلبه إليها التورانيون والغزاة الآريون وما تراكمت خلال القرون الطويلة من الأساطير.

ومن معتقدات الهندوس الإيمان بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح وإقرار بنظام الطبقات وتقديم القرابين إلى الأصنام.

ويعتبر خروج "بوذا" و"مهاوير" من الديانة الهندوسية وإعداد فلسفة جديدة ونشر معتقدات مختلفة عن الهندوسية يعتبر ضربة قاضية على الهندوسية إلا أنها بسبب كثرة عدد أتباعها وانطواء أهل الهند على أنفسهم وابتعادهم حضارياً عن العالم الخارجي خفف آثار الانشقاق وساعد في استمرارها كمذهب غالبية عدد السكان.

الجينية:

ومن الفلسفات الوضعية ذات صبغة دينية أيضاً ما يسمى "بالجينية" وهي في الواقع حركة عقلية حاولت التحرر من سلطان الديانة الهندوسية وهي تعتمد في نظامها التطبيقي على الرياضات الشاقة والمراقبات المتعبة وطريقها الرهبانية لكن غير رهبانية البراهمة.

فالجينيون يرون أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا

الكون وأن أرواح الإنسان والحيوانات كلها خالدة وتجري عليها التناسخ.

وهو دين مسالم أو فلسفة تبالغ في البعد عن العنف وتكره حتى قتل الهوام والحشرات الصغيرة.

رفض الجينيون آلهة الهندوس (برهما، فيشنو، وشيفا) ولكن جعلوا القديسين أو الجيناوات الأربع والعشرين أنفسهم آلهة تعبد. فلا صلاة عند الجينيين ولا قرابين للآلهة، ولا يقرون بالطبقات بين أجناس البشر وقد قسم "بارسواناث" أحد أبرز الكهنة الجينيين إلى الخاصة وهم الرهبان، والعامة وهم الذين يؤيدون النظام.

يؤمن الجينيون بالتناسخ، كما يؤمنون بالحسنة والسيئة، والنجاة في الفلسفة الجينية هي في التخلص من قيود الحياة، وإن السبيل إلى النجاة شاق وعسير ولا بد للنجاة من قهر جميع المشاعر والعواطف، ومن غرائب الأمور أن الجينيين لا يرون بأساً العرى أمام الناس كما يؤيدون الانتحار أيضاً للتخلص من مشاكل الحياة. و قيل في خلاصة الفلسفة الجينية اليواقيت الثلاثة:

الياقوتة الأولى: الاعتقاد الصحيح.

الياقوتة الثانية: العلم الصحيح.

الياقوتة الثالثة: الخلق الصحيح.

ولا شك أن هذه حكم مفيدة وآداب لطيفة إذا تم تطبيقها في الواقع العملي، ويصف الجينيون رائدهم الديني "مهاوير" المولود في ٥٩٩ ق م بأوصاف الكمال فيقولون: إنه كان حراً كالطير، جسوراً كالفيل، قويا كالثور، مهيباً كالأسد، ثابتاً كالجبل، عميقاً كالبحر، وديعاً كالقمر بهياً كالشمس طاهراً كالإبريز وذلك لأنه كان قد مارس الرياضة الروحية والجسدية الشاقة طوال ١٢ عاماً.

يغلب على التفكير الهندوسي الميل إلى تعدد الآلهة، بل قد بلغ التعدد عند الهندوس إلى درجة أنهم يعبدون الماء والنار والأشجار والجبال وكل شجر وحجر أو جماد وبقر وإن كان تاريخ الفلسفة الهندوسية لا يخلو من فكرة التوحيد فيطلقون على الخالق الحقيقي رب الأرباب وإله الآلهة لكنهم لا يترددون في عبادة الأصنام وتقديم القرابين للآلهة.

أما الجينيون فإن كانوا قد رفضوا في بداية الأمر تصور الإله أو وجود روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون وذلك بسبب سوء تصرف الكهنة الهندوس والذي ألجأهم إلى إيجاد فلسفة جديدة لكنهم في نهاية الأمر جعلوا "مهاوير" إلهاً بل بدؤوا يعبدون الكهنة

الأربعة والعشرين المعروفين بالجيناوات.

أما الأدب المأثور عن بوذا فيكاد يخلو من ذكر الإله إثباتاً
أو نفيّاً بل كان يمنع أصحابه من الخوض في اللاهوت أو البحث
عما وراء الطبيعة مع ذلك أصبح بوذا هو الإله لدى أتباعه فيعبدون
تمثاله ويسجدون أمامه.

السيخية:

مؤسس الديانة السيخية أو فلسفة السيخ هو غرو نانك
(Gourou Nanak) ولد في بيئة هندوسية وبيت وثني وعاش في مناخ
إسلامي وتأثر ببعض أهل التصوف من المسلمين واختار نهجاً
جديداً للحياة الدينية وفلسفة جديدة لتزكية الروح.
فكان يؤمن بإله واحد ليس له مثل ولا شبيه وعلمه محيط
لكل شئ.

ولد غرونك (Gourou Nanak) في عام ١٤٦٩ ومات في
١٥٣٩ رافق أثناء حياته الوظيفية بعض المنشدين المسلمين واختفى
عن الأنظار فترة ثم ظهر ينادي بأنه صاحب رسالة ومبعوث إلى
المسلمين والهندوس جميعاً وتتلخص دعوته في ثلاث قواعد هي:
٤ - الكد والعناء.

٥- الإحسان مع الآخرين.

٦- التأمل والتفكير.

تعاقب على زعامة الشيخ تسعة أشخاص بعد وفاته ويلقب كل منهم "بغورو" أو "المعلم" و"الشيخ" معناه "المتعلم" أو "المريد".

و في عهد الغورو الخامس أرجن (Arjun) تم بناء المعبد الذهبي في أمرتسر بولاية بنجاب.

في عصر الغورو العاشر غوبند سينغ تم إنشاء منظمة "الخالصة" ولقب الشيخ بـ (Singh) (الأسد).

والتزم الاتباع حياة الزهد والتقشف والامتناع عن شرب الخمر والتدخين وأكل لحم الخنزير.

و"غرنت صاحب" هو كتاب الشيخ المقدس، وتختلف الفلسفة السيخية عن "الهندوسية" فهي في تصورهما للإله قريبة من مفاهيم الإسلام أكثر ميلا إلى التوحيد وتحتوي كتابهم المقدس على خليط من المفاهيم الإسلامية وغير الإسلامية وهو عبارة عن ٦٠٠٠ ترنيمة الغورو الخمسة الأوائل.

و شعارات الشيخ الخمسة تبدأ بحرف الكاف وبها يتميز الشيخ عن غيرهم وهي:

٦- الكيس (Kesh) الشعر يطيله السيخي المنتمى إلى الخالصة.

٧- المشط (Kangha) يحمله كل سيخي لترتيب شعره.

٨- الكشة (Kaccha) سروال قصير شبه بشورت عسكري.

٩- الكرا (Kara) سوار من الحديد يضعه السيخي في معصم يده.

١٠- الكربان (Kirpan) خنجر يحمله السيخي.

ومن لم يلتزم بالكافات الخمسة يعتبر خارجاً عن الملة، مرتدّاً، ويقتصر عبادة السيخ على قراءة الكتاب المقدس والسجود أمامه وتقديم القرابين له.

ويقوم السيخ أيضاً بحرق جثمان الميت وإلقاء الرماد في نهر "كنكا" المقدس كما هو المعهود لدى الهندوس.

لا توجد في أدبيات السيخ أو كتابهم المقدس ما يدفع الإنسان إلى العنف وأناشيد الكتاب المقدس تشمل على وصايا أخلاقية، وإن كانت هناك ثارات وذكريات مؤلمة مع المسلمين فقد قام السيخ بذبح وحرق مئات الآلاف من المسلمين أثناء رحلة عذاب المسلمين إلى باكستان في عام ١٩٤٧م.

وبعد اقتحام الجيش المعبد الذهبي للسيخ واغتيال رئيسة

وزراء الهند الأسبق وما أعقب ذلك من أحداث دامية عادت
الأمور إلى الطبيعة وأصبح الشيخ يتعاطفون مع المسلمين.
وهناك ترانيم وأناشيد في كتاب الشيخ المقدس فيه مدح
لمحمد صلى الله عليه وسلم.

نماذج من بنود إيجابية في الأديان الشرقية:

في كتاب الهندوس المقدس (Gita) جاء ضمن تعليمات
كرشنا: "إن الناسك الحق هو الذي لا يبغض أحداً، ولا يشتهي
شيئاً ولا يرى غير الحق، ويجري وراء واجبه دائماً... ويرى
جميع الأرواح كروحه ولا يفرق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجه
الله وحده".

وفي الأصول السبعة لاتباع الفلسفة الجينية:

- ٣- أخذ العهود والمواثيق مع القادة الرهبان لأن يتمسك
المريد بالخلق الحميد ويقطع عن الخلق السيئ.
 - ٤- والتقوى هي المحافظة على الورع والاحتياط في الأقوال
والأعمال وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب
الأذى والضرر لأي كان مهما كان حقيراً.
- وفي تعاليم بوذا تصريح:

بأن الاحترام للحياة إنسانية كانت أو حيوانية هي من أهم الأخلاق البوذية فليس لبوذي أن يقتل حيواناً في لهو كالصيد، أو في جد كذبجه للأكل بل عليه أن يرفق بالحيوان، ويعده أخاه في الخلق، ولا يراه خلقاً أدنى منه لأن الهدوء الروحي والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا.

والمحبة الشاملة من أهم وأفضل الأعمال الحسنة وان الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التي تحرر القلب من شوائب الشر..... ويجب على الإنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق.

فإذا كانت هذه هي تعليمات ومبادئ "البوذية" و"الهندوسية" و"الجينية" على حد سواء فمن المستغرب حقاً أن يعتدي بوذي أو هندوسي على إنسان مسلم، وإذا كان قتل الحشرات والهوام جريمة ومعصية في الفلسفة الجينية فحياة الإنسان ولو كان مسلماً - أحق وأحرى أن يحافظ عليها.

تعامل الملوك المسلمين مع غير المسلمين:

غالبية سكان الهند هندوس و بوذيون مع أن المسلمين حكموا الهند نحو ثمانية قرون و تركوا في ثقافتها أثراً غائراً و ملأوا

ربوعها. بمعالم حضارية مثل "تاج محل" و"القلعة الحمراء" و مئات من المساجد الملكية الفخمة^١ و مازال المسلمون يعيشون كأقلية بين نحو مليار نسمة من غير المسلمين و هذا أكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف وان الحكام المسلمين لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام أو ترك عبادة الأوثان.

يقول غاندي وهو أكبر زعيم هندوسي بلا منازع:
"إن الإسلام هو صوت الحق، ووقتما كان الغرب في ظلمات الجهل طلع على أفق الشرق نور الإسلام كنجم ساطع^٢ لقد جاء الإسلام ليوفر السكينة في قلوب الإنسان المضطربة والقلقة في العالم، إن الإسلام ليس ديناً كاذباً^٣ وقد أصبحت لدى قناعة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف".^(١)

و"يقول رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو في كتابه "من السجن إلى الرئاسة:

"لقد ترك الإسلام بصمة واضحة في ثقافة الهند^٤ فقد علّم المسلمون أهل الهند أساليب الأكل واللباس وقضى الإسلام على عديد من التقاليد الوحشية السائدة في الهند مثل "ستي" (إحراق زوجة الميت بعد وفاة زوجها) كما ترك المسلمون معالم حضارية عديدة".

(١) جريدة هندو - لاهور ، عدد ١٩٣٨/٥/٢٢ .

ويقول:

"إن أثر الغزاة من الشمال الغربي و من الإسلام على الهند كان عظيماً فقد كانت لفكرة الاخاء الإسلامية و للمساواة النظرية بين المسلمين سحرها الكبير' و خاصة عند الطبقات الهندوسية المحرومة من أيما نظير لهذه المعاملة المتكافئة.

و من هذا الأثر الايديولوجي نشأت حركات مختلفة تهدف إلى عملية صهر و تأليف ديني و دخل كثيرون في الإسلام".(١)

لقد تعامل المسلمون الذين فتحوا بلاد الهندوس والبوذيين بمنتهى الرفق وكمال العدل و غاية السماحة والمدارة مع الرعايا البوذيين والهندوس وأتباع كافة الفلسفات الوضعية والمعتقدات الدينية' تشهد الوثائق التاريخية بأن الحكام المسلمين على اختلاف أصولهم العربية والتورانية والمغولية أعطوا رعاياهم من غير المسلمين كامل حقوقهم' وحریتهم الدينية' فلم يهدموا معابدهم بل خصصوا لها أراضي واقطاعات بمراسيم ملكية.

حتى إن أكثر الملوك التزاماً بتعاليم الدين الحنيف والذي يروج عنه أنه كان شديداً مع غير المسلمين قد أعطى عشرات من المعابد الهندوسية أراضي واقطاعات.

(١) من السجن إلى الرئاسة ص ١٦٤.

يقول البرفيسور "سري رام شرما" وهو من الهندوس في كتابه المعروف "الإمبراطوية المغولية في الهند":
"لم أجد أي وثيقة تثبت أن الإمبراطور "بابر" قام بهدم أي معبد هندوسي ولا دليل على أنه آذى أي هندوسي من أجل أنه هندوسي".^(١)

ويقول مؤلف هندوسي آخر وهو "كالكا رنجن قانون كو":
"إن الحاكم المسلم "شير شاه سوري" قد أقام نظاما عادلا للحكم و وفر للهندوس فرصة حقيقية للانتعاش الاقتصادي والسياسي' إنه حاول أن يؤسس وحدة قومية ووطنية بين المسلمين وغيرهم".

وقد نقل مؤلف كتاب دعوة الإسلام السيد/ تي، دبليو، آرنلد أن الملك الأورنك زيب عالمكير- الذي يتهمه أعداءه بالعصبية-:

كان قد رفض أن يطرد اثنين من موظفي البلاط لكونهما مجوسيين' يعبدان النار، وقال أن الوظائف تمنح بناء على الكفاءة وليس لاعتبارات أخرى".

ويقول أحد الأساتذة الهندوس وهو السر C.P. رائى:

(١) الإمبراطورية المغولية في الهند ٥٥.

"إن عصر أورنك زيب تميز بمنح الهندوس مناصب رفيعة واقطاعات و أراضي كثيرة.

لقد عهد أورنك زيب عالمكير إلى الهندوس منصب حاكم الولاية وقائد الجيش ونواب الحكومة حتى ان الشخص الذي أسند إليه منصب نائب السلطنة في ولاية أفغانستان كان أحد الهندوس من سلالة راجبوت".

وفي عام ١٩٣٦ كتب أحد كبار المفكرين الهندوس وهو الباندي سندر لال مقالا تحت عنوان: حكم الإنجليز في الهند يقارن فيه بين العصر الإسلامي والعصر الإنكليزي الاستعماري يقول فيه: "إن عصر الأباطرة المغول: أكبر وشاهجهان وعالمكير وآخرين كان التعامل فيه بالمساواة والعدل بين الهندوس والمسلمين من غير تمييز أو انحياز إلى فئة دون أخرى".

وهناك شواهد تاريخية ووثائق عديدة أن الملك المسلم أورنك زيب عالمكير كان قد أصدر مراسيم لمنح عديد من كهنة المعابد الهندوسية عطايا كما خصص اقطاعات وأراضي للمعابد نفسها. ومازالت بعض تلك المراسيم موجودة ومتوارثة فيمكن أن يشاهد مرسومين من هذا النوع في "معبد سوميشورناث" بمدينة إله آباد لدى كهنة المعبد.

وكان عشرات من الهندوس يحظون بمناصب رفيعة في أجهزة السلطة.^(١)

بل كانت هذه سياسة مستحكمة لدى الحكام المسلمين عموماً من أجل إدارة أمور بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين وعملًا بمبدأ العدل بين الرعايا في الإسلام.

يوصي الامبراطور بابر ابنه همايون:

"يا بنيّ إن أرض الهند ذات ديانات وملل كثيرة فأحمد الله على أنه أعطاك الملك وعليك أن تبتعد عن كافة أنواع العصبية وأن تقيم العدل بين الناس، ويمكن نشر الإسلام بالعدل بين الناس وليس باستخدام السيف فحاول أن تجمع كافة أهل الديانات كما جمع الله سبحانه العناصر الأربعة في جسد الإنسان ليبقى الحكم مستقراً.^(٢)

كذلك الحال كان مستمراً إلى الأيام الأخيرة من حكم المسلمين في الهند فالأمير الشجاع الشهم السلطان تيبو الشهيد الذي يتهمه بعض المغرضين بممارسة الظلم ضد بعض الفئات من غير المسلمين وإجبارهم على اعتناق الإسلام، يقول عنه المؤرخ

(١) مآثر الأمراء ٣٥/٢.

(٢) تقسيم الهند ص ٣٩.

الهندوسي رام سندريائي:

"إنه لم يجبر أحداً بل إن خمسمائة شخص اعتنقوا الإسلام طواعية" وكان يوجد عديد من البراهمة في بلاطه على مناصب رفيعة^١ وكان يرسل هدايا إلى القائمين بشئون المعابد الهندوسية^٢ و مازالت بعض الهدايا العينية منها موجودة في معبد "رنكات" في "سري رنكاتنم".

و لم يقدم ببناء المسجد عند القصر حيث كان المعبد الهندوسي موجودا هناك منذ زمن بعيد إلا بعد الاستشارة مع الكهنة والتنسيق معهم تجنباً من وقوع الفتنة بين المسلمين والهندوس.^(١)

بين المناظرة والحوار:

كان الاستعمار البريطاني بدأ بسط سيطرته تدريجياً على الهند من خلال شركة الهند الشرقية إلى أن امتلك ناصية أمور الدولة كاملة في عام ١٨٥٧م وقضى على حكم المسلمين المستمر

(١) لتفاصيل موضوع البحث وما يتعلق بالديانة الكنفوشية والطاوية وغيرهما من الأديان الشرقية والفلسفات الوضعية يمكن مراجعة بحث الكاتب الذي قدمه في مؤتمر الحوار المنعقد بمكة المكرمة تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين و بدعوة من رابطة العالم الإسلامي.

منذ نحو ثمانية قرون.

ومع بداية الحكم الإنكليزي توافدت جموع من المبشرين النصرارى وقامت بحملة شعواء ضد الإسلام وبدأ القساوسة بالتشكيك في القرآن وفي عقائد المسلمين فقام نخبة من العلماء المسلمين بعد تلك الهجمات فألّفوا الكتب وألقوا المحاضرات وخاضوا المناظرات وكان في طليعة هؤلاء العلماء الشيخ الإمام العلامة رحمة الله الكيرانوني مؤلف كتاب "إظهار الحق" الشهير الذي لم ينسج على منواله ومؤسس المدرسة "الصولتية" في مكة المكرمة ومساعدته الدكتور وزير خان والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفي سنة ١٢٩٧هـ ومؤسس "جامعة ديوبند الإسلامية" في الهند والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس "ندوة العلماء" بلكنائو و "الجامعة الرحمانية" بمونجير والشيخ عنايت رسول الجريا كوتي وآخرون.

ثم انضم الهندوس أيضاً إلى النصرارى في الهجوم على معتقدات المسلمين واتخذت الاجتماعات المشتركة عنوان: "مهرجان معرفة الإله" (ميله خدا شناسي) يشارك فيه الجماهير من أتباع الديانات الثلاثة: الإسلام، المسيحية، الهندوسية. وكانت لهذه المهرجانات صدى واسع فقد كانت مناظرات شعبية يحاول فيها

كل فريق إظهار تفوقه وبراعته على الآخرين.

وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي يتمتع بذكاء خارق وقدره نادرة على إقامة أدلة قوية وبراهين دامغة وكان نتيجة ذلك ظهور كتب مثل "مباحثه شاهجانفور" وانتصار الإسلام وحجة الإسلام و"قبله نما" وهي تزخر بأدلة عقلية على إثبات التوحيد ووجود الخالق وإثبات النبوة والرد على الإلحاد والشرك، ودحض مفتريات الأعداء.

فكان شأن هؤلاء العلماء شأن الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: "الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح" والإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب "هداية الحيارى من اليهود والنصارى" مع اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأدلة والبرهان، وكان من أنجح المناظرين وأبرعهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي هزم القسيس "فندر" و سار على نهجه الشيخ أحمد حسن ديدات الذي هزم القسيس "سواغارت".

أما الحوار الذي تتطلبه الظروف الراهنة فهو يختلف عن روح المناظرات الدينية وطبيعتها.

إن هدف الحوار هو صد الفتنة والحيلولة دون هجمة شرسة ومنع الإساءات المتكررة ضد الإسلام وضد نبي الرحمة صلى

الله عليه وسلم.

وإن انقاذ ما يمكن انقاذه هدف نبيل وإن حث أتباع الديانات والفلسفات الوضعية على أن يجتمعوا حول طاولة الحوار على اختلاف وتباين المعتقدات للبحث عن سبل التعايش الآمن مطلوب شرعا وعقلا.

وإيجاد عالم يسود فيه السلام ويستطيع أن يعيش فيه الإنسان من غير خوف من تفجير أو تدمير ومن قتل بغير حق أو إرهاب، وإيجاد مجتمع إنساني يحرص كل فرد منه على إيصال الخير إلى غيره ولا يشبه غابة موحشة يريد كل كائن منها افتراس من تجده أمامه.

إن مثل هذا الحوار يهدف إلى دعوة الناس إلى السلام الذي يدعو إليه الإسلام، والاتفاق مع أتباع الفلسفات الوضعية على حفظ الأنفس والأعراض والتعاون على حفظ العقول والأديان والأموال، وإن صيانة هذه الأشياء من الإعتداء عليها هي من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ومن خلال الحوار مع أتباع الفلسفات الهندوسية والبوذية يمكن تفنيد تلك الإشاعات المغرضة التي تم ترويجها بهدف توسيع هوة الخلاف بين المسلمين والهندوس والبوذيين بأن الحكام

المسلمين مارسوا الظلم والتعسف ضد الهندوس فقاموا بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وهدم المعابد والأصنام، وقد تسربت هذه الإشاعات المغرضة إلى بعض كتب المناهج الدراسية ما يؤثر سلباً على الجيل الجديد من الهندوس ويثير حفيظتهم ضد المسلمين مع أن الحقائق التاريخية تفند تلك الأكاذيب وأن المنصفين من المؤرخين غير المسلمين من أمثال البروفيسور "رام شرما" و "تارا شنذر" و "بي.إن باندي يؤكدون أن تعامل الحكام المسلمين مع الهندوس كان بمنتهى العدل طوال فترة حكم كلي أو جزئي للمسلمين منذ عصر محمد بن قاسم الثقفي ٧١١م إلى نهاية حكومة بهادر شاه ظفر آخر ملوك المسلمين في عام ١٨٥٧م ولم يتم إرغام أحد على قبول الإسلام لأن الإسلام لا يقر بذلك ولأن وجود الأكثرية الهندوسية حوالي دلهي وكنائز وأحمد آباد وأكبر آباد وغيرها من العواصم أكبر دليل على ذلك.

كما أن المؤرخ الإنكليزي المعروف "سر تامس آرنلد" في كتابه دعوة الإسلام (Preaching Of Islam) يثبت ذلك بأدلة واضحة أن المسلمين لم يجبروا الهندوس على قبول الإسلام.

لذا ينبغي أن يفتح باب الحوار وحول كافة النقاط الحساسة و في ضوء المعلومات والوثائق الدقيقة و في جو التفاهم بين

المتحاورين.

ولا ينبغي أن يقتصر الحوار بين علماء الدين من المسلمين والكهنة و رجال الدين من الهندوس و البوذيين و غيرهم من أهل الديانات الشرقية كما لا ينبغي أن يكون الحوار حول صحة أو بطلان ما يعتقد كل طرف من أطراف الحوار بل ينبغي ان يكون موضوع الحوار هو إمكانية التعايش مع التعدد والاختلاف في وجهات النظر والمعتقدات، و إبراز ما في تعاليم كل الأديان من جوانب التسامح مع الإنسان عموماً والتأكيد على التعامل بالرفق مع كل كائن حي مهما صغر حجمه و كثر عدده و المكانة التي يحظى بها الإنسان بين تلك الكائنات الحية، فإن روح الإنسان أعلى منزلةً و أغلى ثمناً و إن إزهاقها من غير حق أعظم جريمة و أكبر معصية.

إن الحوار الإسلامي المسيحي قد فشل رغم استمراره منذ أكثر من أربعين عاماً بسبب اقتصره على رجال الدين لذا يجب توسيع دائرة الحوار لتشمل المعتدلين من رجال السياسة و رجال الفكر والثقافة أيضاً لأنهم يملكون أدوات التأثير في الجماهير أكثر مما يملكه الكهنة و رجال الدين المنعزلين في الصوامع و المعابد. و ينبغي أن يكون الحوار حول النقاط التالية:

- أهمية التعايش الآمن مع أتباع الديانات المختلفة.
- ضرورة التعاون لنشر الفضيلة و محاربة الرذيلة في المجتمع و محاربة تيارات الفساد الأخلاقي والإلحاد على كافة المستويات.
- التعاون في مجال مساعدة الفقراء و إغاثة المنكوبين في الكوارث الطبيعية من خلال مؤسسات طبية و اقتصادية خيرية مشتركة خاصة في وقت الأزمات الكبيرة مثل الحروب والفيضانات والزلازل.
- الاتفاق بين كافة أهل الديانات على عدم الإساءة إلى المقدسات الدينية مثل القرآن الكريم و الرسول صلى الله عليه و سلم و الكعبة المشرفة و كذلك عدم الإساءة إلى رموز أهل الديانات الأخرى.
- تكوين إتحاد عالمي لكافة أهل الديانات لمواجهة تيارات العلمانية والإباحية الأخلاقية التي ترفضها الفطرة الإنسانية و تحرمها كافة الأديان والفلسفات ذات أهمية ومصداقية.
- إبراز جوانب الرفق من تعاليم كافة الأديان و نشرها بين الناس عبر الإذاعات والتلفاز و وسائل النشر

والإعلام الأخرى.

- إيجاد أرضية مشتركة للتعاون بين أهل الملل والأديان من أجل تحقيق السلام العالمي.
- تأسيس جمعيات تعاونية مشتركة من أجل الحفاظ على أمن البلاد من خلال توعية الشعوب والجماهير بأن إزهاق أرواح الأبرياء جريمة و معصية في كافة الأديان و إن حرق البيوت والمصانع ليس إلا تدميراً للبلاد و قطعاً و إفساداً لإمكانات التنمية و النهوض في المجالات الاقتصادية والتعليمية.

هذه وغيرها من النقاط والأسس التي ينبغي أن يدور حوله الحوار بين أتباع الأديان والملل و بذلك يمكن إنقاذ البلاد والعباد من مسلسل الأحداث الطائفية والخسائر البشرية والمادية، والله من وراء القصد.

كشـف المراجع:

- ١ تاريخ الإسلام في الهند د. عبد المنعم النمر
- ٢ أديان الهند الكبرى د. أحمد شبلي
- ٣ ثقافة الهند مجلة حكومية
- ٤ حضارة الهند غوستاف لوبون
- ٥ دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي
- ٦ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه عباس محمود العقاد
- ٧ بوذا الأكبر حامد عبد القادر
- ٨ الأدب الهندي المعاصر محي الدين الألوائي
- ٩ المعتقدات الدينية لدى الشعوب إمام عبد الفتاح إمام
- ١٠ فلسفة الهند القديمة عبد السلام الرامفوري
- ١١ تحقيق ما للهند من مقولة أبو الريحان البيروني
- ١٢ الأديان الحية أديب صعب
- ١٣ المقدمة ابن خلدون
- ١٤ الفكر الصيني ترجمه: عبد الحليم سليم
- ١٥ البوذية هنرى ارقون

١٦	الديانات الوضعية الحية	د. محمد العربي
١٧	العقل والنقل	للعثماني
١٨	قصة الحضارة	ويل ديورنت
١٩	انجيل بوذا	ترجمة: سامي سليمان
٢٠	البوذية	هنري أرفن
٢١	سيرة السلطان تيبو	محمد إلياس بتكلي
٢٢	المناظرة الكبرى	رحمة الله الكيرانوي
٢٣	الهوة المتراودة	د. رفيق زكريا
٢٤	دعوة الإسلام	البروفيسور آرنلد
و كتب أخرى ذات صلة بالموضوع.		

الوسطية

أصول وضوابط

"الوسط" اسم لما بين طرفي الشيء وان أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى ووسط الدابة ومنه الحديث: خير الأمور أوسطها ويقال فلان من أوسط قومه أي خيارهم. ووسط قومه: أوسطهم نسبا وارفعتهم مجداً.

كأنني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبي في آل عمر وفي الحديث الشريف: انه كان من أوسط قومه أي من أشرفهم وأحسبهم وورد انظروا رجلاً وسيطاً: أي حسباً في قومه والوسط يطلق على المعاني المعقولة كما يطلق على الأشياء المحسوسة.

قال أعرابي للحسن: "علّمني ديناً وسوطاً لا ذاهباً ولا فروطاً ولا ساقطاً ولا سقوطاً".

ومن أقوال علي رضي الله عنه: خير الناس هذا النمط الأوسط والوسط المتوسط بين الغالي والتالي.

و ان الدين الإسلامي الحنيف يتميز بالوسطية فهو يهدي

إلى الرشد في كافة جوانب الحياة في قصد واعتدال من غير تفريط
و إفراط في التفكير والشعور لا تجمد على ما علمت و تغلق منافذ
التجربة والمعرفة ولا تتبع كل ناعق وتقلد تقليد القردة المضحك و
إنما تتمسك بما من قيم وتصورات و مناهج و أصول ثم تنظر كل
نتاج للفكر والتجربة وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أي
وجدها فهو أحق بها.

في التنظيم والتنسيق لا يدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر
ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب إنما ترفع ضمائر البشر
بالتوجيه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزواج
بين هذه وتلك فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ولا تكلهم
كذلك إلى وحي الوجدان.

في الارتباطات والعلاقات لا تلقي شخصية الفرد ومقوماته
فلا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه
كذلك فردا أشرا بطرا لا هم له إلا ذاته إنما تطلق من الدوافع
والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع
والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ثم تضع من الكوابح ما
يقف دون الغلو و من المنشطات ما يثير رغبة الفكر.

من أمثلة التوسط في المعاملات المالية في الفقه الإسلامي ما

قرره الفقه الحنفي من ان الرضا هو الأساس مهما كانت صورة التعبير وتأسيسا على ذلك اباح الفقهاء الأحناف البيع بالتعاطي في الثمين والخسيس خلافا للشافعية الذين منعه في الثمين فان الحنفية أبعد غورا لأنهم انصرفوا عن الشكلية واكتفوا بالتعبير الاقتضائي عن الإرادة والرضا.

و هذا توسط بين مبدأ الشكلية القديم ومبدأ الرخاء المحض الحديث الذي أخذه الفقه الغربي وما أخذ به الحنفية هنا يمثل جوهر الاتجاه الفقهي الإسلامي و خطه البياني الصحيح.

والحنفية من بديع الهندسة الفقهية الدقيقة لديهم انهم فرقوا فقالوا فيما فقد ركنا من أركانه أو شرطا من شروط انعقاده باطل. و فيما فقد وصفا من أوصافه فقط فاسد حلا وسطا بين الصحيح والباطل.

وحكم الباطل الانعدام وحكم الفاسد انعقاد البيع مع وجوب الفسخ قبل التقابض فإذا تقابضا صح مع الإثم والسحت وكان عقدا ربويا.

التوسط يعرف بالشرع إن كان شرعيا وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف والإفناء في النفقات. رد النبي صلى الله عليه وسلم التبتل وقال لمعاذ. وقال: إن

منكم من منفرين وقال: "سدّدوا وقاربوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا".

عليكم من العمل ما تطيعون فإن الله لا يمل حتى تملوا أحب العمل إلى الله مادام عليه صاحبه وإن قل ورد صوم الوصال. فالخروج إلى الأطراف خارج عن العدل ففي طرف التشديد مهلكة وفي طرف الإخلال كذلك.

وهناك ضوابط لا بد أن تراعي في رفع شعار الوسطية ومن بينها:

- كون الحكم بالتوسط داخلا تحت أصل من أصول الدين أو كلي من كلياته.

- كون الحكم بالتوسط لا يعارض ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

- كون الحكم بالتوسط فيما لم يقف منه الإسلام موقف الزيادة أو النقص لمصلحة معتبرة شرعا كالتشديد في إثبات الزنا والتساهل في إثبات مالا يطلع عليه إلا النساء من الأمور بامرأة واحدة حيث لا يكفي في الأولى إلا أربعة شهد.

- كون التوسط المجتهد به من الفقيه في غير المنصوص عليه بصحيح المنقول أو صريح المعقول وإلا حكمنا بالنص بلا التفات إلى قرينة التوسط.

- كون الحكم بالتوسط لا يؤدي إلى مفسدة أكبر وإلا ترك التوسط.
- كون الحكم بالتوسط في معالجة الشئون المصلحية على وجه الديمومة والاستمرار لا في معالجة الشئون الآنية تتطلب إفراطاً أو تفريطاً.
- كالنهي عن النظر للأجنبية في الخلوة والأمر بشهوة ، والنهي عن مصافحة غير المحارم والنهي عن الخروج من المعتكف للمعتكف .
- ومن القواعد الفقهية انه إذا زال المانع عاد الممنوع و من أمثلته:
- الإفراط في التزام الأساس وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله.
- تغليب مصلحة على مصلحة مهمة في قصة الروم مع الجامع الأموي مثل أغاظه الكفار.
- يترك جانب التوسط على شيء من الأفراد لمداواة شيء من الإفراط عن حكمة بالغة وهو استثناء و ليس مبدأ مانع الزكاة كان يؤخذ منه نصب ماله.
- إن الأحكام الشرعية لها مدارج فلا يجوز تغيير تلك المدارج.
- فما حرمه الله سبحانه لا يجوز استحلاله
- وما فرضه الله سبحانه وأوجبه لا يجوز استباحة تركه وان

استباحة فعل حرم الله فعله وثبتت حرمة بصورة قطعية ردة عن الدين.

و كذلك استباحة ترك ما فرضه الله سبحانه ثبتت فرضية بدليل قطعي ردة عن الدين.

هناك فئة تعرف بالتنطع في الدين وتبالغ في توجيه الناس فتختار منهج المغالاة في وصف الأمور ومنهج التشديد بدل التيسير مع انه قد ثبت في الصحيح.

يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا

فتحريم المكروه وكذلك إيجاب السنة تحيى على الدين وتعدّ على حدود الله فالذين يلجأون إلى التنطع بالتورع عن بعض المباحات رغبة في امتلاك قلوب العامة والسيطرة على نفوس الذين لا يعلمون الدين يخالفون المنهج الذي رسمه المصطفى صلى الله عليه وسلم وبعضهم يغالي في الشكليات كالغلو في أحكام اللباس والزينة والغلو في أحكام اللحوم والغلو في الطهارة والتبرؤ من النجاسة مع ان هناك حدود مرسومة من الشارع لا ينبغي تجاوزها.

فقد ورد : "وتلك حدود الله فلا تعتدوها"

"وتلك حدود الله فلا تقربوها"

فهناك صور عديدة لتعدى حدود الله من بينها:

- تحريم ما أحل الله
 - وتحليل ما حرمه الله
 - وإيجاب ما لم يوجبه الله
 - واستباحة ترك ما أوجبه الله
- فقد ورد عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال:
- "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا له تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها.
- "الوسطية" وسام وشرف لهذه الأمة وهي من ثوابت الحياة ومن القواعد الراسخات التي تدور حولها تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وإن الابتعاد عن "الوسطية" أو المنهج القويم والصراط المستقيم هو وراء حالة الضعف والوهن التي تعاني منها الأمة.
- إن الإسلام أقام ميزانا عادلا وحث الناس على التزام الحدود التي رسمتها الشريعة فكل خرق وانتهاك للحدود، إما تجاوز عنها وإفراط وغلو في الممارسة أو تقصير فيها وتفريط وتخاذل في تنفيذ أحكام الشرع.
- يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

إن "الوسط" هو معظم الشريعة و أم الكتاب^(١)
ويقول : "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريقة
الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه".
تتميز الأمة الإسلامية بين الأمم والشعوب بأنها الأمة الوسط ،
والوسطية هي التوازن والاعتدال في الفكر والمنهج ، والتوسط كما
هو المعروف منتهى الكمال الإنساني في الفكر والعمل وفي الأدب
والسلوك . وان تميز الأمة في التوازن والاعتدال في التصور والاعتقاد
فلا إفراط في التجرد الروحي ولا تفريط في الارتكاس المادي.
و إن اللا وسطية هي سبب البلاء و ان انعدام الوسطية هو
الذي شلّ وحدة المسلمين ومزّقهم كل ممزق فجعل بعضهم من
الأشخاص أصناما ومن المذاهب أديانا ومن المناظرة مقاطعة
ومهاجرة ومن الرحمة نقمة.

ومن التفريط في الأحكام الشرعية :

- استباحة فعل ما حرمه الله
- استباحة ترك ما أوجبه الله
- الحمل على الندب ما أمر الله به أمر إلزام ورّتب العقاب
على تركه

(١) الموافقات : ج ٣ - ص ١٦٣ .

■ التلاعب بدلالات النصوص للتخفيف من درجة الحكم التشريعي الذي يستفاد منها إما:

- إرضاء للشيطان
- أو اتباعاً للأهواء
- أو ابتغاءاً للجاه والمال
- أو محاباة و موالاة للأقرباء والأصدقاء

ومن أمثلته :

- إباحة بعض المسكرات
- الإذن بجمع الصلوات على غير الصور المباحة
- تهوين أكل مال اكتسبه بالباطل
- تزييل الكبائر إلى مرتبة الصغائر
- إنزال الفرائض إلى درجة المباحات
- تتبع الآراء الفقهية الضعيفة
- تتبع الرخصة في كافة المذاهب أو تتبع أسهل الآراء للتخفيف أو مسايرة القوانين الوضعية.
- عدم الاهتمام بالبحث عن حكم الله حقاً أخذاً من الدلالات الصحيحة للنصوص وهو في الواقع تفلت من ربة أحكام الدين.

من القواعد الفقهية التي تتجلى فيها أثر التوسط القواعد الآتية عند
الأحناف:

- من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه
- يختار أخف الضررين اتقاء لأشدهما
- الضرر لا يكون قديماً

الرد على استطلاع مجلة رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

- أن ما يحدث في العالم العربي والإسلامي الآن أمر يستحق الوقوف عنده لاستخلاص الدروس والعبر ... فما هي في رأيكم أبلغ الدروس التي يمكننا الاستفادة منها؟

✓ لا شك أن ما يحدث الآن في العالم العربي والإسلامي يستحق الوقوف عنده وأن يستخلص الدروس والعبر منه لأن ما يجري في العالم ليس بأمر اعتباطي بل هو جزء من سنن الله التي تجري بعد تحقق أسبابها في الشعوب والأمم. وإن من أعظم الدروس التي يستخلص من الأحداث الجارية أنه لا بقاء للظلم والطغيان، وإن سوء استخدام السلاح والتصرف غير السوي المال في العام من أسباب انهيار الأنظمة، مهما كانت قوية ومدججة بأدوات الفتك والبطش.

و إن مبدأ العدل إذا كان سائدا في المجتمع يكون مساندا

لاستتباب الأمن ومساعدة لبقاء الأنظمة والسلطات إلى فترة أطول كما يؤكد ابن خلدون أن الظلم مؤذن بخراب العمران وهو أمر يصدقه تاريخ الثورات والانقلابات.

- ترى هل هي حوادث عابرة اقتضتها ظروف معينة , أم هي ظاهرة سوف تستمر وتتكرر تقليد لما حدث في أماكن أخرى ؟

✓ إن النمط الذي ظهر للحراك السياسي في بعض البلاد وأدى إلى إحداث ثورات وانقلابات، وإن كان لأسباب خاصة وجدت في تلك البلاد غير أن هذا النمط قابل للتكرار في أماكن أخرى شبيهة، توجد فيها تلك الأسباب وذلك بسبب طغيان وسائل الإعلام، وتوفير أدوات التواصل الاجتماعي التي لم تكن متوفرة سابقا وهي تؤدي دورا رئيسيا في التنسيق بين الشباب من أجل إحداث التغيير وتنظيم حركات التحرير كما أن من طبيعة البشر التقليد والمحاكاة لأنماط جديدة تحدث في أي مكان.

- شعارات رفعتها التظاهرات التي عمت دولا معينة "حرية، ديمقراطية، كرامة، إنسانية" وهي قيم رسخها الإسلام ويرى البعض أن العالم الإسلامي تخلف عنها.

فأين يكمن الخلل عند إنزالها على واقعنا العربي والإسلامي؟ في
الفهم أم التطبيق أم فيهما معا؟

✓ إن مبادئ الإسلام تضمن الحرية المنضبطة وكذلك
الديمقراطية السليمة من الأضرار في ظل الشورى.
كما أن الإسلام هو الذي رسخ مفهوم المساواة بين كافة
أفراد البشرية، وأعلن أنه "لا فضل لعربي على أعجمي ولا
لأبيض على أسود إلا بالتقوى" والصفات المعنوية
والكمالات النفسية التي يكتسبها الإنسان بالتدرب والمرانة
هي مجال التنافس والتسابق.

وهناك تقصير واضح في تطبيق تلك المبادئ في كثير من
الدول المسلمة، فالقول بأن العالم الإسلامي قد تخلف عن
تلك المبادئ ليس أمرا مخالفا للواقع وذلك لأن بعض
الأنظمة في البلاد العربية والإسلامية ارتقت في أحضان
الاشتراكية أو المبادئ البعثية أو القومية الرافضة لمبادئ
الدين الحنيف، وهي التي أساءت سمعة المسلمين وفرضت
على شعوبها سلطات جائرة تغلبت على الأنظمة القائمة
من خلال انقلابات عسكرية وثورات ظلمت العباد
ودمرت البلاد.

إن العالم العربي منذ سقوط الخلافة العثمانية في ١٩٢٤م انقسم إلى دويلات، إتخذت بعض منها الاشتراكية مبدأ لها، وانحازت إلى المعسكر الشرقي الروسي، وبعض أخرى أصبحت خاضعة لمبادئ حزب البعث وانتهجت منهج رفض الدين كمبدأ للحياة، بينما ظلت العديد من الدول تمارس العمل بالتنسيق مع المعسكر الغربي الرأسمالي، فكان الخلل في الفهم والتطبيق معا للمبادئ التي أرساها الإسلام دعائمه.

- العولمة وأدواتها وآلياتها وشعاراتها جعلت من العالم " قرية كونية واحدة" متشابكة المصالح ومتداخلة الأعراف. وأصبح التدخل في شؤون دولة ما قاعدة يجري تعميمها الآن. كيف السبيل إلى قطع الطريق على " أجندة " قد تكون مخيفة تحت هذا الغطاء وبمسميات مختلفة كحقوق الإنسان أو السلم العالمي أو الحريات ؟

✓ إن الشيء الذي جعل العالم اليوم "قرية كونية واحدة" هي ليست "العولمة" وشعاراتها، بل إنها ثورة المعلومات ووفرة أدوات النشر والاتصالات، وهي تستخدم اليوم

لفرض الهيمنة على العالم، أما "العولمة" فقد ظهرت بقوة كمصطلح وشعار في أعقاب الحرب الباردة وتمثلت في الترويج لوحدة الحضارة العالمية ونشر القيم الغربية واستخدمت لهذا الهدف كافة وسائل الاتصالات وأجهزة المعلومات الحديثة كما جعلت المؤسسات الاقتصادية العملاقة وسيلة لنشر مبادئ العولمة. بمفهومها الغربي.

إن الدول الكبرى تحاول من خلال شعار العولمة الاستفراد بالسلطة ومحاولة إلغاء الخصوصيات للأمم والشعوب، وإرغام الناس على اختيار القيم الغربية غطا للحياة.

وإن فرض حضارة واحدة بالقوة على كافة الشعوب تحت شعار العولمة إفناء للطموحات، وإبادة للشعوب، وقضاء على الثقافات وهذا ليس في صالح الإنسانية.

وإن غطاء شعار "حقوق الإنسان" أو "التعايش السلمي" أو "السلم العالمي" و"منح الحريات" التي ترفع لإثارة الشعوب يمكن الحيلولة دونها، وصد الطريق عليها من خلال منح الحريات اللازمة والملتزمة للشعوب، وكذلك التعامل في ضوء أحكام الإسلام مع الأقليات، لأن إجبار الشعب يكاد يفقد رشده في حالة الكبت.

• إلى أي حد تعتقد بأن الشعوب المسلمة محقة فيما ترفعه من شعارات, أو أنها تجاوزت ما هو ممكن إلى ما هو لا يتطابق مع موروثاتها أو واقعها المعيشي أو مستوى الوعي لديها ؟

✓ إن الشعوب المسلمة مغلوبة على أمرها في كثير من البلاد، وهي لا تخضع لنظام واحد أو متشابه في جميع تلك الشعوب والبلاد، فالبلاد التي لا تمنع إسلامية تلك الشعوب عقيدة ومنهاجا، ولا تهضم حقوقها لا داعي فيها إلى رفع تلك الشعارات أو إثارة الخلافات والتراعات. أما البلاد التي انسلخت من مبادئ الدين الحنيف منذ حدوث الثورات العسكرية فيها ووقعت تحت أحكام عسكرية جائرة، أو أنظمت تحارب الدين علنا وتضايق على الناس في التزامهم بأحكام الشريعة، وتمارس أقسى أنواع الظلم إلى جانب نهب خيرات البلاد من خلال مجموعة صغيرة من ذوى النفوذ الفاسدين فمن الطبيعي أن ترفع هناك الشعارات وتكون المحاولات للخروج من المأزق. لكن أساليب معالجة الأوضاع يجب أن تكون مقيدة بقيود الشرع حيث لا يترتب من خلالها التخريب والتدمير أو

الاعتداء على الأرواح والممتلكات ولا تؤدي المعالجة إلى
الفتنة العارمة والفساد الكبير.

- أعادت هذه الأحداث مناظرة الثورة والإصلاح مرة أخرى،
فكيف ترون السبيل الأمثل لتقدم أمتنا؟ وما هو الأفضل في ما
ترون التماس طريق التغيير الجذري أم الإصلاح المتدرج؟

إن التدرج هو الأسلوب الأمثل في الإصلاح وهو الأضمن
لإسعاد الشعوب وتحقيق الرفاهية لكن حينما تقوم
الشعوب لإحداث التغيير ويبلغ السل الزبي فلا ينفع التأني
لأنه لا تكون آذان صاغية تسمع أثناء المسيرات
والاحتجاجات بل يتطلب الأمر في تلك الحالة اتخاذ
خطوات حكيمة وآنية لتهدئة النفوس وإزالة الأسباب
الداعية إلى ذلك إذا كانت حقيقية.

- كيف يمكننا الاستفادة القصوى من لقاء العلماء والمثقفين
والمفكرين المسلمين في مهبط الوحي مكة المكرمة لدراسة وضع
العالم الإسلامي؟

✓ إن العلماء والمثقفون والمفكرون هم نخبة الشعوب

- وعليهم مسئوليات ضخمة، وإن اجتماعهم في مكة المكرمة، وفي رحاب البيت العتيق لا شك أنه يتيح الفرصة للاستفادة منهم في حل قضايا الأمة وذلك من خلال:
- استطلاع الرأي عن كثب وإجراء الحوار معهم حول القضايا الراهنة.
 - عقد ورش عمل جانبية أثناء انعقاد المؤتمر.
 - محاولة توحيد آرائهم حول القضايا المثارة بتوجيههم إلى نبذ ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف في بلادهم.
 - مناقشة القضايا الخلافية التي يثيرها أو يديرها بعض هؤلاء النخبة في بلادهم.
 - تقريب وجهات النظر حول القضايا الفقهية والفكرية المختلفة.
 - إيجاد آلية لتحريك كافة العلماء والمفكرين لمعالجة قضايا مصيرية ذات أهمية وخطورة.
 - تكوين وفود أو فرق عمل منهم للعمل في بلادهم وأماكن نفوذهم لحل المشاكل الراهنة التي يعاني منها المسلمون.
 - استقطابهم من أجل صد "الفتنة الطائفية" التي تريد إثارتها بعض الدول والجهات وجمع كلمتهم لحماية بلاد الحرمين الشريفين وتجنّبها من النعرات والشعارات المنافية للآداب

والأخلاق والشرائع والأديان، علماً أن بلاد الحرمين الشريفين يجب المحافظة على أمنها وعدم إثارة أي نوع من الفتنة فيها لأن أمن المسلمين مرتبط بأمنها ولا يجوز التفريط فيه.

- إيجاد آلية التعاون لعلماء كافة البلاد والأمصار مع رابطة العالم الإسلامي وذلك بربطهم بالملتقى العالمي للعلماء والمفكرين المسلمين.

و أخيراً إن مجلة رابطة العالم الإسلامي تستحق كل شكر وتقدير على هذه الخطوة الاستطلاعية المباركة وهي سوف تساعد في تحقيق أهداف المؤتمر العالمي حول القضايا والحلول لمشكلات المسلمين بإذن الله. والله ولي التوفيق،،،

* * *

إحترام التنوع الحضاري والثقافي

وحدة الأصل:

إن بداية البشرية كانت من نفس واحدة يقول الله عز وجل:
"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة
وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله
الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً"^١.

فأصل الإنسان واحد في نظرة الإسلام فلا مجال للتفاخر
والتناحر على الشرف النسبي أو الاختلاف العنصري يقول الرسول
المصطفى صلى الله عليه وسلم:

"يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل
لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على
أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"^٢.

إن اختلاف الأجناس والألوان وتعدد الأمم والشعوب
وانقسام الناس إلى القوميات والقبائل ظاهرة طبيعية وتكوين إلهي

^١ سورة النساء: ١.

^٢ رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح.

وهي وسيلة طبيعية للتمايز والتعارف بين الناس يقول الله عز وجل:
"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير"^١.
كما أن اختلاف الألسنة والألوان بين الجنس البشري الواحد
آية من آيات الله سبحانه.

يقول الله عز وجل:
"ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم
وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين"^٢.

موقف الإسلام من التنوع الحضاري:

فالتنوع والتعدد في مجال الثقافة والحضارة وكذلك اختلاف
الناس في الانتماء إلى الديانات والمذاهب أمر طبيعي يتعامل معه
الإسلام كأمر واقع لا مناص منه بل هذا التنوع، هو وراء نزول
الوحي، ومجيء الرسل وتتابع الكتب السماوية على امتداد التاريخ
الإنساني لإرشاد الناس وهداية البشرية إلى السبيل الأقوم والطريق
الأمثل.

^١ سورة الحجرات: ١٣.

^٢ سورة الروم: ٢٢.

وإن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين وخاتماً
للنبيين مصداقاً للأنبياء والمرسلين الذين سبقوه فالمسلمون ملزمون
إلى جانب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بأن يصدقوا كافة
الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله.
يقول الله عز وجل:

"قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي
النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"^١.
ويقول:

"آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله"^٢.
فهناك تقدير وإجلال للأديان السماوية كلها واحترام للأنبياء
جميعاً بل إن الإيمان بنبوهم جزء من تعاليم الدين الحنيف وإن
الإسلام امتداد لما سبقه من الأديان السماوية.
يقول الله عز وجل:

"إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده

^١ سورة البقرة: ١٣٦.

^٢ سورة البقرة: ٢٨٥.

وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى
وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً^١.
ويقول:

"شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء
ويهدي إليه من ينيب"^٢.

ففي الثقافة الإسلامية، "الإطار الإنساني" جامع لكافة الأمم
والشعوب، وأن أصل الديانات السماوية واحدة، وإن التعصب
لعنصر أو جنس ضد بقية الأجناس مرفوض إسلامياً ولا مجال فيه
لاحتكار الفضائل الأخلاقية لأمة دون سائر الأمم بل هناك مجال
واسع للتسابق في الخير والتنافس في الوصول إلى أعلى الدرجات في
المبادئ والقيم.

إن الإسلام لا يجبر أحداً على قبول مبادئه واختيار عقيدته لأن
الإيمان لا يمكن أن يتحقق إلا بالإقناع فعدم إجبار الإنسان وعدم
إكراهه على اعتناق ما يخالف عقيدته مبدأ ثابت في الثقافة

^١ سورة النساء: ١٦٣.

^٢ سورة الشورى: ١٣.

الإسلامية.

وإن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة وأن شريعته هي الشريعة الخالدة لكن هذه الشريعة لم تقطع علاقتها مع الشرائع السابقة بل أكدت أن الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد^١.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الموقف في أكثر من موقع فجاء في "وثيقة المدينة":

"المؤمنون والمسلمون أمة واحدة من دون الناس، واليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وبينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وبينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم".

إن "وثيقة المدينة" في الواقع نبراس ينير الطريق للتعايش السلمي بين أهل الديانات المختلفة كما أن هذه الوثيقة تكفل الحقوق والحريات لكل أبناء الوطن وهي غير مسبوقة في تاريخ الأمم والشعوب.

تتميز وثيقة المدينة بأنها ترسخ مفهوم التعايش مع أهل الديانات المختلفة في وطن واحد وتحفظ خصوصيات جميع فئات

^١ رواه البخاري ومسلم.

المجتمع التي تنتمي إلى الديانات المختلفة لكنها تعيش في وطن واحد.

كما أن هذه "الوثيقة" خير دليل على تسامح المسلمين مع أصحاب الملل والديانات المختلفة.

وهناك وثائق عديدة وهي شواهد عدل على سماحة الإسلام وقبوله التنوع الحضاري والثقافي ومن تلك الوثائق ما كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهل مقنا: "لكم ذمة الله وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم وأموالكم وكل ما ملكت أيماكم".

وكذلك ما كتبه إلى أهل نجران:

"ولنجران وحاشيتهم حوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم ويبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانيتها ولا كاهن من كهانته وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية وبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين".^١

وينص القرآن بوضوح على تعدد الشرائع والملل ويقول:

"إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين

^١ مجموعة الوثائق السياسية ١١٢.

أسلموا للذين هادوا"^١.

ويقول:

"وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين"^٢.

وقد أقر الفقهاء "شريعة من قبلنا" كمصدر من مصادر التشريع التابعة فيما لم ينسخه نص من شريعتنا يقول الإمام السرخسي:

"وأصح الأقاويل عندنا ان شريعة من قبلنا هي شريعة لنبينا عليهم السلام ما لم يظهر ناسخه"^٣.

ويرى المسلمون أن الاختلاف بين بني آدم بأن يكون البعض منهم مؤمنا والبعض الآخر كافراً وأن يكون البعض على ملّة والآخر على ملّة أخرى يرجع إلى حرية الإرادة التي منحها الله للإنسان والحكمة أراد الله سبحانه أن لا يرغم الجميع على قبول دين أو منهج واحد فيكون اتفاق الجميع على طريقة واحدة

^١ سورة المائدة: ٤٤.

^٢ سورة المائدة: ٤٦.

^٣ أصول الفقه للسرخسي ١٠١/٢ - ١٠٢.

مناهضا لقضاء الله الذي شاء أن يقيم الحجة على الجميع وأن يمنح العقل للإنسان وأن يهديه إلى النجدين ثم يحاسبه على عصيانه واختياره الخاطئ وأن يجازيه على اهتدائه وإيمانه بالله ورسله واستقامته على سبيل الرشاد.

يقول الله تعالى:

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين"^١.

ويقول تعالى:

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"^٢.

وأعلن بوضوح أنه: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"^٣.

لأن الإيمان هو التصديق بالقلب والاعتناق يكون عن اقتناع وهذا لا يتحقق بالإكراه إذ لا سلطان لأحد على قلوب الناس فالله

^١ سورة هود: ١١٨ - ١١٩.

^٢ سورة يونس: ٩٩.

^٣ سورة البقرة: ٢٥١.

وحده هو الذي يشرح صدر الإنسان للإسلام وان الأنبياء والرسل
ليس عليهم إلا البلاغ. قال تعالى:
"إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو
أعلم بالمهتدين"^١.
ويقول:

"فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن
يُضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك
يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون"^٢.
فجمع الناس كافة على دين واحد غاية لا تدرك وإرغام كافة
الأمم والشعوب على قبول منهج واحد أو اعتناق ديانة واحدة أمر
غير قابل للتحقيق.

إن القرآن الكريم حافل بدعوة المسلمين إلى الاعتراف بوجود
الآخر وحسن التعامل مع من لا يشاركونهم في العقيدة أو إساءة
الخير والنصح إليه إذا لم يكن هذا الغير يحاول إفناءه من الوجود أو
إقصاءه من المعمورة.
يقول الله عز وجل:

^١ سورة القصص: ٥٦.

^٢ سورة الأنعام: ١٢٥.

"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"^١.

وباعتبار أن الإسلام هو آخر الأديان وأكملها ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء وإن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده وأن المصطفى صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، قد حث الله المسلمين أن يدعوا الناس إلى الإسلام لإخراجهم من الظلمات إلى النور ولحملهم على أصل الاعتقاد وهو التوحيد الذي كان عليه الأنبياء السابقون وأرشد القرآن إلى اختيار الرفق في الدعوة إلى الإسلام وأمر بإجراء الحوار مع الآخرين والمناقشة معهم بالحسنى.

يقول الله تعالى:

"أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"^٢.

ويقول:

"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

^١ سورة الممتحنة: ٨.

^٢ سورة النحل: ١٢٥.

منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"^١.

العلاقة بالآخر:

إن الإسلام يعترف "بالآخر" ويقيم معه علاقة الدعوة والهداية، ولا يعتبر "الحروب" وسيلة لتحقيق المطامع الشخصية.

بل إن القرآن هو أوّل كتاب وضع أسس "الحرب" وأخرجها من مفهوم الاستيلاء والتغلب على الشعوب من أجل ابادتها وبسط السيطرة على أراضيها ونهب ممتلكاتها واشباع حب التملك من أجل نفع الذات كما هو المشاهد في معظم حروب العالم التي تدمر البلاد وتبيد العباد وتهلك الحرث والنسل من غير أن تجلب للإنسانية أي نفع أو خير.

على عكس ذلك يحدد الإسلام هدف الحرب بأنه القضاء على الفتنة يقول الله عز وجل:

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"^٢. وإن من مقاصد الحرب في الإسلام أن

^١ سورة العنكبوت: ٤٦.

^٢ سورة البقرة: ١٩٣.

تكون كلمة الله هي العليا.

فمن يقارن بين نتائج الغزوات التي خاضها المسلمون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عصر الراشدين يجد أن عدد القتلى بين الطرفين تعد على الأصابع مع أن تلك الغزوات قد غيرت مجرى التاريخ ونجحت في إنقاذ الناس من ظلم الملوك وجور الأديان وادت دوراً كبيراً في بسط العدل وإسعاد الشعوب والأمم بينما الحرب العالمية الأولى أو الثانية قد دمرت البلاد وأزهقت أرواح ملايين من الناس ولم تأت للإنسانية بأي نفع. يقول أحد القساوسة من النصارى معترفاً بتسامح المسلمين:

إن هؤلاء العرب الذين أعطاهم الله الحكم وسيطروا علينا أنهم لا يحاربون النصرانية إطلاقاً بل يحمون ديننا ويحترمون القساوسة والقديسين منا ويخصصون لكنائسنا الأراضي والعطايا^١.

ويقول أحد القساوسة الرومان كما جاء في كتاب تاريخ "القانون القومي":

"إن أفراد الفرقة اليعقوبية من النصارى رحبوا بالفاتحين المسلمين لأنهم حافظوا على كيان كل طائفة وعينوا رجال الدين

^١ الحكم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم للدكتور محمد حميد الله ١٤٨.

منهم على مناصب قيادية"^١.

سماحة الإسلام في التعامل مع الآخرين:

وقد شهد التاريخ أن المسلمين حينما خرجوا غزاة فاتحين وعاملوا مع الشعوب بالعدل والسماحة ومنحوها الحرية وحافظوا على كرامتها تطبيقاً لمبادئ الإسلام وتعاليمه فالشعوب التي كانت تعاني من جور الفرس والروم خرجت لترحب بالمسلمين فقد كتب المسيحيون في الشام إلى أبي عبيدة رضي الله عنه:

يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا وأنتم أوفى وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا^٢. وأغلق سكان حمص أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل واعلموا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الرومان وتعسفهم.

وفي مصر رحب الاقباط بالفتح الإسلامي ووجدوا عند عمرو بن العاص أعظم التسامح فانقذهم من الاضطهاد الديني ومن عسف الروم وتنكيلهم^٣. ومن الاحترام للآخر الذي جعله الإسلام

^١ أيضا ١٤٨.

^٢ فتوح الشام للبلاذري ٩٧ - ١٢٩.

^٣ آثار الإسلام ٤٧ - ٤٩.

طريقة ومنهاجا ما جاء في التعامل مع الذميين والمعاهدين.
يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم:
"ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو
أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فإنه حسبي يوم القيامة"^١
ويتجلى سمو مبادئ الإسلام في المعاهدات التي عقدها النبي
صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الأراضي المفتوحة فقد أقيم
الذميون على عقائدهم وشعائهم الدينية.
وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم برعايتهم والحفاظ على
أرواحهم وممتلكاتهم. كما بين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:
"فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر"^٢.
وقال: "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"^٣.
وقال: "وما أرسلناك عليهم وكيلاً"^٤.
وقال: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً
إلى الله باذنه وسراجاً منيراً"^٥.

^١ رواه أبو داود.

^٢ سورة الغاشية: ٢١ - ٢٢.

^٣ سورة يونس: ٩٩.

^٤ سورة الإسراء: ٥٤.

^٥ سورة الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.

بل وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم قائلًا:
"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام
الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون"^١.
والزمه بإيفاء العهد ولو كان مع المخالفين والمشركين يقول
الله عز وجل:

"إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا
عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين"^٢.
ومن التعبيرات الشائعة لدى الفقهاء في بيان حقوق الدميّين:
"لهم ما لنا وعليهم ما علينا" أو "لهم ما للمسلمين وعليهم ما على
المسلمين".

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
"إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا".
ويقول الإمام السرخسي:
"ولأنهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال
المسلمين وحقوقهم"^٣.

^١ سورة التوبة: ٦.

^٢ سورة التوبة: ٤.

^٣ شرح السير الكبير ٢٥٠/٣.

ويظهر من هذه العبارات أن الذميين كالمسلمين في الحقوق والواجبات وأن الدول الإسلامية لم تتردد في قبول الذميين في بعض الوظائف العامة. أو إسناد بعض المسؤوليات إليهم فأسرى غزوة بدر حينما نقلوا إلى المدينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم تعليم أولاد الأنصار فداء لهم وبتعبير آخر تعليم بعض المواطنين المسلمين أسند إلى من لم يكونوا مسلمين.

وفي غزوة ذي الحليفة اتخذ عينا من بني خزاعة وكان كافرا كما أن الفقهاء صرحوا بجواز اسناد وظائف جباية الزكاة والخراج إلى الذميين^١. وأعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل إيلياء أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وأنهم لا يضطهدون بسب نصرانيتهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وإذا أرادوا أن يسيروا بأنفسهم وأموالهم إلى الروم ويخلوا بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم، كما أنه لم يرض أن يصلي في الكنيسة حتى لا يقلده المسلمون ويسبوا الإحراج للنصارى.

وعاهد خالد بن الوليد أهل دمشق على الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ولا يسكن شيء من دورهم

^١ الأحكام السلطانية للماوردي ١٢٦ ولأبي يعلى ١٢٤.

ولا يعرض لهم إلا الخير إذا أعطوا الجزية لهم بذلك عهد الله وذمة
رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء المؤمنين^١.

وقد بقيت هذه الروح من السماحة سارية في تعامل المسلمين
في البلاد الأخرى أيضاً فقد نص في الصلح مع أهل آذربيجان على
أن لا يقتل المسلمون أحداً من أهلها ولا يأسروه ولا يهدموا بيتاً
من بيوت النار.

وكتب قاضي القضاة أبو يوسف رحمه الله إلى الرشيد ينصحه:
وينبغي يا أمير المؤمنين - أيديك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل
ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى
لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من
أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

وهناك أمثلة كثيرة لتسامح المسلمين مع غير المسلمين بل المبالغة
في ذلك، فقد ذكر ابن عساكر في سيرة ابن فاتك الذي شهد فتح
دمشق أنه تولى قسمة الأماكن بين أهلها بعد الفتح، فكان يترك
الرومي في العلو ويترك المسلم في أسفل لئلا يضر بالذمي.

وقد نص القرافي وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا
إذا تعرض الحربيون لبلادنا، وقصدوهم في جوارنا أن نموت في

^١ فتوح البلدان للبلاذري ١٢١ تاريخ دمشق ١/٢٤١.

الدفاع عنهم، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالا لحقوق الذمة. ويقول القرافي: إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم، وسد خلة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم، مع القدرة على الدفع، رفقا بهم لا خوفاً ولا تعظيماً، وإخلاص النصيحة لهم في جميع أمورهم، ودفع من تعرض لإيذائهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكرم الأخلاق أن يفعله.

ولما تغلب المسلمون على التتر في الشام خاطب ابن تيمية قطلو شاه في إطلاق الأسرى، فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل الذمة، فقال له شيخ الإسلام: لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً من أهل الملة، ولا من أهل الذمة. فأطلقهم له^١.

وقد تمسك النصارى بتقاليدهم الثقافية وحافظوا على لغاتهم الأصلية فكانت لهم الآرامية والسريانية لغة في سوريا والعراق، والإيرانية في فارس، والقبطية في مصر... وفي المدن تقلد النصارى واليهود مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة، وتمتعوا

^١ الإسلام والحضارة العربية لـ محمد كرد علي ٤٠ - ٤١.

في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية.

"العولمة" وسياسة فرض الحضارة الموحدة:

وعلى عكس ذلك نرى أن "العولمة" ظهرت بقوة كمصطلح وشعار في أعقاب الحرب الباردة وتمثلت في الترويج لوحدة الحضارة العالمية ونشر القيم الغربية من خلال الثقافة الاستهلاكية واستخدمت لهذا الهدف كافة وسائل الاتصالات الحديثة وأجهزة المعلومات المستحدثة كما جعلت المؤسسات الاقتصادية العملاقة وسيلة لنشر مبادئ العولمة بمفهومها الغربي.

ولكن هناك شعور متنام لدى الشعوب والأمم الأخرى إن العولمة ليست إلا خطة للاستفراد بالسلطة ومحاولة لإلغاء الخصوصيات للأمم والشعوب الأخرى وستاراً لترسيخ الهيمنة الغربية على الشعوب والدول الشرقية ومن الطبيعي أن تكون المعارضة قوية لمثل هذه التوجهات وذلك لأن فكرة "المركزية الحضارية" تتنافى مع فطرة الإنسان وتعتبر تحدياً خطيراً للأمم والشعوب بأجمعها.

فهناك تعددية واقعية في الشعوب والقبائل وتعددية في اللغات والألسنة وتعددية في الشرائع والملل وفي المناهج والثقافات فمن

الطبيعي ان تكون تعددية في الحضارات أيضاً لأن العالم متدى الحضارات لامكان حضارة واحدة تحاول أن تبتلع كل الحضارات وكل القيم وكل الديانات وكل الثقافات.

ففي فرض حضارة واحدة بالقوة على كافة الشعوب تحت ستار العولمة إفناء للطموحات وإبادة للشعوب وقضاء على الثقافات وهذا الأمر ليس في صالح الإنسانية.

إن الإسلام دين الفطرة وهو لا ينكر تعدد الحضارات ولا تعدد الشرائع والديانات وإنما يرشد الإنسان إلى ما هو أوفق بفطرته وضمن لصالح دينه ودنياه.

ويفتح أمامه آفاقاً واسعة للتنافس والتسابق حتى يمكن القضاء على المواقف الظالمة والممارسات الخاطئة لأية فئة أو جماعة خارجة عن النظام.

يقول الله عز وجل:

"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون"^١.

وأشار القرآن إلى أهمية التعدد وسنة التدافع:

^١ سورة المائدة: ٤٨.

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"^١.

ويقول تعالى:

"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم"^٢.

إن مظاهر التقدم العمراني والعلمي والفني والأدبي والروحي كلها تدخل ضمن مفهوم "الحضارة" لكن حضارة الإسلام تتكون في ظل العقيدة والقيم والتشريع والأخلاق كما أن الثقافة من غير دين جسد بلا روح ووسيلة للتخريب والتدمير بدل البناء والتعمير. أما الثورة العلمية وكذلك تكنولوجيا المعلومات من وسائل نشر القيم وتطوير الحضارات وليست هي الحضارة ذاتها.

إن الأحداث المتسارعة التي تجري في العالم منذ عقد من الزمن أعطت انطباعاً لدى الشعوب الإسلامية بأن "العولمة" في حقيقة الأمر ليست إلا محاولة لفرض الهيمنة الرأسمالية بتوجهاتها الليبرالية وخلق "نذ جديد" يحل محل الشيوعية الماركسية التي كانت وراء

^١ البقرة: ٢٥١.

^٢ سورة فصلت: ٣٤ - ٣٥.

استمرار الحرب الباردة بين الشرق والغرب خلال العقود الماضية
وبتعبير آخر هناك محاولة مكشوفة لزج "الإسلام" في الصراع بين
الأمم واعتباره علامة "للخطر الأخضر" بعد زوال وانتهاء "الخطر
الشيوعي الأحمر" وخلق هالة من الخوف والهلع حول الإسلام
واعتبار المسلمين مصدراً للعنف والإرهاب فيتم ترويع الآمنين من
شعوب العالم المختلفة باسم الإسلام حيناً وبالأصولية الإسلامية
"وبالتطرف الإسلامي" حيناً آخر.

يقول البروفسور "اوثر لوري" أستاذ العلاقات الدولية بجامعة
فلوريدا:

بعد الحرب الباردة صور الإعلام الأمريكي الإسلام على أنه
متطرف وغير ديمقراطي ومعاد للغرب كما أصبح الإسلام مدانا إذا
ارتكب أي مسلم عمل عنف وفقا للمفهوم الغربي والأمريكي.
وبمجرد تلاشى الحرب الباردة انبري الذين كانوا فرسان الكتابة
أيام السوفييت، للهجوم على الإسلام^١.

ومن ناحية ثانية قد زادت فكرة "العولمة" بمخططاتها
الاقتصادية والتجارية الهوة بين الدول الفقيرة التي تزداد فقرا
والدول الغنية التي تزداد ثراء وفي مجال القيم أيضاً جلبت "العولمة"

^١ حوار الحضارات ٦٠.

بالفوضى الأخلاقية وأدت إلى تدمير نظام الأسرة كما أن التلاعب بالجينات الوراثية والتمادي في مجال الهندسة الوراثية فتح أبواباً جديدة للفساد لأنه من أسباب الانحلال الأخلاقي، ومناف لكافة المبادئ والقيم الدينية والأخلاقية.

ولا شك أن "التعايش السلمي" بين الشعوب لا يمكن أن يتحقق إلا باحترام التنوع الحضاري والثقافي فإن الهجوم على ثقافة أمة أو حضارتها والإساءة إلى معتقداتها أو النيل من مقدساتها يؤدي إلى إثارة الفتنة لا يمكن التعايش الآمن معها.

وان القرآن الكريم قد علم المسلمين أدباً عاماً في التعامل مع الآخرين واحترام خصوصيات كل أمة وعدم التعرض لها بسب أو إهانة ولو كانت على باطل فمع أن الشرك بالله أعظم جريمة ترتكب على وجه الأرض لكن الله سبحانه وتعالى يخاطب عباده الموحدين قائلاً:

"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون"^١.

وقد بلغ الاحتياط في تعامل المسلمين مع غيرهم إلى درجة

^١ سورة الأنعام: ١٠٨.

منعوا من استخدام تعبيرات تجرح شعور غير المسلمين فقد جاء في معين الحكام: إذا شتم الذمي يعززلأنه ارتكب معصية وفيه نقلا عن الغنية:

ولو قال للذمي يا كافر يأثم إن شق عليه^١.
وإن هذا الأسلوب الراقي هو الذي ظل منهج المسلمين في التعامل مع الآخرين.

إحترام التنوع الثقافي ضمان للتعایش السلمي:

وأخيراً فإن عصر "العولمة" الذي نعيش فيه والذي يتميز بتقليل المسافات وتوفير وسائل الاتصالات لا يصعب فيه التغلب على المعوقات ونشر المبادئ والقيم التي تحقق العدالة في المجتمع الإنساني ويحقق المناخ المناسب للتعایش السلمي بين كافة الأمم والشعوب على اختلاف مذاهبها ودياناتها وتعدد حضاراتها وتنوع ثقافاتھا شريطة أن تصدق الإرادة لدى القوى الكبرى والدول التي تخلق الأزمات وتديرھا بأن تستخدم إمكاناتها الهائلة ووسائلها الضخمة للقضاء على الظلم ومناصرة المظلومين فتزول تلك المعوقات التي صاحبت "العولمة" وأن لا يتجرأ شخص أو جهة للهجوم على أمة

^١ تفسير المنار ٦٦٧/٧.

أو ديانة معينة أو الإساءة إلى الأنبياء أو الكتب الدينية والمقدسات الأخرى.

إن الإسلام سلام للشعوب والإيمان أمان للجميع والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.

إن الإسلام يرفض الإكراه ويرفض الظلم أيا كان مصدره ويرفض التشدد والعنف مهما كان مبعثه ويدعو إلى الوفاق والوئام والمودة والسلام واحترام الآخر مهما كانت حضارته وأيا كانت ثقافته. والله ولي التوفيق.

* * *

المحتويات

الصفحة	العنوان
٥	الإسلام وحقوق الإنسان
١٩	دور الشعائر الدينية في بناء الحضارة الإنسانية (حجّة الوداع نموذجاً)
٥٢	معالم الرحمة في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم
١٠٠	معالم الرحمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٣٣	تحديات الأمن الفكري ومعوقاته في ضوء الثقافة الدينية
١٧٥	حوار مع أتباع الفلسفات الوضعية
٢٢٨	الحوار وأثره في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٦	أسس الحوار مع أتباع الأديان الشرقية
٣١٩	الوسطية - أصول وضوابط
٣٢٩	الرد على استطلاع مجلة رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
٣٣٨	احترام التنوع الحضاري في عصر العولمة